الذاتية والقيم الوجودية
في
أدب المازني

إبراهيم الكاتب .
إبراهيم الثاني .
ثلاثة رجال وامرأة .
عود على بدء .
ميدو وشركاه .

تأليف

محمود القليني

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

الفهرس

الفهرس ٢
المـقدمــة..... ٤
عناصر البحث :..... ٦
الذاتية عند "المازني" ٨
فلسفة المازني (المازنية) ١٧
مأساة الإنسان ٢٣
أولاً: القيمة الإنسانية :..... ٢٤
ثانيا : قدرية الوجود الإنساني :..... ٢٩
ثالثا : عبثية الوجود :..... ٣٣
رابعاً: الخروج من أزمة الوجود الإنساني..... ٤٠
الصراع المجهض عند المازني..... ٥٠
النسج المهلهل في إبراهيم الثاني..... ٦٤
افتعال الحبكة القصصية المعتمدة على المصادفة. ٧٨
الوجود الغض وعود على بدء..... ٨٨
السخرية تصالح إنساني مع الوجود..... ٩٢
مقالات مختارة ٩٨
الحياة المصرية ينقصها المرح..... ١٠١
الكتابة وثقلها ١٠٦
المـــــال..... ١٠٩

صور وأخلاق : المال ١١٢
في الكتابة والكتب ١١٥
مساكين تلاميذ هذه الأيام ١١٩
مشقة التحصيل ١٢٢
من أنا ؟ ١٢٧
الأدب والمدرسة ١٣٠
السعادة لا توهب ١٣٤
المـوت ١٣٧
خواطر في الحياة والموت ١٤١
سرقت لأصبح أديبًا ١٤٤
في الحب أيضًا ١٤٧
معاملة الناس ١٥٢
الدستور ورجل الشارع ١٥٥
العراق بين ماضيه وحاضره ١٥٩
المصريون وروح الفن ١٦٥
نشر في جريدة : البلاغ- بتاريخ ديسمبر ١٩٤٣ ..... ١٦٥
النكتة المصرية ١٧١
سـيرة ذاتـيـة ١٧٥

المـقدمـة

يشغل(إبراهيم بعد القادر المازني)مكانة خاصة بين الأدباء العرب ولا أبالغ إذا قلت إنه اكتسب أسلوبا خاصا به، لا يشاركه فيه أحد منذ أن عرف الأدب العربي طريقه إلى التدوين والتسجيل ، فأنت تجده هنالك قابعا في مكانه – والذي آثر أن يكون متواضعا – بين أدباء الإنسانية ، فضلاً عن أدباء العربية وإذا نظرت العين فلا يمكن أن تخطئه ، فهو من أولئك الذين تشعر بأنك صديق حميم لهم ، وأنك سرت معه وجلست وطعمت وشربت وتناقشت وتجادلت واختلفت واتفقت ، تشعر بروحه الفياضة الصافية السمحة من خلال أسلوبه الإنساني السامي ، والذي لا يأنف أن يشركك معه في أخص خصوصياته .

ولقد عرفت المازني معرفة وثيقة ، من خلال كتبه ، سواء كانت شعرًا أو نقدا أم مقالات أو قصصا طويلة كانت أم قصيرة ، واستوقفتني قصصه كثيرًا، وقرأتها مرارًا ؛ لأني أجد فيها الإنسان مجسدًا بدون زيف ولا دهان ، فالمازني من القلائل الذين يستطيعون أن يقفوا بك عند الإنسان حينما يسلب من كل إرادة وقوة ليرصدوا لك مظاهر سلوكه وتصرفاته ، ويسجلون – وبصدق – كيفية انتصار الإنسان على مشاكله ، والتغلب على محنه ومآزقه ، وقدرته العجيبة والخارقة لتحديد مصيره في هذا الوجود .

وحينما راودتني فكرة الدراسة، رأيت أن أعيد قراءة ما قرأته من قبل وشتان بين القراءتين ، فالأولى كانت استمتاعًا ومعرفة واطلاعًا ، أما الثانية فقد كانت نقدًا ومقارنة وتمحيصًا ، وبعد أن غربلت ما كتبه المازني من قصص ، لم أجد سوى القليل يصلح أساسا لتلك الدراسة ، فأغلب ما كتبه المازني من العسير أن ينطبق عليه مفهوم القصة ، ولم أجد بدا من وضع معيار يساعدني على أن أختار ما يصلح لتلك الدراسة ، وهو أن القصة التي تعكس تفكير وفلسفة القاص أو تساعد في تكوين تلك الرؤيا التي يراها أو

الموقف الذي كان يقفه القاص من الوجود وجزئياته المتوافق منها والمتعارض ، تصلح أن تستند عليها تلك الدراسة ، سواء بلور هذا شكل القصة أو مضمونها ، فإن الشك فضلا عن المضمون قد يكون أقدر على عكس نظرة ورؤيا القاص .

ووجدت هذا متحققا في :

(١) إبراهيم الكاتب .

(٢) إبراهيم الثاني .

(٣) ثلاثة رجال وامرأة .

(٤) عود على بدء .

(٥) ميدو وشركاه .

وإذا كانت تلك القصص لا يتحقق فيها المعمار القصصي أو الشكل القصصي الناضج ، فإنما يشفع لها أن القصة العربية في ذلك الوقت كانت تخطو أول خطواتها ، وكانت أكثر تلك الخطوات تعثرًا أو حبوًا ، فهناك(زينب) للأستاذ الدكتور : محمد حسين هيكل ، و (سارة) للعقاد ، وغيرهما لم يتحقق فيها الشكل القصصي ، فهي لا تحتوي على الكثير من مواصفات القصة من صراع أو حبكة وعقدة ، ورسم للشخصيات إلخ ...

كل ذلك كان (المازني) يتذبذب قربًا أو بعدًا من الإمساك به ، ولكنه لم يمسك بهم أبدا ، **وكما يقول الدكتور (شكري عياد)** : " وقصصه الطويل والقصير نوع من السرد على مستوى واحد لا يعني بتطوير الفعل أو الشخصيات " [1].

[1] تجارب في الأدب والنقد – د .شكري محمد عياد – صفحة (٤٧)

إلاَّ أن قصصه استطاعت أن تعكس ملامح الزمان وتعاريج المكان ، وتصور ما كان يحفل به وجدان الإنسان ، وأن تقف طويلاً أمام الإنسان لتعكس بل وتجسد مأساته في هذا الوجود .

عناصر البحث :

الفصل الأول : عرضت فيه ظاهرة الذاتية لدن المازني ، وابتعاد الأحداث والشخصيات عن الموضوعية القصصية ، والذي وضح وجلى تلك الظاهرة ظاهرة أخرى أخذت مكانها عند المازني وهي ظاهرة (التمرد)، والتي دفعته إلى الاسراف في تقدير الذات والعلو بها إلى درجة الكبر والغرور ، مما دفعه إلى إضفاء صفات القوة والقدرة على الذات .

الفصل الثاني : وتتضمن محاولة استخلاص فلسفة المازني، ووضحت أنها ليست فلسفة بالمعنى المفهوم ، وإنما هي سمة ذاتية ، أسميتها (المازنية) ، وأنها تعكس مأساة الإنسان **والتي تتشكل من محاور ثلاث :**

- **قيمة الإنسان .**
- **قدرية الوجود .**
- **عبثية الوجود .**

الفصل الثالث : وتناول نوعية الصراع في قصص المازني ، وأنه لا تتوافر فيه عناصره التي تصل به إلى الذروة ، وإنما هو صراع مجهض .

- نوعية الصراع في (إبراهيم الكاتب) .
- الانكسار في شخصية (إبراهيم الكاتب) .

الفصل الرابع :

- النسج المهلل في (إبراهيم الثاني) .
- الحب والوجود المفقود .

الفصل الخامس :

- افتعال الحبكة القصصية المعتمدة على المصادفة غير المبررة في:(ثلاثة رجال وأمرأة) و (ميدو وشركاه) .
- المعادلة الصعبة في : (ثلاثة رجال وامرأة) .

الفصل السادس : الوجود الغض وعود على بدء .

الفصل السابع : السخرية تصالح إنساني مع الوجود .

وقد ذيلت البحث بمقالات مختارة للمازني ، وهي تعكس سمات وخصائص أدبه من ناحية ،وترصد بكل دقة التغيرات والتبدلات التي مرت بها مصر في تلك الفترة ، ومن ناحية أخرى توضح وتجلي ملامح شخصيته الثرية والمراحل والأطوارالتي مر بها.

الذاتية عند "المازني"

الفن القصصي في حاجة إلى شيء من الموضوعية ، والتي بدونها لا يستطيع هذا الفن الوقوف على قدمين ثابتين ، فهنا لا وجود للقاص ولا أثر له ولا حتى في إملاء رؤياه على شخصياته ، وإن حدث تدخل من نوع ما من القاص في إجبار شخصية من الشخصيات بإتخاذ سلوك معين لا يتفق والتكوين المزاجي والنفسي الذي رسم لها منذ البداية ، أولا يتوازي مع هذا المنطق الذي يجمع جزئيات العمل ككل ، يعتبر مأخذ يؤاخذ عليه القاص .

وكل ما يفعله القاص في هذا المجال هو مجرد إعطاء الفرصة لشخصياته لتعبر عن نفسها ، وتنهج الطريق الذي تسير فيه وتختار هذا الأسلوب ، أو النمط الذي يجعل لكل شخصية من الشخصيات لونا يميزها عن بقية الشخصيات ويخلق لها التفرد والاستقلال والنمو التلقائي ، ومعهم تنمو ملامحها و سماتها وتكتسب تلك الملامح وضوحا بحيث تستطيع أن تجعلها أنموذجا تجد له أمثلة كثيرة فيما حولك في الحياة من شخصيات من دم ولحم ، وامثله في ذلك – القاص مثل الزارع الذي يضع البذرة في الأرض ويمدها بالماء والغذاء ولا يتدخل بعد ذلك ومن الضروري أن يكون القاص على بصيرة وهو يعمل ، فيجب أن يعطي لشخصياته مطلق الحرية مضحيا بذلك بوجوده وتأثيره على مسرح الأحداث حتى لتجد في القصة شخصية على النقيض من تفكير واعتقاد القاص ، والقاص يحترم فيها تلك المخالفة في الرأي والاعتقاد ، فهو وإن كان الخالق لها أو المبدع إلاَّ أنه ليس المسيطر عليها ، أو من يملي عليها أنماط معينة في الاستجابة للإحداث التي يخلقها لها ، وهذا ما يعطي للعمل الفني الثراء والتنوع والتفرد ويجعل لكل شخصية استقلالها الذاتي

ومن خلال هذا التنوع والتفرد والاستقلال لكل شخصية ، تختلف استجابات الشخصية لجزئيات الواقع المعاش ، كما يختلف الصدى الذي تتركه الحياة على كل شخصية ، وهذا يحدد بدوره الطريقه التي تتعامل بها مع بقية الشخصيات في حياتهم اليومية .

وكل هذا يعطي للقارئ إحاطة شاملة للواقع بكل جزئياته ، ويراه بأكثر من لون ، ويتذوقه بأكثر من مذاق ، كما انه – الواقع – يأخذ صورة أرحب مما لو اعتمد الإنسان على نفسه بصفة منفردة للإحساس بالوجود ، بدون مساعدة الفن القصصي وشخصياته ، فالإنسان في شوق أن يعيش أكثر من حياة ، يخوض غمار تلك الأنواع الكثيرة من الحيوات ، ويلج تلك المناجم المسجورة من المشاعر والإحاسيس ، التي تشعر بها الشخصيات ، وبذلك يعطي لحياته امتدادًا ، ويزيدها عمقا من خلال تلك التجارب التي يعايشها مع شخصيات القصة .

والقارئ لا يهتم بالقاص إلاَّ من خلال هذا الكم المتنوع من الشخصيات وذاك النسج المحكم من القصص ، والعدد الكثير من التجارب التي تتعرض لها الشخصيات ، وكما اختفى القاص من مسرح الأحداث ومحى أثره متعمدًا مطالب – أيضا – أن يختفي من أمام القارئ ، وأن يكون أثره بسيطا لا يكاد يرى أو يحس ، وهذا هو الفرق بين الفن الشعري والفنن القصصي ، ففي

الشعر يختفي كل شيء إلاَّ الشاعر نفسه ، فأنت غارق لأذنيك في عالم الشاعر الخاص به ، أما في الفن القصصي فيظهر كل شيء إلا القاص ، فليس له وجود ، وأحداث القصة تموج في عوالم كثيرة ومتعددة لا تمت لعالم القاص بصلة ، وإن كان يعرضها أمام القارئ وكأنها عالمه المعاش ؛ ذلك لأنه ملم بادق ملامحه ، ومحيط علما بأخص نوازعه ، ومستبطن لشخصياته ، وهو إذ يعبر عنها بصدق تعبيره عن نفسه ، والأمر هنا ، في حاجة إلى ذكاء وحرص وحذر من القاص .

ذكـاء : أن يقـف هـذا الموقـف الـذي مـن خلالـه يـرى ويعـرض كـل شـيء بموضوعية تامة .

وحرص : بأن لا تطمس تلك الموضوعية أدق ملامح وأخص نوازع العالم الذي يعرضه بشخصياته .

وحذر : أن تعكر ذاتيته ذاتية صفاء الجو الذي تعيش فيه الشخصيات .

وقد لا يستطيع القاص – رغما عنه – أن ينتهج الموضوعية في كتابة قصصه ولا يستطيع أن يتخلص من أسر ذاتيته ولو إلى حين ، فهو دائما مأسور لا يستطيع أن ينفذ من جدران عالمه الخاص ليعايش عوالم أخرى ، وهذا راجع إلى شدة إلحاح عالمه الخاص عليه ، من أثر تلك التجارب القاسية التي تعرض لها ، وأثرت عليه أبلغ تأثير وملأت عليه سمعه وبصره ، فلا يرى غيرها ولا يسمع إلاَّ صوتها .

وهذا ما هو حادث مع (المازني) ...ففي كل قصة من قصصه سواء القصيرة منها أو الطويلة ، تجد المازني بلحمه ودمه هنالك لا يبرح مكانه ، وتجده الشخصية المحورية التي تدور حولها بقية الشخصيات ، وهي التي تحرك كل الأحداث ، وكل ما تراه أمامك مدموغ بخاتم المازني ، بل قد تجد بعض الشخصيات يحملِها المازني بعض صفاته الشخصية وبعض أرائه الفلسفية ، فهو مشغول بنفسه عن أنفس الآخرين ، وعالمه يلهيه عن تأمل عوالم الاخرين ، وليس أدل على ذلك من أنه قد عنون قصتين من قصصه

أحداهما باسم (إبراهيم الكاتب) والثانية باسم (إبراهيم الثاني) ، والشخصية في الأولى هي التي في الثاني – مع اختلاف طفيف – وهي شخصية المازني ...شخصية الكاتب الأديب الذي يعتز بقلمه ، ويتيه فخرًا وعجبا ، ويجعل الآخرين ينظرون نظرة احترام وتوقير ؛ لأنه من حملة القلم ، اعتزاز لا حد له بالذات وهذا الاعتزاز جعله يضرب صفحا عن كل ما

سوى عالمه الذاتي حتى شخصياته تحيط بهم أنانية لا حد لها ، يسبحون في هلامية ذاتية تشبح كل قيم الوجود الموضوعي حولهم .

وهو – المازني – لا يستقي مواد وأحداث قصصه من العالم الواقعي ، فعالمه الذاتي يمده بكل ما يحتاجه لفنه ، والكون كله محصور في ذاته ونفسه ، فهي نبع دافق ثر لا ينفد أبدا ، ما قصده يوما وعاد صادي الفؤاد أو خالي الوفاض ، وماله ودنيا الناس ومشاكلهم وما يخوضون فيه من رغبات دنيوية ، يستنكف أن يسجلها على صفحت قصة له ؟ فحسبه نفسه ، يقول في صفحة (١٣) قصة (إبراهيم الكاتب) متحدثا على لسان شخصية (إبراهيم الكاتب) " على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة وكان دأبه أن يدور بعينه في نفسه ليطلع على كل ما فيها وأن يجعلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها ، ولكنه قلما رأي شيئا خارجها إلا من خلالها " .

ويقول في نفس القصة صفحة (١١٣) : " لأني لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة شخصية أنانية (أنا) دائما . و(أنا) في كل شيء ، " وفي اول صفحة يهدي القصة إلى نفسه ، فيقول " إلى التي لها أحيا وفي سبيلها أسعى وبها وحدها أعني طائعا أو كارها إلى نفسي ".

ويقول في (قصة حياة) صفحة (١٠٨) متحدثا عن نفسه " مغرى بإدارة عيني في نفسي والغوص في لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث "

ذاتية مفرطة عدها بعض النقاد عيبًا في أدب المازني ، لاسيما في قصصه وشخصياته والتي تكتسب أهمية أو توحي بالضاءلة ، بمقدار أهميتها لدن القاص أو هوان شأنها .

ولكن نحن لا نحكم على مثل تلك الأمور بالعيب أو النقص ، فتلك ظاهرة من ظواهر ادب المازني ، ويجب أن يعتد بها ؛ لأنها تكشف عن سمة من سمات شخصيتة التي لها تأثير لا ينكر على أدبه ، فنحن نقف بإزاء تلك الظاهرة – وغيرها من الظواهر – لنبحث عن بواعثها ، ثم لنحدد نتائجها بعد ذلك .

والذي يفسر ويوضح ظاهرة الذاتية عند (المازني) ، ظاهرة أخرى وضحت وضوحا شديدا لديه ، وهي ظاهرة (التمرد) ، فهو متمرد على كل ما حوله ؛ ذلك لأن كل ما حول الإنسان من أنظمة وقوانين وعادات وتقاليد وعرف يهدفون إلى إلغاء ذاتية الإنسان الفرد ، وجعله يذوب ويختفي في المجموع ، وإذا ما تم ذلك لم يعد للإنسان قيمة ، فما قيمة قطرة وسط تيار متدفق من المياه ؟ وما وزن ذرة وسط شعاع نافذ من الضوء ؟ وسط هذا المجموع – الذي يلغي للإنسان للإنسان أثمن ما يملكه أو يمكلك التصرف فيه ، وهو ذاته ووجوده – يشعر الإنسان بالضياع والغربة ،فهو يعطي للمجتمع الكثير ، وقد لا يأخذ حتى القليل ، وما قيمة الخذ بعد تنازله عن كونه إنسانا ؟ ويزيد هذا الشعور وضوحا مع من يكونالشعور بالظلم متأصلا لديه منذ الصغر ، فيكون لديه ما يشبه الدفاع الذاتي ،حفاظا على كيانه ووسيلته في ذلك التمرد على كل ما من شأنه أن يصهر تلك الذات الإنسانية أو يغض منها وأسباب شعور الإنسان بالظلم كثيرة ، منها التجارب التي خاضها على طول مشوار حياته ، أو هذا الشكل الذي منح إياه ،إلى جانب ضيق ذات اليد وكل تلك الأمور متوافرة مع أديبنا ، فلا سلطان ولا جاه ولا شكل ولا منصب اللهم إلاَّ كونه إديبًا ، وقد فعل كل ما في طوقه ليبين أنه يستحق هذا اللقب عن جداره ، لميغب عن باله هذا ، فهو عوضا له عن كل ما لم يستطع أن يمتلكه

وما ضاع منه بعد ان كان في حوزته ، ولكن للأسف .. حتى هذا اللقب أو الصفة الذي كان يعلق عليها آمالاً كبارًا ، لم يبلغ به الهدف الذي كان يصبو إليه ، مما جعله يعتقد أن كل شيء في الوجود (قبض الريح) و (حصاد الهشيم).

تقول رجلا ينقصه التواضع وإن كان لا ينقصه الكبر أن يكون به كبر) .

فهو لا يكتفي أن يعطي بل يسرف في هذا التقدير ، ليصل به الأمر إلى الكبر وكيف يعطيها قدرها فقط ؟ أليس هو بالمتمرد ؟ فكل ما حوله يريد أن ينتقص منه ، فليتمرد على هذا بأن يعطيها فوق ما تستحق .

تقول سلوب في القصة وأراه أعون لي على تمثل ما أحاول وصفه وتصويره) .

فهو يجد متعة في استخدام ضمير المتكلم لأنه يحقق له ما يريده من شعور بالذات وبأن وجوده يملأ عليه حواسه .

هذا الالتصاق الشديد بذاته يجعله يستلهم كل القيم والمعايير منها وليس من خارجها ، ويرى كل ما حوله من خلالها .

ولتجدن أقرب الناس إلى الصدق ، وأخلصهم في التعبير عن أدق خوالج النفس الإنسانية ، والتميز بين تلك المشاعر المتصارعة والمتناقضة ، من كان يستلهم ذاته ولا يشرك بها أحد ؛ لأنه درج على السير في أودية النفس المتشعبة والبحث في كهوفها المظلمة المدلهمة ، والتنقيب في مناجمها المسجورة ، فقد دأب على تسهيل حزنها ، وتلين أوابدها ، وحل طلاسمها ، وفك رموزها ، وكشف أسرارها ، والقاص هنا لا يبحث عن عوالم أخرى ، فبين جنبيه عالم زاخر ، وعليه أن يقترب أكثر وأكثر منه ليأخذ الكثير ومن كان هذا شأنه مع ذاته ، فهو يتعامل معها من منطلقين .

الأول : الإسراف عليها في التقدير والعلو إلى درجة الكبر والغرور ، وهو على حق في هذا من وجهة نظره ، فهو لا يرى سواها أمامه/ مثله في ذلك مثل الأب الذي لم يرزق سوى بابن واحد ، فيسرف في تدليله وإكباره ، فالعالم كله مختزل في هذا الابن .

يقول على لسان (إبراهيم الثاني) صفحة (٩٧) مخاطبًا (ميمي) ومبررًا ظاهرة الغرور الإنساني:(والغرور فيما يرى الناس رذيلة ، ولكني أراه نعمة أو على الأقل القدر الكافي منه لإطاقة العيش ، وأنت كغيرك لابد أن يكون لك شعور بنفسك وإلاَّ كنت كالحيوان الأعجم الذاهل عن نفسه ، وعن الدنيا والإنسان يصاحب الحيوان ويبادله قدرًا من الود والاحساس – ولكنه لا لذة له في مصاحبة إنسان مثله إذا كان معدوم الإحساس بنفسه ، وأحسبك تتكلفين هذا الذهول ، وإنه لتواضع أو أدب منك جميل ، ولكن الإفراط في تكلفه يخرج بك عن حد الطبيعة القديمة التي تعترف بهذا التجاهل التام للنفس) .

فتقول : (ولكني كما تقول مغرورة ، وحظي من الغرور أوفر مما تظن ولكن هذا لا يدعو إلى الاثقال على الناس .

فيقول : إذا قلت لك بلهجة المؤمن بما يقول ، المخلص فيه ، إنك دميمة أفلا يسؤك هذا ؟

فتقول : نعم ولكنك لست الناس جميعا والذي تراه قبيحا قد يراه غيرك جميلاً أو حميدًا .

فيسره منها هذا الأسلوب في تناول الأمور والنظر إليها من اكثر من وجه واحد لتسهل به وتهون فيعود **ويقول**:(قياسا على هذا يسرك أن تسمعي من رجل أنك جميلة) .

فتقول : (طبعا . ويزيد في سروري أن يفيض في ذلك ويبدئ ويعيد حتى ولو لم يكن مخلصا) .

فهو يرى الاسراف في التواضع نوعمن الشذوذ والخروج عن الطبع القويم لأنه في مفهومه يعتبره ضعه ودناءة وامتهان للذات ، لأنه لو تواضع للآخرين فلن يحمدوه لك ، وسيرون أن تواضعه هذا هو مكانه الحقيقي الأليق به ، فلن يحمدوا له هذا التواضع ولن يزيد احترامه في نفوسهم ، بل قد ينزلونه منزلا أقل مما أنزله نفسه تواضعا منه .

فهذا نوع من شدة الإحساس بالذات والخوف عليها والقلق من أجلها والحرص عليها.

الثاني : الظهور بمظهر القوة والقدرة،وهذا المنطلق مترتب على ما قبله ؛ لأنه إذا كان يسرف في تقديرها ، فمن الضروري أن يكون على حق في هذا وأن تستحق الذات هذا الإكبار والتقدير ، وكيف تكون كذلك إذا لم تكن متوافرة فيها كل صفات القوة ، خالية من كل صفات الضعف والهون ؟

تقول (ليلي) وهي تصفه في قصة (إبراهيم الكاتب) أثناء حديثها مع الشيخ (على) :

(وأنه من الطراز الذي يهون عليه أن يمشي إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى الناس فيه ضعفا أو يحسوا منه الحنين إلى ما صرف نفسه عنه) .

ويقول الشيخ (على) في صفحة (٢٤٧) مخاطبا (ليلى) التي أحبها (إبراهيم) أثناء وجوده بالأقصر (لا يخدعك ظاهرة الساكن إنه بئر لا قرار له لا أعني أنه كاذب أو غاش ولكنما أعني أن ما يدفنه في صدره لا ينشر ، وهو قاس جدًا على نفسه .مجنون إذا شئت ولكنه جنون رأئع لأنه جنون الإرادة القوية) .

قاس على نفسه ؛ لأن تلك القسوة هي السبيل لردع النفس عن غيها ، لتكون الإرادة قوية ، ولتصنع جدرانا قويا لحماية الذات من التبذل والاسفاف ، ولتظل النفس في مكان عال ، بعيده عن كل ما من شأنه أن ينال من مكانتها .

وتقول (ليلى) في رسالة أرسلتها إلى إبرهيم الكاتب بعد ما حدث الفراق بينهما إثر مكاشفته بماضيها الذي لم يرض إبراهيم عنه :(فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك ثم أنك طماح أو أظنك توافقني على أن الطماح مضن للنفس متعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد أن فإني أشعر أن الطماح لا محل له في هذه البلاد الجميلة) .

وتجد الاعتداد والاعتزاز بالنفس وكثرة الاسهاب في هذا مبثوثة في كل ما كتب المازني سواء على لسانه أو لسان شخصياته ... فلا تمر مناسبة إلا وأنطق شخصياته بتلك الأوصاف التي هو عليها .

ومن كان يتصف بتلك الصفتين ، ويحمل نفسه على التحلي بهما ، يصاب بشيء من القلق والتوتر الناتجان عن المحاولة الدائمة لتوطين الذات على السير في هذا الطريق .

وكل قصصه تجد المحاولة المبذولة لخلق الانسجام المعدوم بين الذات والوجود بين الذات بكل يقظتها ووعيها وإرادتها وتطلعاتها وبين الوجود بكل عتامته وجموده ، ولاعقلانيته ، وحينما استحال عليه إيجاد هذا الانسجام أو التوازن بين ذاته والوجود ، حاول أن يفلسف هذا الوجود حتى يستطيع قبوله على أي شكل من الأشكال ليتيسر له بعد ذلك معايشته .

فلسفة المازني (المازنية)

مع أن المازني كان يمقت الفلسفة أشد المقت ، ويعلنها في كل مناسبة إلاَّ أن هذا لا يمنع أنه كان يصدر عن فلسفة في نظرته في كل ما حوله .ولكنه ليس من هذا النوع الذي يصدر عن مذهب فلسفي أو مدرسة فلسفية تجمع شتات نظراته وأفكاره وانطباعاته ، وإنما يفكر بإحساسه ووجدانه ، ويعطي للقارئ انطباعا صادقا خاليا من الجدل الجاف والمحاورات العقيمة ... وانطباعه هذا يتصف بالشمولية ، فهو عن الحياة والموت والحب والطبيعة والخلود والزواج والمرأة والشباب .

ولا نريد أن نسمي هذا فلسفة ، وإنما هو إحساس صاف ووعي متيقظ لذات مرهفة آثرت أن تسجل موقفا من كل ما حولها ، وهذا الموقف نابع من الذات لا يشوبه شائبة ، ولا تجد غير المازني يخرج عليك بهذا الإحساس ، وإن شئت أن تطلق عليه (المازنية) نكون قد اقتربنا من جادة الصواب .

في صفحة (٨٧) من قصة (إبراهيم الثاني) على لسان (تحية) زوج إبراهيم : (كانت تعرف أن زوجها يحس "بعقله" أي يحول كل إحساس إلى فكرة ويروح يعرضها على عينيه ويتأمل وجوها وخواطره هي الصورة التي تتخذها إحساساته وكثيرًا ما تتحول الفكرة عنده إلى إحساس ، فهذا يتسرب في ذلك وذلك يعود فيتسرب في هذا ولا نهاية لهذا التحول عنده) .

وهو إذا أحس بشيء مضى في تصوير هذا الإحساس غافلاً عما حوله ، وعما هو فيه أن وقد لا يكون هذا منسجما مع العمل ككل ، ولكنه يفضل أن يمضي معه حتى وإن كان لا يتناسب مع بقية أجزاء العمل ، ففي أكثر قصصه لا تتلاءم الجزئيات مع الكل ، وفي العمل القصصي ينبغي أن تسخر الجزئيات في خدمة الكل ، وتكون الحركة موزعة في نواحي العمل ، مثل حركة الثعبان ، وأن لا سيتغرق القاص في جزئية تجعله يغفل عن بقية الجزاء ، ولكن هذا

مع القاص المتمكن من فنه ، ولكن (المازني) كان يعتبر القصة مجالا ليعرض فيه خواطره ونظراته ، حتى ولو لم يكن هناك مبرر لتكل الخواطر ، فالقصة له كالجراب يسع كل شيء ، ويتسع لكل شيء ، بدون أن يحاول انتقاء ما يجب أن يوضع وما لا يجب ، ففي الفصل العاشر من قصة (إبراهيم الكاتب) في صفحة (٥٩) نهض في الصباح ونظر من النافذة وبدون ان يكونهناك داع كتب ثلاث صفحات عن الطبيعة ووصفها بالقسوة . نعم إنها تعطي شيئا من فلسفة المازني ، ولكن إذا حذفت تلك الصفحات من القصة ما أخل ببنيان القصة ، بل قد يكون من باب استبعاد ما لا لزوم له : (من الخطأ أن تنعت الطبيعة بالقسوة كلا ليس في الطبيعة قسوة حقيقية - إنها حارة حية

ولا تكاد تتفق الحرارة والقسوة وإذا كان بعض ما فيها يسطو على البعض الآخر ويأكله أو يلتهمه أو يأتي عليه فما قيمة هذا ؟

إن كل شيء يحياوإذا كان يموت فإنما هذا ليعين غيره على الحياة ، وأين يا ترى قرأ أن الكون فنان لا يزال يعبر عن نفسه بصور مختلفة ؟ لا يذكر أين قرأ هذا ، ولكنه يذكر أيضا أن الكاتب قال – أم ترى هو صاحب هذا الخاطر ؟ - أن هذا الفنان العظم لا يزال يخفي فيما يحاول أن يبدعه ويخلده من خارجياته ، على أن العالم بل العوالم كلها صغيرها وكبيرها مثلنا ومثل الأزهار والأشجار ليست قطع شتى من هذا الفن وكل منها تام في ذاته كامل من حيث هو وكل حياة تجري إلى هداها ثم تراق وترد إلى هذا الفنان المبدع الذي لا ينفك يجادل ضروبا جديدة من الفن) .

وبعد أن تحدث فيما يسمى بالتعادلية في الطبيعة ، وأن ما يحدث فيها من صنع فنان عظيم لا يزال يخفق فيما يحاول أن يبدعه ، ترك هذا وتحدث في العقل والمادة ، **يقول**:(العقل والمادة شيء واحد ، ومن يدري ؟ فلعله ليس لا عقل ولا مادة وعسى أن لا يكون هناك إلا نمو وذبول ثم نمو جديد وذوي وهكذا إلى ما لا نهاية : فنان لا يفتأ يعبر عن نفسه في ملايين وملايين من الصور المتغيرة والذبول والموت – أو ما نسميها كذلك – إنما هي راحة ونوم

أو هذا هو الجزر الذي يجيء بين مدين أو الليل الذي يفصل نهارين والنهار الذي يطلع لا يشبه الذي سبقه في طع الفنية التي يخرجها الفنان الأعظم لا تعود ولا تبقة على حال واحد ولا تلتزم شكلاً معينا بل هي دائما جديدة ، عوالم جديدة وآحاد وأفراد جديدة وأزاهير طريفة وليس هذا ما يكرب النفس ، كلا إنما ما يكرب النفس أن تعلم أنها ستظل حية أبدًا حتى بعد ما يسمى الموت أو أنها ستحي كرة أخرى في جسم آخر فلا أنا أنا ، ولا أنا مخلوق آخر ، إن هذا يكون ماذا ؟ فساد ذوق ؟ هبني كتبت مقالا أو وضعت قصة أو نظمت

قصيدة . فهل أستطيع أن أتصور أن مقالتي تصبح مقالة اخرى أو قصيدتي تنقلب قصيدة ثانية ؟ فهل هذا في وسعي أو سوع سواي أن يفصل ما بين العبارة التي صببت فيها المقالة أو القصة أو القصيدة ، وإعادة الذهنية التي أعربت عنها بهذه الألفاظ ؟ كلا - وكما أني أنا الفنان الأصغر لا أزال أصوغ كل يوم جديدا كذلك الفنان الأعظم لا يزال يخرج من القديم جديدا ومن التالد طريفا كالنافورة تقذف الماء خيطا من القطرات لا تشبه منها واحدة أختها وتقع هذه القطرات في الحوض وتعود ادراجها من الأنابيب إلى النافورة فتقذفها قطرات جديدة مصوغة في اشكال وحجوم غير الأولى .

ثم تنهد وقال لنفسه : (ولكني لا استطيع أن أفهم أو أدرك لماذا تظل هذه القوة الأبدية منهمكة في الإعراب عن نفسها في صور فردية شتى لا آخر لتنوعها ؟ لماذا لا تكف ولا تنقطع عن العمل ولا يصير كل شيء إلى (لا شيء) ؟ ظلام أبدي شامل !

وياليت من يدري أهما اثنان لا ثالث : أن يظل هذا الفنان يعمل ويخرج ويبدع كما هو فاعل أو أن لا يكون ثم شيء على الاطلاق ؟ وهل من الاتفاق المحض أن يحدث هذا ولم يدث ذاك ؟) .

ثم بعد أن عرض خواطره على هذا النحو ، يعود فيسأل:(كل هذا جميل ولكن هل بنا حاجة غلى التفكير ؟ هذه الدنيا أمامنا وأحسب أن كل منا بحاجة إليه هو أن نتناولها كما هي وأن نقنع بذلك).

فالوجود حوله ثر وغامض في هذا الثراء ،ومتجددباستمرار لا تبلى جدته ويتساءل ما نهاية هذا الوجود ؟ وحين يعجز عن الإجابة يقبل الوجود على ما هو عليه ن بدون تنظيرأو فلسفة ، وإذا كان هذا رأيه ، فما سبب أنعرض لتلك الخواطر ، فلو حذف المقطع السبق كله واكتفى بعرض رأيه الشخصي أو إنطباعه لكان أجدى للقصة والقارئ معا .

أم أن تلك الخواطر التي عرضها وجالت في ذهن الشخصية المحورية في القصة من لوزام سمات الشخصية ، فهو كاتب ومن سمات الكاتب أن

يمضي الجزء الأكبر من ساعات يومه مفكرًا متأملاً ، ولكن حسبه الإشارة إلى تلك الخواطر غشارة طفيفة إلى ما كان بخاطره لا ان يعرض له هذا العرض المسهب ، وهو بعد ذلك يدير الحوار بينه وبين (شوشو) - التي سيعقد معها علاقة حب أثناء وجوده بمنزل الشيخ على – حينما تدخل عليه ، **فتسأله** :

- ماذا كنت تصنع ؟
- لا شيء .

ولكن وجهه مال إلى النافذة **فقالت :**

- أكنت تسخط على هذه الطبيعة التي لا تثبت على حال ؟

ألا ترى معي انها كالطفل ، تكون عابسة باكية ثم إذا هي تضحك لغير سبب مفهوم ؟

إن تناقضها أو اضطرابها كثيرًا ما يحيرني ؟ وكم تمنيت لو أني أستطيع أن ألزمها الحالة التي يتفق أو تروقني – إلى أن يتغير مزاجي على الأقل .

فعجب أن يجيء أول ما يجري بخاطرها بسبيل مما كان هو يفكر فيه

ولكنه كتم هذا – وإن لم تكتمه عيناه – **وقال مجيبا على كلامها** :

- كلا يا (شوشو) . أنا لا أحس بالرغبة في إلزام الطبيعة حالة أو بعبارة أخرى لا أتمنى أن أفرض عليها مزاجي الخاص أو أي مزاج معين . ولعل ذلك لأن تنوع الأمزجة وتعدد الحالات التي تكونه عليها الطبيعة في جميع مظاهرها هو مصدر السرور الذي أفيده منها ، بل هو الذي يرجع إليه ويقوم عليه إيماني بالحياة ولولا هذا التنوع لما بقى شيء اسمه الحياة .

فافترت عن ابتسامة اعجاب وقالت :

- ذلك لأنك أديب . لأنك إبراهيم الثاني !

قال : (أحب الأمر كذلك ، وإن كنت لا أرى أن كوني كاتبا هو السبب في ذلك كلا إن طبيعة الفنان أو روحه ترتاح إلى التغير فأنا أجل هذه الجدة التي أراها كل صباح يطلع وكل مساء يجيء . وفي كل شخص وفي كل مظهر من المظاهر التي تعبر بها الحياة عن نفسها . ارتاح لأني لا أرى شيئا نهائيا . ولما كان التغيير دائما فلا أراني أشبع من النظر والتأمل والتفكر أحب كل شيء ما كان وما هو سيكون أحب حتى الموت) .

هنا نرى المازني روحًا عاشقة لكل ما حولها . تعشق حتى الموت ؛ لأنه نوع من التغيير ، فالطبيعة والحياة في نظر المازني هما التجدد والتغير والاستمرارية في هذين الشيئين ، لذلك يعرض (شوشو) في رغبتها أن تلزم الطبيعة على حال واحد لتتوافق وحالتها النفسية ، أو المزاجية ، لأن في هذا نفي لروح التجدد والمغايرة في الكون حولنا ... وأن تكون الطبيعة كل ساعة في حال سواء وافق هذا مزاجنا أم خالفه فهاذ ما يسعى إليه الإنسان ، وإلاَّ فسرعان ما يمل الإنسان فذلك هو سر الحياة ، ومظاهرها المختلفة وسر تشبث الإنسان وعشقه للحياة ...فلة كانت على مظهر واحد لا يتغير لزهدها الإنسان وعزف عنها ، ولكن تلك المظاهر متجددة ، كذلك تجد عشق الإنسان لها مواكبا لهذا التجدد ؛ لأنه يجد نفسه وروحه في هذا التجدد ، وينأى بها عن

الجمود والتحجر والسكون ، والحياة هي التوتر والقلق والاضطراب والحركة والتغير والانفعال والعطاء والأخذ .

هذا الجزء من القصة يعرض لنا جانبا من شخصية القاص وفلسفته ويصحح بعض المفاهيم الخاطئة والحكام التي تطلق بلا تبصر مثل مفهوم (متشائم) أو (متفاءل) فتلك المفاهيم فضفاضة لا تحسم ولا تعطي رأيا صادقا ... فلا يوجد إنسان متشائم ولا آخر متفاءل ن فتلك المفاهيم بمثابة أرفف كتلك التي يوضع فوقها البضائع والسلع للتصنيف والتنظيم ، وليس الإنسان كتلك السلع .

فالمازني يعشق كل شيء في الحياة والطبيعة ، يعشق الموت ...لأنه والحياة يمثلان ثنائية التغير والتجدد .

وهو يقف من الحياة والوجود موقف العاشق من معشوقته ن ولكنه يلعنها إذا ما صدر منها ما يخالف عشقه وحبه لها ، وهذا اللعن والغضب الذي صبه فوقها دليل على حقيقة حبه لها .

مأساة الإنسان

الثنائية التي خلق الإنسان عليها عليها تشكل له مأساة ، فقد خلق من روح وطين ، فهو – تبعا للروح التي تشكل جزء من طبيعته – يطمح إلى الخلود والسمو والمطلق واللامتناهي ، وهو إذ يصبو إلى ذلك ويندفع إليه بروحه يجد جذور طبيعته ضاربة في أرض الفناء والمحدود ، فالجزء الطيني أبدا يخالف الجزء الروحاني ، وبين الروحاني والطيني تتشكل مأساة الإنسان .

وإذا ما أشتد وعي الإنسان بوجوده / وتيقظ إحساسه به ازداد تبعا لذلك ألمه وشعر بثقل وجوده ، وأنه لا يزد عن كونه لعنة وسجنا . فالجزء الروحاني فيه دائمًا فاضحًا الجزء الطيني ، ومعددا لعيوبه ونقائصه ووضاعته وهوانه ، ويصبح الوجود عبثا ليس له أي قيمة ترجى ، فما قيمته إذا كان محدودًا ، فترة من الزمن قصرت امطالت وينتهي ، فمهما حدث فيه ، فله أجل محدود .

ولكن تلك الثنائية في طبيعة الإنسان لا يتبعها ثنائية في الشعور ، فهو لا يشعر بشعور روحاني على حدة ، ولكنهما ممتزجان ، ولا يبقى إلا شعور واحد وإحساس واحد بالحياة وبالوجود وبالذات ، شعور بالقلق والتوتر الذي يعكس مأساة الإنسان .

والإنسان من أكثر المخلوقات وعيا بذاته وبوجوده ، فهو دائما يقف أمامه يقيمه ويتامله ويزنه ، وقد لا يخرج بنتيجة من ذلك ، وإن خرج فهي مؤسفة له ولبني جنسه ، **وتدور فلسفة المازني حول ثلاث محاور :**

- **الأول : القيمة الإنسانية .**
- **الثاني : قدرية الوجود .**
- **الثالث : عبثية الوجود .**

أولاً: القيمة الإنسانية :

ما قيمة الإنسان في الوجود ؟

إذا ما بحث الإنسان عن تلك القيمة ، فإنه مؤشر جد خطير ، فليس هناك إجابة على هذا السؤال فهي من الأسئلة التي تحتوي في صياغتها على الإجابة فالإنسان هو المعيار الحقيقي الذي توزن أي قيمة من القيم ، فكل القيم تتخذ اهميتها ووزنها بمقدار أهميتها وخطورتها لدن الإنسان ..فهو الضوء الذي يسلط على تلك القيم ليظهرها إلى الوجود ، ويعطيها اسماءها وصفاتها ، وفي غياب هذا المعيار الذي به تقيم القيم يضل الإنسان ضلالا بعيدا ، ويلتبس الحق بالباطل وتفقد الفواصل التي تفصل بين المتناقضات من نور وظلام وعدل وظلم وخير وشر ويصبح الوجود الإنساني شديد القتامة وتتغشاه ظلمة مطبقة .

وقد عاصر قصاصنا حربين عالميتين ، استخدمت في إحداهما القنبلة الذرية ولأول مرة في تاريخ البشرية ، وكان للحربين أبلغ تاثير على المازني وبقية الأدباء والمفكرين ليس في مصر فحسب بل في العالم كله ، ومن تأثير الحربين حدث صدع في كل القيم التي تسود العالم ، وزلزلت كل الأنظمة والتي أصبحت تتصارع فيما بينها من أجل البقاء ، وكان وقود هذا الصراع هو الإنسان ، وأصبح يشكل ما تشكله الآلة الجامدة من مدفع أو بندقية ، وأضحى الزمان كأنه رحي مجنونة تطحن البشر طحنا لا تبقي ولا تذر ، **يقول دكتور/ زكي نجيب محمود** في كتابه (مع الشعراء) صفحة (٢٠) : " فلقد أحس نوابغ الأدباء أن القيم الإنسانية أهدرت إهدارًا ، وأن الغلبة قد أصبحت للطغام ومن هم دون الطعام ".

وأصبح الأمر خطير والذي عكس تلك الخطورة ورصدها بصدق هو البحث عن قيمة الإنسان وسط تلك الفوضة الكونية ، فلم يعد الإنسان كما كان ، فقد ضاع ،ومن الواجب بل من الضروري البحث عنه ، وإذا ما تم العثور عليه

يصبح من اليسير العثور على القيم التي اختفت باختفائه ، وإذا اهتزت قيمة الإنسان فالبحث عن القيم نوع من العبث .

ويناقش قضية القيمة الإنسانية في قصة (إبراهيم الثاني) بالفصل الخامس والذي عقده لرصد التغيرات التي طرات علية وعلى زوجته (تحية) بعد وفاة (عايدة) والتي كان يرتبط معها بعلاقة من نوع ما ، ويوضح في حواره بينه وبين زوجته أن فساد الوجود الإنساني لا يأتي من الخارج ، وإنما موطنه الإنسان ذاته ونفسه ، **يقول في صفحة (٩٣):**(لماذا خلق الله هذه الدنيا وما حفلت به من جمال ؟ وما خيرها لنا إذا كنا سنعمى عنها ؟ هل تذكرين الجبن الذي أكلنا منه ظهر اليوم ؟) .

وكان الانتقال مفاجئا ، ولا صلة له بما هو فيه ، ولكنها ألفت منه هذه الوثبات ، فتبسمت **وقالت** : (نعم . ماله ؟)

قال : (لقد كان هذا جبنا طيبا وكان طعمه لذيذا . وهو صالح نافع أيضا . ولكن إذا تركناه زمنا كافيا ، إن شيئا غريبا ممتعا يحدث له . تدب فيه حشرة طفيلية نسميها الدودة ، وتتكاثر الديدان ، وتجعله كالأسفنج .من أين جاء الدود ؟ إنه لم يجئ من الخارج ، وهو طفيلي ، وعلامة فساد وانحلال أنتجه الفساد الذي دب في الجبن ، وكذلك النفس لا تفسد بشيء من الخارج بل يكون ما يظهر فيها من الخوالج السود القبيحة نتيجة الفساد الذي اعتراها من الباطن) .

واضجع في كرسيه وغام وجههه وهو يقول:(يخيل إلي أن من الممكن أن نكون نحن الآدميين ، وغيرنا من صور الحياة ، علامات فساد وانحلال . وعسى ان نكون ظهرنا في هذه الدنيا كما يظهر الدود في الجبن أو المش ، ومن يدري ؟ لعلنا حشرات طفيلية يغص بها كيان ضخم ، فهي تعبث فيه ، كيان ظل موجودًا أكثر مما ينبغي ففسد وصار جديرًا بأن يرمى أو يمحى) .

الصورة هنا مبتكرة وجميلة ... وانظر معي إلى طرفي الصورة لترى إلى أي درك نزل الإنسان – وإن كان لا يعدو عن فرض افترضه المازني هنا – فالدنيا كأنها قطعة من الجبن الفاسد أو مساحة شاسعة من المش ، والإنسان بمثابة تلك الحشرة التافهة (الدودة) وأصدر حكما بإعدام هذا الجبن الفاسد والحشرات التي تعبث فيه .

فالإنسان كأي شيء على الأرض فان ، كائن مستهلك يأتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورًا ، يمرض ، يفسد ، يتحلل يفنى ، يشابه في ذلك أدنى الكائنات وأبسطها .

إذن في تلك الناحية بالذات لا تزد قيمة الإنسان على قيمة تلك الدودة ، لأن المصير واحد ، ويخرج الإنسان بمقارنته بما دونه من الكائنات بوجود مشبوح خالي من القيمة ، وفي قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٤٣) أثناء لقاء إبراهيم و (شوشو) والتي بدأ الحب يبني جسوره الشفافة بينهما ، وكان الليل صاف والنجوم طالعة عليها ترنو من عليائها ، و (شوشو) مفتونة بهذا الجمال ، ولكن إبراهيم يحول هذا الجمال إلى وجهة أخرى ، فتلك السماء المتسعة بلا نهاية تعطي إحساسا بصغر وضألة وتفاهة الإنسان ، فأين مكان الإنسان وسط هذا الكون العظيم ، وفوق تلك الأرض المسجورة والحافلة ، وتحت تلك السماء الممتدة بلا نهاية **يقول :** (وطال سكونها لأن الليل عظم وقعه في صدر إبراهيم وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به احشاء الظلماء فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ دونها كليلا حسيرا ، وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في أجوازها المرعبة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا ، وكذلك كانا واقفين في ليلتهما تلك هي مفتونة بجمالها ، وهو يكاد يسحقه الرعب ويفنيه الشعور بضآلته إذ يجيل عينه في فيافي السماء اللانهائية ، ثم قال لها كأنما أراد أن ينقل إليها إحساسه بهول السماء وضآلة الإنسان وكل ما يتعلق به أو كأنما كان يعنيه أن

ينغص عليها متعنها بهذا المنظر – ثقي أن هذه السماء ليست مجعولة للإنسان مهما تكن علة وجودها ، إنه لا شيء ، في الأرض أو في السماء مجعول لهذا المخلوق الذي يحسبه الفارغون مركز الدائرة ومحو الوجود ! بل ليس أقدر من هذه السماء على إشعار الإنسان ضآلته أو لا شيئيته إذا شئت .

فأدارت إليه وجهها وقد سحرتها نبرة صوته وراعها ما في لهجته من المرارة وقالت كأنما تريد أن تصدفه عن هذا الأسلوب من التفكير .

- ماذا يوجد بين هذه النجوم ؟

فضحك – ضحكة عصيبة – **وقال** : (يوجد ؟يوجد ، إن صح بلفظ الوجود – صحراوات فضاء مظلمة تركها من يعلم السر ، بلا شمس ، وتوجد اقيانوسات من الفراغ لا آخر لها يجمد الفكر كلما حاول أن يتصورها – هذا ما يوجد ! وضحك مرة اخرى ولصقت هي به كالخائفة ، وهو عنها في شغل يحدق في السماء وقد شعر فجأة وعلى كل حبه لها – كأنما بينه وبينها بعد ما بين الأرض والمشترى . ومضى **يقول :**

هذه السماء التي يسحق النفس جلالها المرعب ، ويهول الخاطر أن يقذف به في أجوازها اللانهائية ... ليس جمالها الذي يسحرك بالخاطر ولا الباقي ! ها حتى هذه مرجوع وهجها رمادا (وجذبها من كتفها) أنظري هذا النجم الذي يكاد يخبو وميضه بين أخوته نجوم الدب الأكبر كان منذ بضعة قرون يخفق مثلها لمعانا ! فليس يخلو كل هذا الجلال من دواعي الرثاء ! وتصوري هذه النجوم كلها – كلها – قد خمدت ؟ تصوري عقلك يلتمس طريقه في سماء مظلمة خبا فيها كل ما كان يضيء ! تصوري عقلك يصطدم في ظلمة الكون بقطعة كابية من هذه الكواكب ! نحي عينك ! غضي بصرك من السماء إذا أردت أن تستبقي بشاشة نفسك . ففزعت وأقبلت عليه وأسندت رأسها الصغير إلى كتفه وأراحت خدها على جانب صدره وتعلقت يسراها بكتفه الآخرى فأفاق ومسح لها شعرها حتى زايلها الخوف وإن كان لم يزايله هو الاكتئاب ، ولم يفارقه الشعور بما بينهما فرسخ أو فراسخ ! إذن لأمكن أن يبتسم . وخطر له

في هذه اللحظة أن ما يعزيه ، لو ان هذا مما يعزي أننا سعدنا أو شقينا ، سنذهب كما ذهب من كانوا قبلنا ، وان الدنيا ستومض فيها عيون غير عيوننا ، وتخفق فيها قلوب أخرى وترهق عقول جديدة وأنها ستشهد أشجاء طريفة تندب ومسرات ومباهج حديثة تطلب ، ويستعز بها على حين نعود نحن كما سيعود كل شيء قبضة من تراب) .

فهنا يسخر المازني ممن يدعون بان الإنسان محور الوجود ، وأن الكون كله مسخر لهذا الكائن ، وأنه السيد المسيطر ... ألا ما أهونه ، فكل ما حوله يزيده ضآلة وإذا كان الكون من سماء وأرض مآلها إلى الفناء ولها مالها من الضخامة والعظمة فما بالك بالإنسان ؟ إنه لا شيء بالمرة ، منعدم القيمة وإن الأمر لا يعدو فترة من الزمن يمكث فيها الإنسان ، ثم يمضي ويأتي غيره بدون أن يشعر به أحد .

وتلك النظرة التي ينظر بها المازني إلى الإنسان ليس مردها الغض من شأن الإنسان ، أو إيمانه بعدمية قيمته ، ولكنه يريد أن يعطي للإنسان حجمه الصحيح ويعطي حكما صادقا لقيمة الإنسان ، حتى لا يحاول أن يبسط سلطانه على ما حوله متخذا في ذلك وسائل الظلم والقهر ، **يقول د / حامد عبده الهوال** في كتابه (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٢٠) (إن المازني باستخفافه بنفسه يمثل استخفافا بالإنسان عموما ، الإنسان المغرور الذي يذهب بعيدا في تقدير نفسه ويظن العالم كله خلق من أجله ، فتستبد به الرغبة في السيطرة على كل شيء ويرى كل ما يحصل ضئيلا بالقياس إلى ما يريد وما يناسب حاجته .وهو في طموحه الشخصي يمثل الطموح الإنساني بصفة عامة ، ذلك الذي لا يعرف حدودا لأطماعه ولا حدود الزمن ، ولكن أنى له ذلك ، وكيف يمكن أن يحطم قوانين الحياة والكون من أجله وكيف يمكن أن يسمح للإنسان بأن يتمادى غلى ما لانهاية في تحقيق رغباته وملذاته وأطماعه ؟) .

ولا شيء يفسد على الإنسان حياته كما يفسدها الطمع والتكبر ومحاولة الاستحواذ على كل شيء ، وحمله لواء العصيان والتمرد على قوانين الحياة حتى على خالقه . وهو – الإنسان – وإن كان أعطى نوع من الامتياز عن بقية المخلوقات إلاَّ أنه بهذا الامتياز لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولاً .

ثانيا : قدرية الوجود الإنساني :

نظرة المازني للوجود نظرة قدرية صرفة ، فهو لا يملك شيئا لتشكيل وجوده وإنما كل شيء مقدور على الإنسان منذ خلق ، بدون إبداء أي تمرد أو اعتراض عليه فالإنسان أضعف من أن يشكل وجوده بيده .

وربما يكون قد تبنى تلك النظرة لأن أكثر ما حدث في حياته ، كان على خلاف ما كان يريد ، وعندما تحدث أمور على خلاف ما نبغي ، متحدية في ذلك إرادتنا ورغباتنا ، لا نملك إلا أن نؤمن بقدرية الوجود الإنساني ، ودائما يضع المازني شخصياته أمام القدر ليظهر ضعف وعجز وخور الإنسان ، وأن القدر لا يعبأ بتحطيم الإنسان على صخور اليأس والقنوط .

جرى حديث بين إبراهيم الكاتب و(ليلى) ، تلك التي قابلها أثناء وجوده بالأقصر ، وكانا يتنزهان على صفحة النيل في زورق ، صفحة (١٩٠) **تقول ليلى** :

- إني أكره الرجال .
- فمضى إبراهيم ولم يجب كأن الأمر لا يعنيه والخطاب ليس موجها إليه فالتفت إليه وعلى شفتيها ابتسامة عذبة وقالت :
- أحسبني أسأت الأدب ؟

فقال :(كلا وإني لأعذرك كلما ذكرت التسعة عشر – وأعطف عليك أيضا) فالتمعت في عينيها نظرة خبيثة **وهي تقول :**

- من حسن الحظ أن الرقم لم يبلغ العشرين .
- فقال وعينيه إلى السماء ، **وعلى وجهه آيات الذهول** :

- من يدري ؟على أن الواحد المتمم للعشرين .
- وسكت . فسألته وهي تدنو منه :
- لماذا تثول من يدري ؟

فأرسلها ضحكة مفرقة وقال : (وهل في الدنيا من يدري شيئا قد يكون مذهب المرء واضحا والطريق أمامه ظاهرًا ، ولكن الغاية التي يصل إليها بعد الجهد والعناء من الذي يستطيع أن يقول إنها هي التي كان يقصد إليها حين أخذ الطريق) .

فهي قوة فوق الإنسان تسيره وفق إرادتها هي ، ضاربة بإرادة الإنسان عرض الحائط ، مبددة رغباته في فضاء المستحيل ، والمصادفة – وهي تلعب دورًا كبيرًا في النسج القصصي للمازني – تلعب دورًا كبيرًا في حياة الإنسان . في صفحة (٢٦٥) من قصة (إبراهيم الكاتب) ، يقول إبراهيم بعدما عرفت (ليلى) ما كان بين إبراهيم وشوشو من حديثها مع الشيخ (على) أثناء زيارته لإبراهيم في الأقصر أرادت ليلى أن تفصم عرى العلاقة بينها وبين إبراهيم لتعيده إلى (شوشو) ولم تجد من سبيل إلى ذلك غير أن تخبره أن ماضيها ملوث وأنها قد أقامت علاقات كثيرة مع رجال من كل صنف ولون .

يصور المصادفة كمبدأ يستند عليه الوجود : (والمصادفة أصل كل حادث في هذه الدنيا التي يخيل إلى المرء أن (الحياة) حدثت فيها المصادفة فإذا لم تكن هي الأصل – فلا أقل من ان نعترف بأنه مامن حدث إلاَّ لها فيه أصبع غليظة وأن كل تغير أو انقلاب أو اتجاه جديد لا يخلو من بعض نواحيه من مصادفة كان لها تأثير حاسم في هذه الفترة من حياة إبراهيم فقد كان كما عرف القارئ يلهج بالزواج من ليلى . ولم يكن ذلك ليسترها أو يستر نفسه كما فعل حين عاد الدكتور محمود والشيخ على ولا ليصحح مركزها ، فما كان يجري له في وهم أن بمركزها حاجة إلى التصحيح ، ولا كانت أنباته بالحياة الجديدة في أحشائها . وإنما كان يدفعه إلى ذلك حبه لها ونزوعه إلى الاستقرار من ناحية وإلى المكايدة والعناد من ناحية أخرى ، غير أنه بعد أن صارحته

ليلى بما أوهمته أنه ماضيها الحالك ،تردد وأشفق ولم يستطع أن يروض نفسه على السكون إلى الواقع أو الاضراب عن التفكير في المستقبل مقيسا إلى الماضي ، ومع ترددد وإشفاقه كاد حبه لها يطغى على إحجامه ، وكادت معاودة التفكير الهادي توسع في عينيه ما ضيقه العرف ، لولا أن ليلى مدت يدها فجأة فأنقذته) .

فالصدفة هنا هي الوجه الآخر للقدرفإن لم يكن للإنسان يد في إحداث الصدفة ، فإن تدبيرها يرجع إلى القدر ، والإنسان إذا ما اقتنع بأن كل ما يحدث له من تدبير القدر ولا له فيه ستراح وأزاح كل هم من على صدره ، واخ سبيل من المحاسبة ، ولا يجشم نفسه عناء تحقيق شيء في طي الغيب ... كيف يحاول وهو يعلم أن كل شيء ي يد القدر ...ويريح نفسه من عناء الندم على شيء مضى ، وكيف يندم على شيء ولم يكن في طوقه فعل ي شيء ؟

إنها معادلة يقيمها الإنسان القدري لكي يستريح من عناء الإحساس بالوجود الإنساني .

يقول في (إبراهيم الثاني) صفحة (١١) عندما أحس بفتور من جانب(ميمي) تلك الشخصية التي اقترب منها بغية تحريك حياته الزوجية الراكضة : (وظل بضعة أيام يحدث نفسه كالموسوس بتعبيس صاحبته (ميمي) وكان أمرًا في أصل طباعه الجدالصارم ، وإن كان قد عود نفسه ابتغاء الراحة ، أن يأخذ الأمور من مآخذها السهلة القريبة وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها المشرقة الوضاءة من غير أن تغييب عنه نواحيها الكالحة ، وكان مما راض به نفسه على ذلك قوله لها **وهو يناجيها حين يخلو بها :** (إن الدنيا ليست بالجنة ولم تخلق على هوانا ولا كان لنا رأي في خلقنا نحن ، وإنما جئنا لأن نواميس الحياة اقتضت أن نجئ فغير عجيب أن

يكون ثم ما يسخطنا ولا يرضينا . ولو ذهبنا نتسخط كل ما لا يرضينا لما عادت الحياة محتملة . فالصبر والحلم وتناول الأمور برفق وتسهل أوجب ما يجب ، وأدل شيء على حسن الفهم وصحة الإدراك ، وليس هذا من قبيل قولهم ليس في الإمكان أبدع مما كان . فإن كل ما في الدنيا قابل لتحسين وإصلاح وتهذيب وإن لم يكن في ذاته غاية في السوء والفساد) .

فهو يرى أن ليس لنا رأي في مجيئنا إلى تلك الحياة . وإنما القضية لا تدخل فيها إرادة الإنسان ، فهي قضية نواميس وقوانين فرضت على الإنسان في هذا الوجود ، وفرض عليه ان يحياها بتلك النوعية من الضحالة والتفاهة .... ولذلك يجب ألا ننتظر من هذا الوجود أن يوافق أمزجتنا ، ولكن ينبغي أن نقبله على علاته حتى نستطيع أن نتحمله ، وننفذ ما قضت به النواميس وما حكمت به القوانين .

ويقول في قصة (ثلاثة رجال وامرأة) ، صفحة (١٠٣) : (وكل شيء في هذه الدنيا اتفاق ، أو حظوظ ، وقسم ، وقلما يغشى التدبير والسعي والطلب غناء المصادفة ، وما أكثر ما (تأتي المقيم وما سعى حاجاته عدد الحصى ، ويخيب سعي الطالب) .

وفي نفس القصة ، وبعد أن عالج الأستاذ (حليم) ما وقع فيه هو و (محاسن) وتخلصا مما في أحشائها نتيجة العبث الذي كان يحدث من الأستاذ (حليم) – والتي خنقت رغباته الجنسية بعد أن رفضت زوجه معاشرته – لمحاسن تلك الفتاة التي لم تكد تجاوز طور المراهقة ، **يقول** : (وغنهليخيل إلى أن كل شيء في هذه الدنيا قضاء وقدر . من كان يظن أن الذي لا يحدث إلاَّ في الفلتات النادرة وفي مرة كل خمسين الف مرة ، يحدث لنا من أول مرة . وعلى من هذا التحرز والاحتياط ؟ سوء حظ ليس إلاَّ أو قدر جرى به القضاء) .

ثم يقص الأستاذ حليم على محاسن قصة وإن كانت ساذجة ومبتذلة إلاَّ أنها تشي عن اعتقاده ....وفحوى القصة ، سقوط طفل من عمارة عالية ولكنه ينجو من الموت ، ذلك لأن رجلا كان يسير في الشارع – مصادفة – فتلقاه بذراعيه **و ينتهي من سرد الحكاية بقوله** : (فهل آمنت أن كل شيء في دنيانا قدر وقسمة) فربتت على كتفه وقالت : (ثق أني لا ألومك على شيء ولكنه لا يسعني إلاَّ أن أشعركم بألم ومرارة لأني كنت ضحية هذا القدر ، فأعذرني إذا فاضت المرارة على لساني) .

وأغلب شخصيات قصصه تعتقد هذا المعتقد الذي يؤمن بالقدر ، وينصاع ويخضع مستسلما لما ينزل به من تجارب أليمة وصدمات عنيفة ، والمازني هنا يعكس الروح المصرية بصدق كامل ، تلك الروح التي تستقبل كل ما ينزله بها القدر من مصائب بنفس قوية وصدر رحب وقلب ثابت ؛ لأنها تؤمن بعمق بسطوة القدر وأن الإنسان لا يملك إزاءه شيئا .

ثالثا : عبثية الوجود :

إذا نظرنا إلى المحورين اللذين تدور عليهما فلسفة المازني ، وهما القيمة الإنسانية وقدرية الوجود ، أعطيا نتيجة واحدة ، وهي أن الوجود الإنساني ما هو إلاَّ نوع من العبث ،وقد فهم المازني تلك النتيجة وتمثلها تمثلا صادقا ، وانعكس ذلك على قصصه وعلى نظرته لكل ما حوله ، والمازني من أكثر الأدباء إذا ما اعتقد شيئا اعتقده ليس عقلا فحسب ، وإنما إحساسًا وشعورًا ، وهذا راجع إلى ذاتيته وهو ليس بالمعتقد من خلال اطلاعه أو قراءته ، وإنما مصدره في ذلك التجربة التي عايشها ومر بها ومرت به ، وأثرت فيه أبلغ تأثير ، والمازني يعكس تلك النظرة للوجود ، فقد ركب كل شيء بالعبث والمزاح والفكاهة والسخرية ...وربما يكون سر سخريته هو ذلك الشعور والإحساس الذي يقابل به الوجود الإنساني ، فلماذا يحزن أو يتكدر إذا كان كل ما حولنا عبث ؟ وكل ما حولنا إلى زوال وإلى فناء ، ولكن تلك السخرية

واللامبالاة التي يقابل بها الوجود تخفي فهما عميقا للوجود الإنساني ... ففي هذا الوجود الناقص والمتذبذب دائما نحو الامتلاء والخلو ، نحو الاخضرار والذبول ، بعد كل هذالا يصير كل شيء إلى زوال ، وكما يقولون الأعمال بخواتيمها وإذا كانت خاتمة الوجود هو والموت والفناء ، فإن تلك الخاتمة أو النهاية القاتمة تلقي بظلالها الحالكة على كل ما في الوجود الإنساني ، ويصبح كأنه لعنة حلت بالإنسان على ذنب لا يدري ما هو ولا أين ولا متى ارتكبه !!

ويقف الإنسان حائرا ليلقي السؤال الخالد الذي أعياه جوابه ، ما الحياة ..؟ ما الموت ..؟

يقول في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (٢٨٤) : (وهبت الريح بي كالمجنونة فعدت وكأني أمشي على ماء لجي يعلو ويهبط ، وسفت الرمال في وجهي حيثما أدرته كأنما أرادت الحياة أن ترجمني ، وتسابقت زمامها إلى أذني فوقفت مكاني لا أريمه ، وقلت لنفسي : (ماذا يصنع العود النابت في الخلاء هبت به مثل هذه الرياح الهوجاء ؟ يلين أو يتقصف !) .

فملت إلى الأرض حتى سكنت الثورة وهدأت الفورة وجعلت أفكر في هذه الحياة الغريبة التي يمتزج فيها الصراخ بالغناء ، ويختلط به الألم والطرب وأقول لا شك أن الحياة عمياء صماء ، فليتها توهب البصر هنيهه ، لترى هذاالخليط من الحسن من الحسن والقبح والخير والشر ، وياليت من يدري ما تصنع إذن ؟ أترى يثور بها الخجل فتعصف بكل شيء وتمحوه ؟ أم تأخذ في إصلاحه وعلاجه في صبر وأناة ؟ وأم لو كنت أنا الحياة لتناولت ما أخرجت كفاي من طينة الأرض المحدودة ودككته وحطمته ثم ذرته لهذه الرياح !)

فهمست في أذني الرياح :

(ما الحسن وما القبح ؟ وما الحزن وما السرور والخير والشر وما الإحساس والعقل ؟ والخصب والجدب والصحة والسقم وليأس والأمل؟والبكاء والضحك ؟).

ونشعر هنا بأن المازني يرى الوجود فوضى مختلط بالمتناقضات لا يستطيع أن يضع له اسما أو عنوانا ، فلو وهبت الحياة لبصر – وكأنها عمياء – فسوف تخجل من نفسها ، وتأخذ في تحطيم ا الوجود الفاسد ، والمازني يحمل من طاقات الكره والإزدراء لهذا الوجود الكثير ، ولو كان الأمر بيده لحطم كل شيء وأذراه أدراج الرياح ولكن ما سبب هذا المقت الشديد للحياة ؟ وما تلك الظلال السوداء الي تقطر حسر وألما من قصص المازني ؟

يقول الدكتور (حامد عبده الهوال) في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (١٩٣) : (سخر المازني من الحياة ، لأنه على قدر ما عاش فيها لم يفهم جدواها أدرك منذ الصغر نهايتها ، وربما بأعمق من إدراكه لبدايتها ، فنشأ لديه الاستخفاف بها وبكل ما فيها) .

ويقول : (وقد نتمثل نحن ذلك ، ولكننا لا نشعر بتأثيرات مرضية أو بقلق زائد ولكن إذا كان التمثل مؤيدا بالمشاهدة اليومية ، أو المعاناة أو المكابرة عن قرب فالأمر يختلف وقد لا يتأثر الآخرون بمثل ما تأثر المازني به لأنه مهيأ لهذا التأثر ولأنه مرهف ولم يكن في حياته وفترة صباه ما يجذبه إلى أن يستغرق في الوجود وينسى معه عدمية المستقبل الذي يستحضر قربه دائما ، ولذلك لا ندهش إذا رأيناه يعتبر هذا القدر الذي نعيشه تافها ، مادام الموت ينتظره ويتساءل لماذا خلقنا ؟ ولماذا كان هذا الوجود ؟ ويستخف بكل شيء في غير مبالاة) .

والإنسان قلما يسعد في حياته تلك ، فهي قصيرة ، فالربيع أياما ، والخريف أعواما ، والحياة لا تخلو من منغصات تصاحب كل مرحلة يمر بها الإنسان بدءًا من الطفولة إلى نهاية العمر ، وكيف يشعر بالسعادة والسرور وكل يوم يمضي هي خطوة نحو الموت والفناء ، وأكثر حياته يمضيها بدون إحساس أو شعور ، فهو موجود على الأرض ، ولكنه ليس بحي .

يدور حديث بين إبراهيم الكاتب وبين الشيخ (على) حينما دخلت عليه (زوزو) ابنة الشيخ تعابثه وتداعبه ، وتعجب إبراهيم من تفضيل الشيخ ابنته (زوزو) على ابنه (محمد) بحجة أن الولد وليس البنت هو الامتداد الطبيعي لحياة الإنسان **يقول الشيخ** : (كلا يا صاحبي ن وليس إيثاري لها لأنها الكبرى ، كلا أيضا أنت شاب فمن حقك أن يكون هذا رأيك في ربيع العمر وللشباب حكمه الذي يؤثر فيه فلسفة ولا يغيره علم أو اطلاع ويصمت برهة ، **ثم يقول كأنما يحدث نفسه بصوت خافت متهدج :**

للحياة كما للأيام فصول ، ولكن فصول الحياة تتوالى على غير ميعاد ، وليس كل فصل منها ككل فصل ، فقد يكون الربيع أياما والخريف أعواما ! والذي يجيء منها لا يعود ومتى جاء الخريف وبدأ المر يشعر بأنه قد رأي خير ما كتب له في عمره، وإن ما بقى من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون (وجودًا) منه بأن يكون (حياة) استمرار ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجري في (الحياة) الأولى ، كما يجري النازل من (الترام) عرف المرء أن أذنه التي كانت تتمثلها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذي كان يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طماح ، يخفق بلا احتفال ولا يخرج في دقة عن انتظام) .

والذي يجعل الحياة ويجعل للوجود قيمة يصبو الإنسان إليها أن يحياها أن يكون هناك أمنية يود تحقيقها ، ويشعر غذا ما تحققت أن قد أصبح أسعد المخلوقات على وجه الأرض، ولكن حتى هذا يضعف ويخفت بريقه شيئا فشيئا بل قد يتسرب الملل واليأس إلى نفوسنا بعد تحقيقها ، ويصبح الوجود بعد أن

كان ممتليئا ، تسمع فيه أصداء الفراغ في سمائه ، وبعد أن كان أخضر يافعا ، يأخذ في الجفاف والذبول .

يقول الشيخ (علي):(وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نعتز بها ونحرص عليها تفقد حلاوتها وقوتها ونضارتها ويهن استلاؤنا على نفوسنا ويضعف أغراؤها لخيالنا وتتعرى زهراتها من أوراقها وتجف وتصفر وتتساقط على اليد ويطيرها النسيم هنا وهناك) .

وكان المازني يشفق من هذا المصير المؤلم ، ويحاول أن يخفف من كثافته القاتمة ، فيتعزى بالذكرى عما فقده وعما صار إليه ، ويقول على لسان الشيخ (علي):(متى صرنا إلى هنا – فإن المرء تهتز نفسه لابنته وترتاح إلى منحها الحب إن هذه الفتاة الصغيرة يا صاحبي تعيد إلى الشعور بحرارة الحياة وقوتها الدافقة في ربيع العمر ، نعم أنها إنما تحيي (ذكرى) ذلك ولا تجدد الشعور ولا تهب القوة التي نفدت ، ولكن الذكرى غناء) .

فهنا وقت التعزي بالذكرى .وإذا ما أخذ الإنسان يتشبث بالذكرى هذا التشبث القوي ، فقد ضعف عن احتمال الوجود الحاضر ، وآن الأوان لكي يفارق الوجود .

وفي صفحة (٢٦٤) تجول تلك الخواطر بذهن إبراهيم الكاتب بعدما صارحته (ليلى) **بماضيها غير الطيب** : (ثنى إبراهيم وجهه إلى الحائط وقد تنفس الصعداء – وهذا غريب – ثم ذهب يفكر وهي تحسبه قد أولاها ظهره ريثما ترتدي ثيابها . فخيل إليه أن المرء لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة باخلاص إلا بعين يمتزج فيها التشاؤم والتسامح وأن الدنيا حافلة بالسوء والمقابح ، وإن الحياة منها – أقوى – فنونها – التثبيط وأن الإنسان يعيش في سنين وسنين ، ويتصل بمن لا يحصى عددهم من الناس ، ولكن ما أقل الموافق منهم ، والذي يسعك أن يتوثق ما بينك وبينه من غير أن يكون هناك مقدار من الملل أو الاحتقار أو الامتعاض أو الخجل وأننا نعلم ذلك ونحن نسعى في الدنيا ونبغي الناس ، وأن خاتمة كل حياة الأسف والندم وهما جبل ينمو معنا طالعا

من تحت أقدامنا ، وقلما نعرف اسمه في صبانا وما أكثر ما نتوهمه جبلاً رائعًا جليلاً وإنه لرائع وجليل ولكنه مخيب للأمل ويعلو الجبل أمامنا ويتضخم ، ونحن نصعد فيه ونتوغل فرحين بالحياة مغتبطين بالعيش ، ثم لا نلبث على الأيام أن نتسهل وندير عيوننا فيما حولنا ونرجع البصر فيما خلفنا وراءنا ، فتأخذ عيوننا شقوق الفضائح وفدافد اليأس وأودية السقوط ومع ذلك نظل نصعد في جبل الندامة ، وماذا عسانا نفعل غير ذلك ؟ ويجيء يوم نهرم فيه ، وتكل أرجلنا ، وتجف أنسجتنا ونعيي بالابتعاد ، فنقعد على قمة مريحة وننظر إلى جداول الحياة المنحدرة ، الحياة التي تظل تترقرق ويظل واديها خصبا وإن جففنا نحن واحدا بعد واحد فنتعلل بذكرياتنا وتبدو لنا هذه الذكريات أجمل وأصبى من الحوادث التي ولدتها) . بكل إباء ، ترك (إبراهيم).

ولسيت المأساة في الوجود فحسب ، وإنما أيضا فيمن حولك ، فهو يشعر بالغربة وهو بين ووسط الناس ، فلا هم متوافقون معه ، ولا يشعرون بما يشعر به فقد أحب (إبراهيم) (شوشو) وطمح إلى الاقتران بها ، ولكن كانت العقبة متمثلة في (سميحة) فهي أكبر من شوشو ، والعادات والتقاليد تمنع أن تتزوج الصغرى قبل الكبرى ، وكانت النية مبيتة لدى (نجية) كبرى أخوات شوشو تزويج سميحة من إبراهيم ، ولكن إبراهيم يرفض ذلك ، فليس هناك استلطاف من جانب إبراهيم ، وحينما عرف (إبراهيم) أن نجية ترفض تزويجه شوشو بكل إباء ترك (إبراهيم) الجميع هاربا مع آلامه إلى الأقصر ، وصادف هناك (ليلى) التي نشأت علاقة حب بينها وبين إبراهيم ، ولكنها تركت إبراهيم بعدما عرفت ما كان بينه وبين شوشو كي تخلي الطريق لشوشو ، ومن قبل (شوشو) و (ليلى) كانت (ماري) ، فلم يستطع أن يكمل مع إحداهن طريقا بدأه .

والأسف والندم يأكلان كبد الإنسان ، وهما معه لا يفارقانه من الأسف على العمر الذي مضى ولا رجوع له ، والندم على حياة الإنسان التي انقضت وتقضت ظنا منه أنه من الممكن أن يحياها ، كما يجب أن تحيا .

والمازني - هنا – يصور بكل صدق أزمة الوجود الإنساني ، بكل ما يحمله هذا الوجود من قتامة ومرارة .

يقول إبراهيم الكاتب في صفحة (٧٨) : (ما الحب ؟) وما الشهرة والخمول وما السعادة والشقاء ؟ وما الحياة نفسها ؟) وأعياه أن يهتدي إلى جواب مريح – وأي جواب آخر سوى أنها عناء وباطل ليس يجدي ، وليس هذا بجواب وإنما هو همسة الضعف ووسوسة العجز ، وصحيح أن الحياة لا فرق عندها بين سعيد وشقي ، ومجدود ومكدود ومعروف ومغمور وعاشق وخلي ، وحيوان ونبات وجماد . ولكن هناك فرقا بين إحساسات المرء بواقع الحياة ، والمرء ليس سر الحياة حتى يطلب منه ان يكون نظره إلى الأشياء كنظرها هي واعتباره لها كاعتبارها) .

ويتساءل المازني : لم يحب الإنسان ؟ إليس كل حب إلى ملال ، ولم يوجد الإنسان أليس كل وجود إلى فناء ؟ ولم يسعى إلى الشهرة إذا كانت مصيرها الخمول ، وما السعادة إذ هي لا محالة ستزول ؟ الكل باطل وقبض الريح وحصاد الهشيم .

رابعاً: الخروج من أزمة الوجود الإنساني

ولكن كيف الخروج من تلك الأزمة ؟ وكيف نتعامل مع هذا الوجود الأعمى ؟

الخروج من هذا يتوقف على نوعية الإنسان ، وتلك القدرات التي في حوزته وقد حدد المازني تلك القدرات ، فالإنسان – عنده – من الكائنات التي حالما تتكيف مع الأوضاع التي تعارضه ، لذلك يجب أن يكون الإنسان – في رأيه- من النوع الزئبقي ، كما وصف المازني إحدى شخصياته في (ميدو وشركاه) – سرعان ما يتكيف مع الوضع الوجودي الذي يعايشه ، بمعنى إذا كان الوجود بلا قانون يحكمه،أو منطق ينظمه ، فلا يجدي أن يحاول الإنسان فهمه بعقله ، لأنه – الوجود – يخضع لقانون لا يستطيع الإنسان فهمه أو تقبل هذا الفهم ، فالذي ينظم هذا الكون لا ينظمه وفق المنطق الإنساني المحدود الأفق ، الضحل العمق ، ولأنه فوق فهمه ، يتهم الإنسان الوجود بالفساد والنقص ؛ لأنه غير مفهوم له . وخرج المازني من تلك الأزمة أن لا يتعامل مع الوجود بالعقل ، فالوجود لا عقلاني ، ويوضح هذا حينما يدير حوارا بينه وبين نفسه في قصة (إبراهيم الكاتب) صفحة (١٣١) بعد أن ترك دار الشيخ (على) إلى الإسكندرية وقد استيقن من حبه (لشوشو) : (وحده ؟ كلا ، بل معه ...كيف تقول ؟ نفسه تحاوره وتداوره وتناوشه أيضا **وتقول له فيما تقول :**

- إنك تحبها . أ لست تحبها ؟

فيقول : (أحبها ؟ ويحي ! لقد كان لي ثوب رجولية زين ، فأين وفائي للخلاق الرزين ؟ تجملي أين ؟ وكرامتي ماذا صنع الله بها ؟ وردي النفس إذا جمحت ، على مكروها ؟ أحبها ؟ وأسفاه ، لقد صرت عاري الهوى ليس لي ما يستر القلب عن الناظرين ، وكأنما هذه الدنيا خواء في عيني خرابا فمن استحي ؟ وماذا يبعث في النفس الشعور بالعزة ؟

ويطلق ضحكة مثقلة بالدموع المحبوسة **فتقول النفس ملحة :**

- تحبها إذن ؟
- نعم .
- جسمها .
- يفتنني روحها فيه .
- طبيعتها ؟
- نادرة . نادرة .

ويرسل آهة .

فتزداد نفسه عليه شدا ولا تترفق به وتقول :

- إذن لا شك في النتيجة ؟

فيقول : (لا أدري !)

فتعيد عليه الكرة ....

- ألا تظن أنه من المحتمل أن تظفر بزواجها ؟

فيهز كتفيه ويقول :

- ربما ! ولكن كيف واللعينة أختها تكيد لنا وتعترض سبيلنا .
- وتكف النفس هنيهة ، **ثم تعود فتسأل** :
- أليس كل حب إلى هلاك ؟ وكل حسن إلى عفاء ؟
- نعم .
- وللقلب جمحه أليس كذلك ؟
- نعم .
- أليس أولى بك أن تجعل القلب لجاما ؟
- فيسألها بدوره (كيف) ؟
- فلا تجيب ولا تسمح له أن ينقلب هو السائل وتقول :
- هل لك عمران !

- ماذا تعنين ؟
- هل ضمنت عمرا جديدا غير هذا ؟
- كلا !
- أو هل تعرف أن لعمرك هذا من يرفوه إذا بلى وتمزق ؟
- أي فكرة!
- كم ساعة عشتها بعقلك ؟

فيعجب لسؤالها ويلتفت كأنما يخاطب شخصا محسوسا إلى جانبه ويقول :

- ياله من سؤال !
- إن حولك الأرض والسموات تغري العقل بالتفكير .

فيقول مستخفا (نعم ؟)

- كان حقك أن تصقل عقلك لا أن تصدئه !
- يعني ماذا ؟
- يعني أني أراك تطلب الحسن لتغنيه – أليس كذلك ؟

طبيعة الفنان ؟ هيه ؟

- لا تسخري بي من فضلك ؟!
- لست أسخر . ولكني أحب الحسن يوجد في غير الإنسان أيضا .
- نعم ، ولكنه في الإنسان أتم وأبهر وأوفى تعبيرًا .

فتقول النفس : (أحسبني فهمت : لابد لك أن تسند صدرك القريح أبى شوكة الورد إذ تغنيها ؟)

فيثور بنفسه يلعنها فلا تعبأ **وتقول** :

- كنت اظنك أحق بأن تحاكي النسور لا القمارى !
- النسور
- نعم ترفع الطرف مثلها في سماء الفكر . ولكنك عبد الحياة . عبدها الباكي الشادي بغنائه الذي لا يعجب الأحرار والطلقاء . واحسب أنك

معذور إذا بكيت أسارك وحاولت أن تتلهى في سجنك لا بأس ، أرسل صوتك ليؤديه الصدى مقطعا آه نعم .

غن وقل كما يصيح الصبي في الظلام ليطرد عن نفسه المخاوف ، وأحلم على الرغم من الرق والأسر – بالخلود . وغالط نفسك وقل إن الجمال وحي ، وإن الحب لا ادري ماذا أيضا ؟ ولكن ألا تسمح لي أن أسألك ما وحي الأزاهير الذي يذكي أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفرافة الغضن فيحاء الثمار ؟ أين وحي الينبوع فاضت به الأصلاد ؟ لا بأس غن يا عبد الأيام أو ألعوبة الليالي !

فلوح بذراعيه وقال : (أوه ! العقل العقل ، ليت إذن المقادير حرمتنا هذه النعمة التي لم تغن بها ، ماذا عليها لو أنها كانت تركتنا نرعى الكلأ ؟ ماذا تخسر الدنيا لو كانت الحياة حتمنا (فكرة) السماء وسمرت لحظنا إلى الأرض ؟ كنا نرعى ملء البطون نباتا وننشق ملء الصدور هواء ولا نعد السنين ، فلا سنة جاءت ولا أخرى مضت ن ونحيا ونحن نجهل أننا أموات ، ثم نموت بما كنا أحياء ونلبس الحياة في كل حال راضين ناعمين جاهلين ابتداءها وانتهاءها ، ولكن المقادير أفاضت علينا نعمة الحس فهيهيات ينفع العقل ، نحن أحيا الأحياء ، فلة أحسسنا الحياة بالأعصاب العارية لما كان ذلك يكفي ...والمرء يظلم الله ويجحد فضله إذا خزن ما منحه الله وخبأ ما وهبه ، لالا. إنك تريدين قيمة ليس فيها حلم وعلى أنه يا نفس ، ما الفرق ، آخر الأمر بين من يقول ليس ثم سوى الأرض ، ومن يقول لن تنالوا السماء) .

صراع بين إبراهيم الكاتب ونفسه . تدفعه إلى تحكيم العقل وأن يكون كالنسور رائدة في ذلك المنطق ، ولكنه يعرضها ويتمنى لو انه خلق بلا عقل حتى يقف موقف الرافض للوجود ، لا يريد من الجزء أو الجانب الروحي أن ينغص على الجزء او الجانب الطبيعي حياته ؛ ليعيش ويستمتع بهذا الوجود ن ويعيش جاهلا أنه في لحظة من اللحظات ، بعدت أو قربت سيموت .

وإذا كان الإنسان سيعيش بوحي من العقل ، يفعل هذا ولا يفعل ذاك محاولا في ذلك تعقيل الوجود ، فإنه بذلك يضن مما أعطاه الله من وجود وحياة على نفسه . فالحياة نعمة يجب أن يستمتع بها الإنسان ، وهي قصيرة ، وهولا يستطيع أن يحياها بالعقل فحسب ، ولو كان هذا المفروض لكان الله خلقنا عقولا صرفة ، ولكنه خلق فينا جزء من طبيعة هذا الوجود ، ونحن نميل إلى ما شابهنا .

وحينما يكون المجال مجال القلب ، فلا مبرر لو جود العقل وأحكامه ، ونلمح ذلك من خلال تحذير نفسه له من التمادي مع (شوشو) ، لأن العواقب ستكون وخيمة وستكون هناك مخاطر ، **تقول نفسه في صفحة (١٣٥)** :

- هل قدرت المخاطر ؟

فقال بحدة :

(هل كان أنطونيو يجمع ويطرح ويعني بهذه العمليات الحسابية وهو يتلكأ بجانب كليوباترا ؟

- **فعادت تسأله** : (ولكن المسئولية) .
- **فقال** : (إني أعلم أن المسألة خطيرة ، ولكن الرجوع لا سبيل إليه الآن ، ثم إني لا أريد أن أتراجع .
- **فسألته** : (ومتى تخطبها ؟)
- **فقال** : قريبا في أول فرصة .
- وإذا رفضوا ؟

(آه إذن أدفن سري في قلبي ولا أرثيه حتى بقصيدة) .

فليس العقل هو المطية المناسبة كي نسير به بين جبال وكهوف وأودية وبحار الوجود ، فهو لا يتناسب وتعرجات وتناقضات الوجود ، فالعقل لا يستطيع أن يعيش بين المتناقضات ، فليس أمامه إلا خياران ،أما أن يوفق بين المتناقضات أو يترك الأمر برمته . بينما التناقض صفة من صفات الوجود لا

يستطيع العقل إزالته ، والحل الوحيد لتلك المعادلة هو استحالة التعامل بالعقل مع الوجود .

يقول دكتور حامد عبده الهوال في كتابه : (السخرية في أدب المازني) صفحة (٢٣٤) : (كان المازني قوي الإحساس بالحياة سريع التجاوب معها ، والحياة ليست لونا واحدًا ، ليست مرارة دائمة ولا حلاوة دائمة ، ترق وتعذب فتشرق نفس المازني ، وتصفو وتنطلق في فكاهات ساخرة من كل ما يقف في تيار هذا الاشراق أو يحاول أن يعطل هذا الانطلاق ، وتقسو وتشتد فتتأثر النفس لها وتشتد أكثر فيبدأ شعور المازني بأن الحياة تتحداه وتقصده هو فتأخذه العزة ويقابل الألآم بروح انتقامية متعالية ، وهنا يكون استهتار من نوع آخر واستخفاف لا يخلو من مسحة حزن .

ثم تعود الحياة إلى بسمتها ، وتحلو من جديد ، وتزايلها الكآبة وتبدو منبسطة الأسارير فتعود إلى المازني سعادته بها وحبه لها ، وربما تأمل هذا التضارب وهذا التقلب فبدأ له الأمر شبيها بلعب الأطفال وعبثهم ، كأنالحياة لا تخضع لقانون وليس لها نظام ثابت أو هي غير جادة ، بل عابثة بنفسها ، وبمن عليها ، فلا أقل من أن تهون في عينه ، وتصبح مادة لسخريته وفكاهته ، والواقع أن هذه السخرية تميل ميلا عن الكاتب للوصول إلى حالة التوازن والرضا عن الأوضاع السائدةمن حوله عن طريق إعطائها ما تستحق ووضعها في المكان المناسب) .

إنه لا يجشم نفسه عناء تنظيم الكون أو إعادة خلقه على أسس سليمة ، فهذا نوع من الغباء ؛ لأنه من المحال أن ينظم الإنسان الوجود حوله ، ولكن الذكاء في أن يقبل الوجود على ما هو عليه - في رأي المازني – لذلك تجد كل شخصياته في قصصه لا تجاهد ولا تكابد ولا تصارع ، لأن بداخلها وعي ذاتي عميق لطبيعة الوجود ، وهو أن الإنسان يجب أن يتوافق وطبيعة الوجود حوله ، وليس العكس فالصراع لا وجود له ، وإن بدأ فهو لا يصل إلى نهايته ، فهو صراع مجهض وسنتحدث في نوعية الصراع في قصصه في مكانه المناسب من هذا البحث .

استعذاب الألم :

بعدما عرض لنا المازني مخرج من أزمة الوجود الإنساني ، وهو التعامل مع الوجود من مبدأ لا عقلانيتة ، يعرض المخرج الثاني من تلك الأزمة وهو (استعذاب الألم) وفي الحقيقة القبول والتسليم بلا عقلانية الوجود ، ليس هو بالضعف بمكان ، ولا هو بالاستجابة السلبية ، لأنه سيترتب عليه تقبل إفرازات هذا الوجود من شقاء وألم وشر ، ولا نستطيع تقبل الألم وتحمله إن لم يكن لدينا من القوة والقدرة والإرادة الكثير ، بحيث لا يصبح الألم له هذا الوقع المخيف ، والتي ترهبه وتخافه النفس .

والألم يصاحب الإنسان منذ ساعة الولادة إلى أن يفارق العالم ، والوجود حافل به ، إذن لا مفر من أن نتعامل معه بشكل أو آخر ، وإلا لن يحتمل الوجود واستعذاب الألم موقف حازم من عبثية الحياة ولا عقلانية الوجود ، ويتخذ مظهر التعالي ولا استخفاف واللامبالاة بهذا الوجود ومشاكله .

والمازني يشعر بالوجود شعورًا قويًا نتيجة ما مر به من أحداث وتجارب مؤلمة ، ولم يجد مخرجا من هذا سوى التعالي والاستخفاف ، **يقول د / حامد عبده الهوال في كتابه صفحة (٢٢٢) :** (وقد عرفنا من حياة المازني وظروفه الشخصية ما كان له آثار بعيدة المدى على انتاجه وعلى أسلوبه وعلى نظرته للأمور من حوله كانت له طفولته التي لم تخل من الألآم والمشاكل التي امتدت به حتى سن الشباب وقاس من اضطرابات الحياةالعائلية والمهنية والمالية والأدبية ، وربما تخلفت عن ذلك أثقال على النفس اتخذت مظهرًا متشائمًا قاتما أحيانا ، وكان يمكن أن تظل هذه نظرته إلى الحياة لولا أنه يملك هذه الموهبة القادرة على مواجهة كل شيء بالتعالي والاستخفاف . وهذا هو السر في أن المازني لم يفقد مرحه ، ولم يضيع هذا الجانب العذب من شخصيته فبقى مثلا للروح المصرية في خير مظاهرها من حب الفكاهة إلى

درجة الولع . وإرسال النكتة على سجيتها في أي المواقف والتغلب على الشدائد بالمرح واللامبالاة) .

إنه انتصار للإنسان ضد الوجود ، وتلك هي عبقرية المازني ، فرغم فساد كل شيء وتفاهته ، إلا أنه يعيش الوجود ويضفي من لدنه إليه معنى ومغزى ، ويعيشه ويحياه بشقائه بألآمه ، بشره ، بتناقضاته ، وليحاول أن يجعل لكل شيء معنى لا شيء يمنعه من أن يعيش وجوده ، وهو يعرف إمكانيات هذا الوجود ، ولا يطلب أكثر من تلك الإمكانات حتى لا يشقى ، فالوجود فان ، فلا يطمح إلى الخلود والوجود مفعم بالشر فلا يصبو أن يكون خيرًا صرفا ، والوجود وضيع وتافه فلا يتمنى منه الرقي والسمو . **وكما قالت (ليلى) في قصة (إبراهيم الكاتب)** : (كلا! لن أشقى . أو فلأشقى سيان ، إنما تنشأ الأحزان لأن الإنسان يفرض لسعادته ثمنا) .

ويقول إبراهيم الكاتب لشوشو في صفحة (١٣٨) : (اسمعي يا شوشو . لقد أهاب بنا نيتشة أن نحيا حياة خطرة ولكني أقول أنه ينبغي أن نحيا حياة أيضا مؤلمة أن الألم لا سخيف ولا بشع ، انظري هذه الشمس التي تنحدر نحو المغيب . إن للشمس بقعها ، والشمس على الرغم من بقعها هي حياة الأرض ، هي وحدها حياتها والسعادة أيضا لها بقعها . ولك أن تسميها ألآمها ، ولكن هذه الألآم هي التي تجعلنا نقدر السعادة التي نفوز بها ، والحياة بالقلب هي الحياة الثانية ، أما من يبلد قلبه من يخنقه ، فهذا إنما يحيا حياة هندسية في ناحية واحده وأحسبه مهما حاول لن يستطيع أن يقنع نفسه بعقله وحده ، وماذا يصير الناس في عالم تسيطر فيه العقول أتم سيطرة على القلوب ؟ ينقلب الرجال (نظريات) ذات لحى وشوارب والنساء ملاحق لها والحب لوغارتمات للرغبات) .

إنها دعوة يصدع بها المازني ... أن نعيش الوجود سعداء ضاحكين مستخفين بكل شروره وألآمه ... فغن الحياة جد صغيره لا ينبغي أن نضيعها في البكاء على فساد الوجود ، لنخلق بأنفسنا السعادة إن لم نجدها حولنا ، لنزرع الإبتسامة في قلوبنا إن لم بنيتها الوجود لنا ، لنبسط اشرعة الجمال إن كان الوجود مقفرًا منه ، لنجعله من داخلنا نحن ، وهذا هو سر فكاهات وسخريات المازني ، يريد أن يتغلب على الوجود ، فهو في صراع حاد معه ، ولم يجد من أسلحة سوى الضحك والإضحاك أن يبعده عن الوجود ، او يحطمه من خلال تركيز وتكثيف قبح الوجود في عينيه .

في (إبراهيم الثاني) يخاطب صديق له حينما ألح عليه وسواس المرض يقول في صفحة (٥٣) : (وأرح نفسك من هذه الوساوس وابتسم ، وأضحك والعب وأدخل السرور على نفسك ولا تجالس من يقول لك أن الدنيا دار شقاء وأن الحياة ذميمة ، فما أعطينا الحياة لنشقى بها بل لنحياها على خير ما نستطيع وفي أسعد حالة تتيسر لنا ...ثم ما هذه الضجة بالله ؟ ماذا نخاف ؟ أهو الموت ؟ فإنا جميعا أبناء الموت ولا مهرب لنا منه ، ولو أعطيت أقوى قلب في الدنيا لما منع ذلك ان تموت في يوم ما ، فلماذا نعني انفسنا بالموت طول حياتنا ؟ وإنه لحال مقلوب – في شبابك لا تضحك فإنك ما زلت في شبابك – أقول في شبابك يسود الخوف من الموت عيشك وتعلو سنك شيئا فشيئا ، وتدلف إلى الكهولة والشيخوخة فيكون من أثر هذا أن يوطن نفسك ويروضك على المصير المحتوم ، وفي الشيخوخة يشعر المرء بالبلادة كلما طاف برأسه خاطر الموت – لن الشيخوخة عبارة عن تبليد هو بمثابة الإعداد للموت – ففي صباك وفي نضارة عمرك في عهد القوة والفتوة واستطاعة الانتفاع بالحياة والاستمتاع بها ، تنغص على نفسك هذه الحياة وتفسدها بالموت والفزع ثم ينقضي الشباب الذي لم تصنع به شيئا ولم تركب به ما يركب ، وتجيء الشيخوخة – إذا أمد الله في عمرك – فيفتر وقع الموت في نفسك ولا

يعود له ذلك التنغيص القديم ، ولكن ما الفائدة حينئذ ؟ أليس هذا حالا مقلوبا . اذهب ...اذهب يا رجل واخشن . وانتفع بما لا يزال لك من شباب) .

نعم ... نهية الوجود هو الموت والفناء ، ولكن إلى أن تأتي تلك النهاية ينبغي للإنسان أن يستمتع بوجوده وبكل ما وهبه الله من نعم ... ولا ينبغي أن نمضي عمرنا وشبح الموت يلقي بظلاله على حياتنا ، ولا ينبغي أن يأخذ تفكيرنا في الموت – هذا التفكير المرضي – إلا لحظات ، وهي اللحظات التي يحضر الموت فيها للنفس وإلاَّ بتفكيرنا الدائم فيه فإننا نموت كل يوم ، وكل لحظة نفكر فيها هذا التفكير الممض .

نعم ... الوجود فاسد ، ولكن هل هذا يمنع أن نعيشه ؟

وهو قبيح ، ولكن هل هذا يمنع أن نحياه ؟

لنكن أقوى من الوجود ، لنتسامى فوق نقائصه وعيوبه ومقابحه ... المهم أن نقبله ولا نرفضه ، نستسيغه ولا نمجده ، فالوجود غابة ملآنة بالأشواك والأفاعي ومعارك الحيوانات الضارية التي تريد أن تلعق دم الإنسان ، وبجانب كل هذا يوجد الأزهار والثمار والظلال ، وعلى الإنسان أن يعيش وسط تلك الغابة ، ويتحمل فحيح الأفاعي ، ومعارك الحيوانات ليظفر بالأزهار والثمار والظلال ، فالوجود قاس ، ولا يعيش فيه إلا من كان أقسى وأقوى من شرور وألآم الوجود ... فهي دعوة يطلقها المازني لنكون أقوياء ، لنقبل تحدي الوجود ، ولننتصر على قبحه وفساده وانحلاله .

الصراع المجهض عند المازني

تتوقف جودة العمل القصصي على استكمال الصراع لكل مقوماته وقيامه على أسس تتوافق ومنطقية الغرض القصصي الذي افترضه القاص منذ البداية والصراع يمر بمراحل ليتشكل شيئا فشيئا في النهاية ، لتتمثل ذروة الصراع أو الأزمة التي تقع فيها الشخصية المحورية أو الشخصيات ، لتواجه نفسها والشيء المتصارع معه ، ثم تبحث عن حل لتلك الأزمة أو تحاول الخروج من هذا الصراع .

ونوعية الصراع يجب أن تتوافق وطبيعة الشخصية ، حتى يكون الصراع حادًا ، ويلقي من الأبعاد والمعاني ما يبرزه بصورة واضحة جلية إلى الوجود .

ويتبادر سؤال إلى الذهن : هل نوعية الصراع هي التي تحدد أمزجة الشخصيات أم أمزجة الشخصيات هي التي تحدد نوعية الصراع في القصة ؟

وعلى كل فيجب أن يكون هناك توافق ما بين نوعية الشخصية وتكوينها النفسي والمزاجي وفلسفتها ونوعية الصراع ، وإلا سيفقد حركته وتصاعده نحو الذروة ، ولن تتبلور حدة الأزمة على امتداد القصة ، وإن حدث هذا فستصبح الشخصية مطموسة الملامح والسمات ، ليست لها أي تميز أو تفرد .

والتوافق ما بين نوعية الصراع ونفسية الشخصية تجده – على سبيل المثال – وليس الحصر – في (عطيل) لشكسبير ، فالصراع كان من أجل الشرف ، ولا يعتز بالشرف ويغير تلك الغيرة القاتلة مقترنة بالدم سوى العربي ، أو من تجري في عروقه الدماء العربية ، لذلكنجد شكسبير يختار لدراميته شخصية عربية مغربية ليتصاعد الصراع متوافقا مع نوعية الشخصية ، ليصل إلى ذروته متمثلاً في قتل (عطيل) محبوبته (ديدمونة) ، كذلك في رواية (قنديل أم هاشم) ليحي حقي فالرواية عبارة عن صراع ضد الجهل ، المادية العلمية ضد روحانية الشرق والشخصية التي اختارها (يحي حقي)

لهذا الصراع شخصية تلقت تعليما راقيا وثقافة رفيعة متصلة بأسباب العلم الحديث الذي لا يعترف إلا بالمادة ، والعلة والمعلول ، والسبب والمسبب ،فالروحانية المتمثلة في زيت قنديل (أم هاشم) تتعارض لديه وهذا العلم الذي تلقاه ، والروحانية التي توحي بقدرة زيت القنديل أن يشفي العمى ، تتعارض مع قوانين الطبيعة والمنطق اللذين هما قوام تفكير الشخصية الرئيسية .

وقرار نهاية أو حسم الصراع لابد وأن يكون بيد الشخصية موضوع الصراع وأن يكون نابعًا من تفكيرها ومكونات نفسيتها ، لا تتدخل قوة خارجية لتنهي الصراع لصالح الشخصية أو لغير صالحها ، لنه بذلك يكون صراعا أجوف ليس له أي معنى ، وألاَّ تنهي الشخصية الصراع من خلال هروبها من أن تصدر قرار حل أزمة مصيرها أو وجودها ... فإذا حدث هذا يكون الصراع مستنفدا لأغراضه ، أو قل هو صراع مجهض ، لم يعط له حقه حتى يظهر معدن الشخصية ، أو يظهر ما يختفي في داخلها من مشاعر وأحاسيس لا تظهر إلاَّ إذا تعرضت الشخصية لنار الصراع وشدة أوزاره .

والصراع في قصص المازني مجهض لا يصل إلى نهايته ، وترى الشخصية تخاف هذا الصراع ، فيه دائما في هروب ، مثل الصراع في (إبراهيم الكاتب) أو أن الشخصية تنتظر من قوة خارجية أن تتحمل عنها نار الصراع وتتحمل عنها أيضا قرار إصدار حسم الصراع مثلما هو حادص في (ثلاثة رجال وامرأة) .

أو قد لا تجد هنالك صراع وإن وجد فهو أجوف ، لا عمق ولا بعد له مثل(إبراهيم الثاني)و(ميدو وشركاه)و(عود على بدء) .

الصراع في (إبراهيم الكاتب) والبحث عن صياغة للوجود

تبدأ القصة بزيارة يقوم بها (إبراهيم الكاتب) لأقاربه في قرية من قرى مصر ، وأحداث القصة تبدأ في بيت خالته (نجية) وزوجها الشيخ (على) ، وتعيش مع (نجية) أختاها (شوشو) و (سميحة) . ونعرف عن (إبراهيم) أنه كان متزوجا من قبل وتوفيت زوجه تاركه له ولدا ، وقد قضى قبل زيارته للقرية حينا من الزمن مريضا في المستشفى ، أما سبب زيارته لأقاربه ، فيخبر به (شوشو) بعد أن ألحت عليه تستخبره عما حدث بالمستشفى ، حينما فهمت أنها ذكرى تؤلمه على حد قوله ، **تسأله (شوشو)** :

- إبراهيم ، ابن خالتي ! مالك ؟ ما تتكلم ! لست أفهم !
- ربما كان خيرًا ألا تفهمي ؟

فأدارت إليه وجهها وقالت :

- ولكني لا استطيع أن أراك هكذا ! ألست بنت خالتك ؟ أم أنت تستصغرني ؟
- كلا يا شوشو .
- قل لي إذن ولا تدعني أتألم من أجلك هكذا بسبب جهلي ما يؤلمك .
- ماذا أقول ؟ لقد دخلت المستشفى لأتداوى من مرض فشفيت ولكني خرجت بمرض جديد شر ما فيه أنه لا طبيب له إلاَّ .
- إلاَّ من ؟ قل اسرع !
- لا اقوى على أكثر من هذا يا شوشو . بل أقول أني ما أتيت إلى هنا إلاَّ لتداوى ولكن بلا جدوى على ما يظهر .
- فجرى ببال شوشو خاطر لمحت إليه ومنعها الحياء والأدب والمحافظة على كرامة ابن خالتها أن تفصح عنه وجعلت تتمتم :
- أ.... سامحنى ولكني أأنت في حاجة إلى .....ما

فالتفت إليها بسرعة وقد ادرك غرضها ولم يدعها تتم الكلمة وصاح وقد فاضت نفسه بالإحساس المكتوم .

- يا بلهاء .

وانطلق هاربا من الغرفة . وخلفها واقفة مبهوتة واجمة تحملق في أثره وفمها مفتوح من الدهشة حتى كأ نما أحالها بصيحته تمثالا للبلاهة) .

إذن سبب زيارته هي هروبه من حب (ماري) التي قامت على تمريضه أثناء وجوده بالمستشفى ، والتي نشأ بينه وبينها علاقة من نوع ما ، وقد أتى إلى القرية ليتداوى .

أما لماذا ترك (ماري) بعد أن قامت بينهما تلك العلاقة لا سيما وأنهما يتشابهان في كثير من أمورهما ؟ في صفحة (٢٤) : (وشاءت المقادير أن يتشابها فيما وقع لهما ، فهو فقد زوجته وهي فقدت بعلها ، وكل من القعيدين خلفا وراءه طفلا ، وفي كلتا النفسين ذلك الحنين المخنوق) .

أما سبب الانفصال بين إبراهيم وماري ، فيوضحه في صفح (٢٥): (واستمرت العلاقة بينهما بعد أن بارح المستشفى إلى بيته ، وكثرت المحادثات بينهما بالتليفون والمقابلات ، غير ان الإرادة التي وهنت مع المرض ، عادت مع الصحة ففطن إبراهيم إلى ما في علاقتهما من الحرج ، وأدرك أن الأمر يوشك أن ينقلب مشكلا ، ورأى انه لا يستطيع أن يرضاها زوجة ، وأنها تطمح فيما هو أسمى من مرتبة الخليلة ، وهبها لم تطمح فإن ذلك لا يحل مشكلة حياته ، ولا ينيله مآربه ولا يبلغه ما يتمنى من السكون إلى الحب المنزلي الذي لا يعدل به شيئا) .

فقد أعطانا إبراهيم مبررا لنشوء تلك العلاقة ، وهي ضعف إرادته أثناء مرضه حتى إذا شفي وعادت إليه الإرادة ، زال مبرر وجود العلاقة ، وقد شعر بالحرج ن فهو لا يستطيع أن يرضاها زوجة ، وإن لم يوضح لنا سبب ذلك ، ولا يرضى بها خليلة ، لأنه لا يعدل عن الحب المنزلي ، أي الحياة

الزوجية الهادئة . ونلاحظ أن المتحكم والمتحدث هنا هو العقل ، لأن نفسه ما زالت تصبو إلى (ماري) وإلاَّ لم الهروب ؟

وتبدأ مشكلة إبراهيم هنا ، هاربا من وجود لا يرضاه ، ولا يرضي عنه ، باحثا عن وجود يصبو إليه وإن كان في طي الغيب ، وإن كان في الوجود المهروب منه ما يبحث عنه ، ولكنه عسى أن يجد في البحث بغيته ، أو هو يسمو إلى الأفضل والأحسن ، فتلك – ماري – تزوجت وأنجبت فلعل الأقدار تقيض له ما لم تتزوج ولم تنجب ، أو هو يعشق البحث الدؤب عن الوجود الذي يطمئن إليه وتسكن النفس له ، فبداية القصة تبدأ بالبحث ، والنفس الباحثة يضطرب فيها شعور القلق ممتزج بالتوتر والتوقع والاستشراف ، يبحث عن منوال لينسج عليه وجوده ويجده في شوشو .

ونشعر هنا بأزمة الشخصيات ، تلك الأزمة التي يشعر بها الإنسان حينما يكتشف أن هناك قوة أخرى تصنع وتشكل وجوده ، وأنه مجبر على قبول هذا الوجود في نهاية الأمر ، ويشعر أنه أدنى مرتبة من الحشرات الدنيا التي تشكل وجودها وعالمها بنفسها ، وتلك القوى هى العادات والتقاليد والعرف والقونين التي تتحكم فينا ، وتتولى مهمى صنع حياتنا ، كي تجنبنا عناء التعب !

فالصراع هنا – كما سنعرف – ضد وجود قد شُكل من قبل ، بمواصفات جاهزة ، والشخصية ترفض مثل هذا الوجود (المحفوظ) في علب الملل والسأم وتبحث عن وجود آخر ، هو الوحيد الذي يقوم بصنعه وتشكيله .

وحينما أحست (شوشو) بقوة إلحاح عاطفة الحب على نفسها وجسدها وأعصابها ، أرادت أن تصارح إبراهيم بتلك العاطفة ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ فجبال التقاليد الراسخة وصخورها العتيقة تمنعها بمصارحة إبراهيم وهي متيقنة من حب إبراهيم لها ، ولكن حبال وخيوط التقاليد المبرمة تعقد لسانه أن يبوح لها بحبه هو الآخر . **تقول في صفحة (٧٤)** : (وهالها أن تشعر بالوحدة في هذا العالم الزاخر ، وأن ترى إلى أي حد أرضاها حبها

لإبراهيم مستفردة ، وفي هذه اللحظة فقد أدركت أن حولها أربعة جدران سميكة ، وأن هذه الجدران الأربعة – من ورائها ومن قدامها وعن يمينهاوعن شمالها – محيطة بها مسدودة عليها حيثما تكون من الأرض . لماذا خلقها الله في مصر ؟؟لماذا يضرب عليها الشقاء ؟ حتى إبراهيم لا يسعها أن تذهب إليه **وتقول له** : (إني أحبك) كلا! هذا أيضا مستحيل . لأن التقاليد تأبى ذلك وأنها لواثقة الآن أن إبراهيم يحبها وأنه يتمنى لو استطاع أن يعلن لها حبه ، ولكنه مثلها لا تقيد لسانه التقاليد والآداب ، وما أدراها ؟ لعله الآن – في هذه اللحظة بعينها – تؤرقه الحيرة والكمد إلاَّ أن في هذا العزاء لقلبها) .

فتلك نفس تحاول أن تنطلق ولكنها مقيدة بسلاسل من عادات وتقاليد إلى أرض عالم لا تستطيع أن تشعر بين جدرانه بذاتها ، بل هذا العالم بقوانينه يحرم عليها مشاعرها وأحاسيسها التي بغرها لا تشعر بذاتها ، فهو عالم يؤد أعز ما يملكه الإنسان ، لذلك تشعر بالغربة ، وتدفعها آلام تلك الغربة إلى رفض العالم والبحث عن عالم آخر ، أم أن حتى هذا البحث تحرمه عليها قوانين هذا الوجود !

ويشعر إبراهيم بما تشعر به شوشو ، ويترجم أزمته في صفحة (٧٨) : (لقد تحول حبه لشوشو من اخوي إلى جنس ، ذلك ما لاشك فيه ، فهل له أن يأمل أن يفوز بها وأن يقنع أهلها أن يزوجوه منها ؟ كلا ! فإن في الطريق تلك البنت الخبيثة التي لا تحجم عن كل شر إذا هم أهلها أن يقدموا عليها شوشو عليها ، وستكون النتيجة أن تشقى شوشو وهي ستشفى على الحالين ن ولكن أهون الشرين أن تيأس من الآن ، والعاطفة غضة لم يستفحل أمرها ولم يستعص علاجها ، وهو ؟ أوه . ليست هذه بأول عاطفة احتاج أنيخنقها ! وأنه لعذاب وانه ليحس كأنما يقتلع أحشاءه مع العاطفة التي يحاول أن ينتزعها من قلبه) .

ولكن لماذا دأب إبراهيم على خنق عواطفه ؟

أذلك لأن أو المكان الذي يعيش فيه أضيق من أن يحترم مشاعر وأحاسيس الإنسان ؟

وفي هذا المكان لابد للإنسان أن يتنازل عن بعضه كي يسعه المكان ، وإلاَّ ليبحث عن مكان آخر يجد فيه متسعا لإحاسيسه ومشاعره ... عالم لا يحجر على الإنسان ويقيده بقيود من الجهل والغباء .

وتلتقي النفسان – إبراهيم وشوشو – في حديث يكشف عن حدة هذا الصراع وإن كان في جانب إبراهيم أشق وأحد ؛ لأنه أكبر سنا وأكثر تجربة ن وهو المسؤول عن الحد الذي وصلت إليه شوشو ... **يقول في صفحة (٩٠) :** (إني أكبرمنك سنا وأكثر تجارب ، ولم يكن من حقي أن أدع الأمر بيننا يبلغ هذا الحد ن وعلى أن لك على صغرك وغضارة سنك وقلة خبرتك ، من الذكاء ما يعينك على التقدير السديد والنظر السليم وأني لأعلم كما تعلمين أن بيننا ....تفاهمًا مباركًا .. ولست أعتقد أن بين اثنين سوانا مثل هذا التعاطف الطبيعي كلانا خلق لصاحبه ، ولكن لهذه الأمور مقتضياتها مستلزمات لا مفر منها نولا معدى عنها ،إذا لم يكن الزواج هو المصير فليس يجوز أن ينشأ بيننا أو يظل مثل هذا التفاهم ، إنه تحد للطبيعة : أن يتحاب اثنان ثم لا شيء . الشأن شأننا في الحقيقة والأمر لا يعني سوانا ولكن الأيام مقلوبة والعادات والتقاليد سخيفة منافية للعقل والواجب . صارمة أيضا . ونحن نوشك أن نحدث في سورها ثغرة ..أن نقتحم الحصن المنيع الذي بناه الجهل . ولست أراك تقوين على ذلك ولا أحسبني خيرا منك . ينبغي أن نفتح عيوننا . عاجلا أو آجلا أنا أوثر أن يكون ذلك آجلا . وهو أحلى وأعذب وأندى على النفس ، ولكنه لن يكون إلا حلما مهما طال . ونحن ننسى أحيانا مصير كل شيء لا يساير التيار ولا يوافق الزمن ولا يطابق روح الأيام وإذا كان لابد من التحطيم على صخور التقاليد فليكن ذلك ... اليوم) .

الانكسار في شخصية إبراهيم :

والصراع هنا يكتسب لونا خاصا من خلال شخصية إبراهيم ، فهو يتعامل مع خطوط وجوده تعاملا عقلانيا ومنطقيا مع عالم يعرفه أنه لا يحكمه عقل ولا منطق ، فإن لم يكن زواجا فلا يجب أن ينشأ بينه وبين شوشو أي علاقة من أي نوع ما ، ويعي أن هناك صدام وصلاع بينه وبين هذا العالم ، ولكنه يرى نفسه دون هذاالصراع ودون هذا الجهاد والكفاح ... فلا هي تستطيع الصمود لتحطيم هذا الوجود الذي يعارض رغبتها وإعادة صياغة وجود يحترم أول ما يحترم مشاعر الإنسان ، ما دامت قائمة على أساس من الحب ، ولا هو يستطيع ذلك وهولا يواجه الوجود مواجهة صريحة بل يخضع له ويؤمن بحكمه ويوافق على مقدراته ليس هذا فحسب ن بل يأخذ على عاتقه أن يمحي أي إرادة لدى شوشو تدفعها للتمسك بحبه ، ومقاومة تلك العادات والتقاليد ، **تقول شوشو** : (...لا أقدر ....لا أقدر مرة واحدة ...كلا لا أقدر) .

فمسح لها شعرها في رفق وقال : (لابد ... وغنك تعلمين ذلك أن نكسرقلبينا) .

ويظل يحاول اقناعها ، حتى تقتنع بالتخلي عن حبها له والتسليم لقوة العادات والتقاليد ...وهو إن أدار الأمر في ذهنه أو كان يميل إلى احتمال قوة الصراع والصعود معه حتى الذروة لكان آثر الصراع وإن آب بالفشل ، لأنه في الحالتين سيترك شوشو ، بل قد يظفر بها في نهاية الصراع ضد العادات والتقاليد وضد رغبة ابنة خالته (نجية) وضد إلحاح وإصرار (سميحة) للتزوج به ، وضد رغبة الدكتور (محمود) للتزوج من شوشو ..ولكنه لا يقدر على الصراع ويؤد – متعمدا – كل شعور وإحساس يضفي إلى وجوده معنى ساميا .

ويلخص إبراهيم انكساره وهروبه من مواجهة ما يعترض طريقه ، في صفحة (١١٢) يقول : (ونهض إبراهيم يتمشى ، وراح يتصور المستقبل المظلم الذي قسم لشوشو ن سيزوجونها يوما ما واحدًا لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تحبه ، واحدًا كالدكتور مثلا فلا تجرؤ أن ترفض وهبها استطاعت أن تجترئ وحبست نفسها عن التزوج ، فإن هذا لا يكون أقل قسوة ، ولماذا كل هذا ؟ لنه هو – إبراهيم – أقنطها ودعاها إلى اليأس وزينه لها على الرغم من حبها له ومن حبه لها . فهل من حقه هذا ؟ هل تجيز رجولته له أن يتخلى عنها ويدعها تحترق – تحترق في الجحيم الذي اضرمه بيده ثم قذف بها فيه ؟ الا يشعر أنه مسئول عن مصيرها هذا ؟ بلى وإن تبعته لعظيمة وهبه غير مسئول فإن عليه واجبا لنفسه ، فلماذا يسمح لسميحه أن تعترض طريقه وتاخذ عليه متوججهه ؟ ما سميحة ؟ فتاة ؟ ومن اجلها يدع نفسه يشقى ؟ ومن أجلها يترك شوشو تعاني الغصص ؟

ومن أجلها يقف هو وشوشو متقابلين ولكنهما محرومان معذبان ؟ لا يفصلهما شيء غير ان أيديهما لا ترتفع ، وشفاهما لا تلتقي ، وأنفاسهما الحارة لا تبرد ؟ كلاهما يجب أن يصرع رغبته في الحياة ، كلاهما ينبغي أن يغيب – وهو حي جدا – في فراغ الموت المظلم – يجف ويذوي ويرفض الماء الذي يرويه ويقتات سم الألم ، وتذبل شوشو ويبيض شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق وتغور عيناها وتعمق الكهوف حولها وتنقلب تغريداتها نعيبا وفتنة صوتها حشرجة لا سميحة تشاء هذا ؟؟)

إنه تسليم لا تشوبه أي سمة من سمات المقاومة والاعتراض ، تسليم يشبه تسليم مسلوبي الإرادة أو الأموات الذين ليس بهم إرادة الحياة ، تلك الإرادة التي تجاهد وتكافح وتصارع لتحقق وجودها حتى وإن لم يكلل جهادها بنجاح ، ففي فشلها – بعد الصراع والكفاح – إخراج لما كان يضطرب في النفس ، مع أنه يعلم أن خضوعه واستسلامه هذا لن يجني ثماره المرة هو فقط ، بل ستشاركه في هذا تلك النفس التي أحبها في إخلاص وقوة (شوشو) ،

ونلاحظ هنا أن الانكسار في شخصية إبراهيم ألقى بظلاله على شخصية أخرى ، فلت يتحمل وحده عاقبة رجوعه هذا بل شوشو أيضا ، وإن كانت بنفسها شيئا من المقاومة إلاَّ أنه استطاع أن يقنعها بنظرته إلى الأمور ، أو يطبعها بطبعه السلبي ، أو قد يكون تبرير مسلك إبراهيم هذا أنه لا يرى في الوجود ما يستدعي مثل هذا الجهاد والكفاح ، ولكن إذا كان ذلك كذلك فهو شخصية مطموسة الملامح ليس لها أي لون أو تميز وتستحق – بحق – الرثاء .

وهذا الموقف – موقف إبراهيم – يستدعي سمة من سمات المؤلف وهي سمة السخرية ، فيسارع بها ليثري الموقف ، فيلوم إبراهيم نفسه على هذا التخاذل والضعف فيقول : (لأني أنا ضعيف مهين كغيري من الناس الذين احتقرهم من أعماق قلبي ،لأني لست من طراز بروميثيوس؟لأني لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة شخصية أنانية ؟ (أنا) دائما ، و (أنا) في كل شيء- بحسبي أن فزت منها بقبلة ! يا لها من نعمة ! وما أعظم بطولتي ! ثم أدعها تغرق في اللجة الطامية التي دفعتها إليها ! اتركها تحترق في النار التي اوقدتها وعجزت عن إخمادها . كلا كلا لن يكون هذا) .

وهذا لا يزيد عن كونه سخرية من نفسه فقط ، وليس رفضا لواقعه ، وهي هنا سلبية لا تدفعه إلى تبديل موقفه من الوجود ، بقدر ما تدفعه إلى الأكثار من تأمل مرارة وقتامة هذا الوجود والواقع .

وحينما يخبر الشيخ على زوجه (نجية) برغبة إبراهيم التزوج من شوشو ترفض بإباء حتى ولو (ملأ حجرها ذهبا) على حد قولها ، لأن هناك سميحة أما إذا شاء أن يتزوج سميحة فهي له بلا مهر وبلا قيد أو شرط .

وإن نظرنا إلى الأمور فهي مناسبة لأن يدخل إبراهيم في جهاد لينال شوشو لاسيما وان الشيخ (على) وشوشو ، سوف يعاوناه في جهاده هذا ، ولكنه كما ترك (ماري) من قبل ن ترك شوشو أيضا ن فهو لا يقدر على الصمود أو الصراع ، واخذ يبحث عن وجود آخر لا ندري ما سماته ولا

أوصافه ولكن أين هذا الوجود الذي لا يقتضي من الإنسان الدخول في صراع وجهاد من أجل تحقيق هذا الوجود ؟

وعلل هروبه إلى الأقصر بأنه جرح في كبريائه ، وطعن في كرامته ، وتلك حجة ضعيفة جدا لا تبرر هروبه ، لأنه قبل أن تقول (نجية) كلمتها كان إبراهيم يوطن نفسه على الانسلاخ من الصراع ضد (نجية) أو ضد العادات والتقاليد ، فقد اتخذ إبراهيم من كلمة (نجية) ورفضها ستارا يداري به حقيقة نفسه ، لأنه ضعيف ومتخاذل أمام التزامه ومسئوليته لشوشو .

ويذهب إبراهيم إلى الأقصر ، وهناك يقابل (ليلى) وتنشأ علاقة حب بينهما ومن عجيب الأمر أنك تشعر بإبراهيم مختلف عن إبراهيم الذي كان مع شوشو ذلك الذي نصح شوشو أن تدفن حبها وتنسى كل شيء ، إبراهيم الذي ترك شوشو لمجرد كلمة قالتها أختها (سميحة) أو كان يظن أن شوشو ستقدم إليه على صحن من ذهب ؟

ترى إبراهيم وهو مع ليلى شخصا مختلفا كل الاختلاف عنه عما كان مع شوشو ، أهو انفصام في الشخصية أم التناقض مع النفس أم أن إبراهيم مع ليلى قد استفاد من أخطاء إبراهيم مع شوشو ، اقرأ معي ما يقوله إبراهيم لليلى في صفحة (١٩٢)وقارن بينه وبين ما كان يقوله إبراهيم لشوشو : (إنك تخجلين أن تطيعي رغباتك ، وليس خجلك لأني معك وإني أرى ما تفعلين ، فلو كنت وحدك لما اجترأت أن تطلقي لنفسك العنان وأن تفعلي ما يهتف به جسمك ، لأن كغيرك – مثلي ومثل الناس جميعا – تؤثرين أن توهمي نفسك أنك فوق الحياة ، وفوق دواعيها ، وإن كنت تعلمين في أعمق أعماق سريرتك أنك لست إلاَّ مظهرًا ضئيلاً وإن كانت مقاومة منك لطبيعتها وسننها الخالدة وأحكامها المبرمة التي لا مفر منها مجلبة للشقاء والألم . لماذا تحسين الخجل والعار من رغباتك الطبيعية ؟ ؟

لماذا تخفينها ؟ إن القوى المحبوسة في النفس تتطلب منفذا والجسم ينشد السرور واللذة ويتعذب من جراء صده وحرمانه) .

وكل ما يستطيع غبراهيم عمله أن يحلم ... والحلم لديه تجسيد للمستحيل بينما الحلم هو دافع للإنسان أن يحاول تحقيق هذا الحلم وإبرازه للوجود ، الحلم مدد وشحن لطاقات . الإنسان لنحت الحلم من صخور المستحيل ، وجذبه إلى اودية الإمكان الخضراء ، وهذا يظهر لنا إبراهيم شخصية مسطحة ليس لها أي عمق ، شخصية هاربة دوما لا قدرة لها على خلق وجودها ، وكل ما تفعله أن تخلق ولكن في الحلم وفي الخيال ، وليس هو بالشخصية الذاهلة عن ذاته ، ولكن يعيها ويعي هذا القصور ، وذاك الضعف الكائن في ذاته ، لذلك نراه يأسف على تلك النفس العاجزة .

ولكن أهذا العجز عن الصراع راجع إلى ضعف في الشخصية أم عن وعي كامل بحقيقة الوجود ، وان الإنسان سيان حقق ما يريده أم لم يحققه ، ففي النهاية كل الأضداد متساوية كما يقول الدكتور (محمد مندور) في كتابه (نماذج بشرية) في صفحة (٧٩)، **يقول :** (ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العضل حتى أصبح يحذرها في يقظة مستمرة فلا يستجيب لندائها أو يحاط به) ، ولكن الدكتور (مندور) فاته إن إبراهيم رغما عنه يستجيب لنداء الحياة وهواتفها ولكن استجابة العاجز المسلوب الإرادة ، **وإلاَّ لم خايله الحلم كما يقول لليلى في صفحة (١٩٣)** : عصر يستطيع فيه أن يباشر حريته التي لا تعتدي على حرية سواه ، عصر يستقطر فيه ويعتصر من الحياة كل متعها في جراة وحرية) .

فسألته : (ولكن كيف يكون ذلك ، أنرجع إلى الهمجية الأولى ؟) .

فقال : (من قال ذلك ؟ كلا . ذلك كان عصرًا سخيفًا ، ولم يكن الإنسان فيه يقدر حريته أو يعرف قيمتها أو حدودها فكانت الحرية فوضى وكان هو لا يستحق التي لا يفهمها ولا يحترمها ولا يحسن الاستمتاع بها ، وعصرنا الحاضر أيضا سخيف ، لأن التقاليد الخاطئة تتحكم في العقل تحكمها في الجسم ، ولأنه تنقصه الهمة والذكاء والرشد ، وإنما أحلم بعصر لا يستحي فيه

الإنسان من نفسه ومن غرائزه المهذبة ومن مطالب هذه الغرائز ، لا يخجل ان يرمي طربوشه إذا شاء ذلك ويمشي عاري الراس إذا أحس ان ذلك أكفل بإشعاره بالغبطة والفرح ، ولا أن يثب في الطرقات ويرقص في الشارع أو يجلس بثيابه الأنيقة على الحجارة أو التراب أذا اشتهى هذا ، لأن الوثب والرقص والجلوس على التراب لا يضير أحدًا) .

ومواقف إبراهيم من الوجود ومن الحياة – هذا العجز الإرادي – يتضح حينما يتذكر أمه في لحظات مرضه ، وإيمانه أن الإنسان يستطيع أن ينتصر على المرض ليس من خلال الاصغاء إلى أوامر طبيبه وإنما بالاستخفاف به وبالاستهانة وبعدم الاكتراث ، **يقول في صفحة (٢٢٦)** : (ولو أن أمه كانت هي المريضة لغلبت المرض بقدرتها المدهشة على الاستخفاف به ، أو إذا شئت فقل بعجزها عن إدراك حقيقة ومدى خطورته – لا بل بقوة الاستخفاف بالاستهانة ، بالإيمان القوي الذي يجعل النفس تتلقي كل ما يصيبها باطمئنان وابتسام وقلة مبالاة بما يكون ، وبثقة بأن المصير خير على التحقيق ، وانه لا موجب للإكتراث) .

وهذا يفسر الكثير من تصرفات إبراهيم ومواقفه ، فإن ما حدث في الوجود كان لابد حادث ، سواء اعترض أم لم يعترض فما الداعي إلى بذل الجهد أو الصراع أو الكفاح ...ولكن نسى إبراهيم أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم الغيب ، وهذا الجهل من الإنسان يدفعه إلى أن يصارع فإذا تغيرت الأمور وسارت على وفق ما يبغي من خلال جهاده فقد نجح ، أما إذا لم تسايره الأمور وخاب مسعاه فقد عمل ما عليه .

وكما ترك إبراهيم (ماري) وترك (شوشو) ترك أيضا (ليلى) . فحينما قرأت ليلى تلك الرسائل التي أرسلتها شوشو من خلال حديثها مع الشيخ (على) حينما حضر هو والدكتور (محمود) إلى الأقصر للاطمئنان على إبراهيم ، عرفت ما بين إبراهيم وشوشو ، فآثرت أن تخلي المكان لشوشو ، مع أن في

أحشائها طفلا من غبراهيم ،ولم ترد أنتخبره بذلك كي لا يكون بمثابة إجبار منها له كي يتزوج بها ،ولكن كيفف لليلي أن تترك إبراهيم بدون سبب ، حتى بالنسبة له ؟

فاختلقت له أن لها ماضيا مشينا ، فآثر الفراق بدون إبداء أي اعتراض أو تمسك بليلي ، وتنتهي قصة إبراهيم مع ليلى كما انتهت من قبل مع (ماري) ومع (شوشو) التي تزوجت – فيما بعد – من الدكتور (محمود) ، ويبقى إبراهيم وحيدًا منفردًا .

النسج المهلهل في إبراهيم الثاني

جودة القصة تأتي من تلك الارتباطات الوثيقة بين شخصياتها ، فتلك الشخصيات مثل اعمدة الخرسانة التي يعتمد عليها في إقامة البناء ، وتلك العمدة وسيلة لغاية ، ولا تبنى لأننا مفتونون بها ، وإلاَّ أصبحت كالمسلات الفرعونية غاية في حد ذاتها ، ومع وجود تلك الأعمدة وهي تؤدي دورها في الخفاء ومن الداخل ليظهر لي البناء ككل متكامل في النهاية .

والقصة كالكائن الحي يغذي بعضه بعضا ، ولكن لا يعيش بعضه عالة على البعض الآخر ، فكل الأعضاء والأجزاء تعمل جاهدة لتحقيق هدف واحد ، هو إنماء الجسم وإعطاء صورته الكاملة .

أما قصة (إبراهيم الثاني) فلا تشعر – بعد قراءتها - أنها كائن متكامل بل هي شيء لم تتوافر له أسباب الاكتمال والاستواء والتماسك ، فلا رابط بين اجزائه ، وتلك الأجزاء مصابة بالجمود والشلل الذي يمنعها من النمو والاستواء .

والقصة تقع في أربعة فصول ، والرابط الوحيد بين تلك الشخصيات هي الشخصيتان الرئيسيتان إبراهيم وزوجه (فتحية) ، وهاتان الشخصيتان لا تلمح – على امتداد القصة – عليهما أي سمة من سمات التغير أوالتطور أو النمو وأهم عنصر الذي يميز الفن القصصي ويعطيه تلك المكانة العالية بين الفنون مفقود وهو عنصر الحركة الذي يمنحها الكثير من التشويق والإثارة .

ويعرض الفصل الأول علاقة (إبراهيم) المتزوج ، بتلك الفتاة التي تجد فيه الرجل الزين الوقور لتطمئن وتسكن إليه بدون خوف أو وجل ، ويجد إبراهيم فيها ما يجدد شبابه ويقطع تلك النغمة الرتيبة ، ويبدد ظلال الملل والسأم بينه وبين زوجه (فتحية) .

وفي الفصل الثاني يعقده كله ليبين كيف تم زواجه من (فتحية) .

أما في الفصل الثالث فتظهر شخصية لم يكن لها أي وجود او صلة بالشخصيات أو الأحداث التي كانت في الفصل الأول أو الثاني ، وإنما كما ظهرت في الفصل الثالث تختفي في نهايته ، وهي شخصية (عايدة) والتي تجد في إبراهيم أذنا صاغية لتبث ألآمها وأشجانها ، ويعرض لنا ظروف تلك الشخصية ، فقد كانت لها أخت متسلطة طمعت في مال أمها ، وأرادت الاستحواذ عليه دونا عن (عايدة) وكانت أمها تدخره لتامين مستقبل عايدة التي لم تكن قد تزوجت بعد واصيبت عايدة بداء في عينيها كادت معه أن تفقد بصرها ، وولد كل هذا شعورها بالنقص وضعف أملها في أن تتزوج فلا مال لديها ولا جمال ، ولا نسب ، ورأت فارس أحلامها في ابن عمها ، ففكرت أنها لو أسلست له العنان ولم تضن عليه بما يطلبه الرجل من المراة لفازت به ، فمنحته ما طلب ، ولكنه اخلف ظنها وبعد ان قضى وطره هجرها بلا رجعة ، ولم يبق لها من الدنيا غير إبراهيم ، التي ساقته الأقدار لها ولكن إبراهيم متزوج ولا يرتضي بديلا عن زوجه ، إذن فالطريق أمامها مسدود ، وشيئا فشيئا تذبل عايدة وتجف ويسلمها كل هذا إلى الموت .

أما في الفصل الرابع فيعود القاص إلى أحداث الفصل الأول ليستكمل حكايته مع (ميمي) والتي بدأها في الفصل الأول وأنهاها في الفصل الرابع . ولا أدري لم أخر ما كان حقه التقديم ، فالعلاقة بين أحداث الفصل الأول والرابع علاقة تتابع واتصال ؟

وإن أردنا أن نصنف (إبراهيم الثاني) إلى أي نوع من أنواع الكتابات فهي قريبة من أدب الاعتراف ولا تزد عن ذلك .

الحب والوجود المفقود في إبراهيم الثاني :

تنتاب الإنسان وهو في مرحلة عمرية معينة أحاسيس توحي له أنه قد آن الآوان كي ينفض يده من الحياة والوجود .

وهذا الحكم لا يصدر من خارج الإنسان ، وإنما من داخله ن إنه لم يعد قادرًا على استساغة الوجود أو استمرائه ، فقد دخل في طور الشيخوخة ، ويجب أن يلتزم بما تلزمه به تلك المرحلة ، وذلك الإحساس يتحول مع الإلحاح الدائب إلى وسواس يقض على الإنسان مضجعه ، ويسمم خواطره وأفكاره ، وللإنسان منطقة دفاع ذاتي ، لذلك نجده يسارع ليكذب هذا الوسواس ، ويحاول أن يثبت أنه مازال في عنفوان الشباب ، وأنه قادر على ممارسة حياته كما كان يمارسها وقت أن كان شابا ، وأنه يستمرأ وجوده بكل قوة ، ومازال الوجود يحمل له في طياته من الطاقات ما يضيف إلى حياته لونا وطعما وأريجا ، والإنسان لا يجد وسيلة إلى تنفيذ ذلك سوى المرأة ،تعاونه وتعضده كي يخرس أصوات هذا الوسواس ، وينفي هذا الإيحاء ، وفي اثناء ذلك يرتد الرجل إلى طور المراهقة مرة أخرى من خلال اهتمامه بالحب والجنس الآخر ، ومحاولة غض البصر عن علاقته الثابتة بزوجته تلك العلاقة التي يمقتها ؛ لأنها تحمل له من الرتابة والملل والتعود ما يقوي في نفسه الإحساس بالشيخوخة وينشط الوسواس .

فهو يبحث عمن يجدد له إحساسه بالحياة ، عمن ينشط كيانه للاستقبال الصافي النقي لإيقاعات الوجود حوله ،يقول إبراهيم الثاني عن نفسه في صفحة (٧) (وكان في العقد الخامس من عمره ، ولكنه كان ذا وسواس وكان أخوف ما يخاف أن يكون قد شيخ أو أشرف على الشيخوخة ، ولم يكن لهذا الوهم ما يسوغه سوى إرباء إحساسه بالحياة على القدر الذي تنسى به الراحة فيها) .

وكانت زوجه تحس به وبما ينتابه من هذا الإحساس ، فكانت تبذل من جانبها ما يساعده على الوقوف ضد هذا الإحساس:(وكانت امرأته ذكية رحيبة أفق النفس بعيدة مطارح العين ، وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له وتحرص على أن تحيطه بجو من الشباب وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلها ما ينعشه وينشطه ، ويميط عنه اذى الإحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة) .

وإن كان هذا النوع من الزوجات نادر الوجود ، فلا تجد زوجة تحرص على أن توفر لزوجها من يشاركها في قلب وفكر زوجها . فغن المرأة أحرص ما تكون على أن تكون الوحيدة المتربعة على قلب وعقل زوجها ، ولكن كانت زوجه(فتحية) تفعل **ذلك لأنه :** (لم تكن تخشى عليه الفتنة فقد كانت تعرفه رزينا حكيما رحيبا محتشما) .

ولكن ألا يكفي إبراهيم حب زوجه له ؟ لا سيما وإن هناك إلتقاء في الطباع والمشارب ، وهذا الذي جعله يغير من صديقه (حامد) ذلك الذي كان سيتزوج (فتحية) وطبع (فتحية) هو الذي جعل إبراهيم يعرض عن زواج (كريمة) ويرغب في الزواج من فتحية ، ولم يكن الوحيد الذي رأى هذا الرأي ، بل صديقه (حامد) رأى مثل هذا التوافق مما جعله يقول – وقد سمعه غبراهيم من طريق خفي –(٣٣) : (إنك خليقة أن تحبي إبراهيم فإنه من هؤلاء الخياليين الذي تعجبين بهم يحلم بدنيا سعيدة حافلة بالخير له ولمن حوله من أهل وإخوان) .

فرغم هذا الالتقاء بين النفسين والكفيل بأن يجعل حياتهما متجددة باستمرار لاسيما وأن(فتحية) تحب إبراهيم حبا صادقا ، إلاَّ إن إبراهيم لا يقنع بحب زوجه له ، لأنه كما يقول في صفحة (٨) :(كان يخشى أن يكون حبها له عادة أو بفضل الذاكرة وتشبثها بما نعمت به منه في شبابهما ن فاشتاق أن تحبه غيرها واشتهى أن يسمع كلمات الحب والإعجاب منفم آخر) .

إذن المر لم يزد عن كونه نوعًا من المراهقة ، أم أن تلك رغبة طبيعية يشعر بها الإنسان إذا ما بلغ تلك السن ،أن يكون محبوبا من غير زوجه، لأن حب الزوجة ليس معقودا بالمرحلة التي يمر بها ، أو تلك الفترة الزمنية الراهنة ، فحب الزوجة قد يكون نابعا من العادة ، أو بما شهدته معه من لذلت ومتع في عصر شبابها لذلك فهي متعلقة به .

ووجد ما يبحث عنه في (ميمي) التي تركت كلية الطب تحت إلحاح والدها والتحقت بدار المعلمات ، وكان قد طلق والدها أمها وتزوج بغيرها ، ولكنه لم يتخل عن تحمل مسئوليتهما المادية .

وتوثقت العلاقة بين (إبراهيم) و (ميمي) ، وإن لم يسترح إبراهيم لهذا الوضع أو لتلك العلاقة ، وإن كانت تمده بما يحتاجه وتملأ عليه وجوده وتثري إحساسه ووجدانه ن يقول في صفحة (٩) : (وكان هذا يسره ويسوؤه ، فأما وجه السرور فذاك أنه وجد فتاة لا ينقصها المعجبون والعشاق ترضي غروره بهذه القناعة وتقوي شعوره بانه مازال كفؤا للحياة ، وإن ما كان يخشاه لم يكن إلا وهما وسواسا أورثه إياهما تلف الأعصاب . وأما ما ساءه – كما قال لها مرارًا – فذاك ان عمر هذه الصلة لا يمكن أن يكون إلاَّ محدودًا ، فإنه أسن منها بأكثر من خمسة عشر عامًا فهي تستقبل الدنيا ، وهو يستدبرها شيئا فشيئا) .

ويشب في صدره صراع لا يكون له أي تأثير إجابي في سلوكه ،فهو مع (ميمي) يشعر بتأنيب الضمير له ، فما ذنب (فتحية) وماذا فعلته حتى يتلهى عنها (بميمي) ، ثم أنهلم يتزوج بها والأيام تمضي ومن الواجب أن تبحث ميمي وهي في تلك السن عمن يكمل مشوار حياتها ، شاب يماثلها في السن والتفكير والطباع . ويحاول إبراهيم أن يقنعها بذلك ولكن تجيبه بقولها (١٣) : (شاب ؟ شاب إيه ؟ ماذا أصنع بالشباب ؟ بالطيش والغرور ؟ إذا حاولت أن أضع له اللجام ، نبا في العنان ، وإذا القيته له جمح ، وأنا الشقية في الحالين ، ثم الأولاد والبيت والطبخ . لا يا سيدي بدري . بدري . كل شيء في أوانه . ثم

ما عيبك أنت ! رجل رزين حكيم مجرب . ولم يذهب شبابك كما لا تفتأ تزعم . أو تحسب أن الشباب سواد الشعر ونضارة الجلد ؟ إنك بنفسك أصبى من ألف شاب وأنا أجد في صحبتك ما لا يعرف الشباب كيف يتيحونه لي ...أن لي كل يوم جديد، متعو افيدها منك ، وقد رفعتني إليك وأخلق بالشباب أن يهبط بي معه) .

وبعد ذلك يحاول إبراهيم إقناع ميمي أن تصلح من شأن قريبها (صادق) المنلوجست إلى أن – وبعد تجارب عديدة وعنيفة – تكلل مساعيها في النهاية بالنجاح وتفلح في إصلاحه ويسلس لها قياده .

أما إبراهيم ، فرغم محاولته تلك – محاولة التقريب بين(ميمي) و (صادق) – فلم يكن ينسى ما يريده من ميمي ، فكان يحرص على أن يكون لديها وأسلوبه في تجدد مستمر ، **فأخشى ما يخشاه هو الملل (٩٩)** : (وكان إبراهيم يحرص على تنويح أحوالها معه ، بل لقد كان يتقي أن يكون كلامه على وتيرة واحدة ، أو نسق لا يتغير وكان يخشى أن تقول لنفسها (إني أعرف ماذا سيقول لي حين يلقاني وبأي كلام سيبدأ حديثه) وكان لهذا يتحرى أن يخلف ظنها ، فيلقاها كل مرة بجديد من القول والاستقبال والاقتراح والمتعة وكان هذا لا يخلو منمشقة وعسر ، ولكنه **كان يهون الأمر على نفسه بقوله** : (إن من الجمود الذي ينبغي أن يتقيه الإنسان أن يجري في حياته مجرى واحد) .

فاخشى ما يخشاه الرتابة والملل ...يريد كل لحظة تمر به أن تكون لها لون خاص لا تشابه اللحظة السابقة عليها ، تحمل له معاني جديدة باستمرار ، فقد سأم من الملل والحياة الرتيبة ، يود أن يكون مثل النحل الذي يتنقل بين الرياض والبساتين ، تهبط على زهرة وترتفع عن زهرة اخرى ،تأخذ شذى تلك وتمتص رحيق هذه ، إنه يبحث عن وجود مفقود وسط بساتين الحب والغرام ..لذلك نجده مع ميمي ثم عايدة ،ومن قبلهما زوجه (فتحية) وهو

نفس السبب الذي جعل إبراهيم الكاتب يحي (شوشو) و (ليلى) ومن قبلهما (ماري) وهذا هو التشابه بين الإبراهميين ، الكاتب والثاني ، إن كلاهما يبحث عن وجود مفقود ، **يقول إبراهيم الكاتب في صفحة (٢٠٦) :**

(ولم يكد إبراهيم قد سلا شوشو ، ولكنه تسلى ولم ينقص حبه لها ، ولكنه تعزى بحب سواها ، وقد ينكر القارئ أن يتسع القلب الواحد لحبين ، غير أن الواقع كان كذلك وعلى أنهما كانا حبين من طرازين متباينين لا يمنع أحدهما الآخر ولا يزاحمه ولا يصعب لذلك أن يعيشا في القلب متجاورينكما يتجاور في القلب حب الوالدين ، وحب البنين وحب الأخوة ،وحب الزوجة وحب الصديق ، حب الأب ، أو حب الفنون ، أو غير ذلك ، وكلها محاب ولكنها مختلفة في مصادرها وآثارها واختلافها هو الذي يوسع لها ضمير الفؤاد) .

إن الذي عليه إبراهيم الثاني – ومن قبله إبراهيم الكاتب – ليس دعارة في العواطف والمشاعر ، ولكنه قلق متوتر يبحث عن وجود مفقود منه ولا يكف عن هذا البحث ، ولكن أهذا الوجود الذي يبحث عنه سيجده من خلال حب ميمي له ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فما مفهوم الحب الذي تعطيه له ميمي ، (١٣٤) : (أتراه يمكن ان يكون من ذلك الضرب الخيالي الذي يعز في الحياة والذي تكون فيه التضحية بالذات وإنكار النفس ، بل فناؤها لذة ما بعدها لذة ! وحدث نفسه أن هذا كلام فارغ وأن الأقرب إلى العقل والأرجح في الظن ، هو أن ميمي لا تنطوي له على أكثر من صداقة كريمة لا تبلغ درجة الحب المستغرق الآخذ بالكليتين . ولكن هبها ...هبها تحبه !! إنها إذن تكون مسكينة فما يستطيع أن ينيلها فوق ما تنال من وده إلاَّ بخيانة (تحية) ، وهي لا ينوي ولا يستمرئ أن يخونها ولا موجب لأن يعني نفسه بهذا ، ولكل شيء أوانه ولكنه مع ذلك لم يسترح ولم يكف عن تقليب الأمر على كل وجه) .

إذن طبيعته تأبى عليه الخيانة ، لأن الانطلاق الحر غير المقيد بأي وازع أخلاقي لا يتم إلا بخيانة لزوجه (تحية) ، لنه إذا أحب ميمي أحبها بكل كيانه ويرفض هذا الحب المغرق في المثالية ، يريد حب واقعي يسعد به نفسه وجسده فهو في صراع بين الإخلاص لزوجته وبين حبه لميمي ، فهو يصبو إلى وجود عسير التحقيق لأن هناك قيود ، وهناك الضمير والالتزام الخلقي والالتزام أمام ميمي فهي قد اطمانت وسكنت ووثقت به ، وهو إذا ما طلب منها ما يطلبه الرجل من المرأة ما ضنت به عليه ، بل تعطيه ما يريد بدون تفكير وهي قريرة العين منشرحة الصدر .

والإنسان حر في أن يلتزم بهذا السلوك الخلقي ، وحر أيضا في أن لا يعبأ به ولكن مع أيهما يظفر الإنسان بالسعادة ؟ أحينما يكون محاطا بالاخلاقيات والالتزامات وحريص على احترامها أم حينما يخترق تلك الأخلاقيات بدون وازع من ضميره ؟ إن الإنسان يجد اللذة والسعادة والمتعة في أن يشبع كل ما تصبو إليه النفس ، ويجد الألم إذا ما كبح جماح النفس وحرمها من المتع واللذات ، هذا أول ما يتبادر إلى الذهن عند الإجابة عن هذا السؤال المطروح ، ولكن إبراهيم هنا يظهر لنا جوهر الوجود الإنساني ومصدرًا من مصادر السعادة اللامتناهية ، يظل يصعد فيها بلا توقف حتى يصل إلى ذروة السعادة .

يقول محدثا (ليلى) في صفحة (١٤٥) : (سأصدقك ...نعم رغبت في الكثير وزهدت فيه ، أو قنعت بما دونه أو رضت نفسي على القناعة لا خوفا من ضنك بل خوفا عليك من نفسك، والإنسان طماع يا ميمي ولا نهاية لما يريد أو آخر ما يتطلع إليه ويشتهيه ، وما يكف عن الرغبة إلا حين تنقطع أنفاسه ويملأ تراب الأرض فمه ، ولكن هناك ما هو أجل وأمتع ايضا من غدراك المآرب . هناك لذة القدرة على ضبط النفس عن الإسراف والشطط بغير موجب . هذا الإدراك الصحيح الدقيق لقيمة ما ينال المرء بالقناعة وللقيمة الحقيقية لما يشتهي وما تلح به الرغبة فيه إذا ناله ... هذا الوزن الدقيق لهذه الأمور هو الذي يساعد على كبح النفس بلا أسف أو شعور بخسارة) .

وتلك هي النظرة الصادقة الصائبة لفهم كنه الوجود الإنساني ، فما كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، ولو صب الإنسان جام غضبه على الوجود حينما يعجز عن تحقيق رغبة أو هدف لأصبح الوجود جحيما لا يطاق ، ولكن لابد وأن يتنازل الإنسان عن بعض طموحاته حتى يستطيع أن يحتمل الوجود ، حينئذ لا يشقى الإنسان ولا تظلم الدنيا في عينيه ، وبتحكمه في نفسه وقناعته يجد السعادة تملأ حياته ، ويكون – في تلك اللحظة – الوجود غاية في ذاته لا ان يسخر هذا الوجود لجلب متعة ذائلة ، وقد يظفر الإنسان أو لا يظفر . إذن وجد إبراهيم السعادة ووجد إكسيرها السحري في القناعة وكبح النفس كي لا تشطط بافنسان وتضل به ضلالا بعيدا .

وحين يدرك هذا ، يدرك أن عليه التسليم بواقعه الوجودي ، وأن يظل عبدًا للزهرة الواحدة ، وحبيس الروضة لا ينتقل غلى غيرها ، وعليه أن يقنع نفسه حتى ولو كان الوجود يسوده اشباح الملل وأطياف السأم ، عليه أن يحتمله وأن يخلق قيم جمالية ليستطيع احتمال الوجود .

أما والأمر هكذا ، فعليه إذن أن يقنع (بتحية) زوجة ، ولا يتعداها إلى غيرها ودار حوار بينه وبين نفسه بشان هذا في صفحة (١٦٩) : (هل استطيع أن استغني عن تحية ؟

فهزت نفسه رأسها بشدة أن (لا) .

قال : (كلا ، لا أحسبني قادرًا على ذلك ، أو مطيقا له ،وما أظن بتحية إلاَّ انها صارت (عادة لي) .

فقالت نفسه : (نعم عادة ...ولم لا ! أي ضير في هذا ! إن كل إنسان حزمة من عادات تكبر وتضخم ، شيئا فشيئا ، على الأيام مع ارتفاع السن ، ويحسن أن توطن نفسك على هذا ، وليست تحية بالعادة المفردة ن فإن هذا الحساب العقيم الذي لا تزال تؤديه وتكلفني اداءه ، وتسود به عبشي معك عادة أخرى ، وأقول الحق أنك اتعبتني وقد مللت صحبتك ، ولوكنت تصدر عن رايي ، وتعمل بمشورتي ولكنك عنيد مكابر)

وقال : (وكيف بالله أصنع وأنت تشيرين بالرأب ونقيضه ؟) .

فأحست نفسه انها تهورت ، فأقصرت وقالت : (مهلا ، فليس هذا وقته ، لقد كنا نقول إنه لا غنى عن تحية ، وأنها عادة لك وانتهينا إذن) .

قال : (كلا لم ننته ، فهل أنا أحبها ؟

قالت : (يا أخي ما قيمة هذا ؟ ثم انك تحبها ولا شك – حبا هادئا لا فاترًا عارما ، كما كان في البداية ، ولكل فورة سكون ولكل جديد لذة ثم تبلى الجيدة وتذهب معها اللذة كالثياب) .

فثار بها مقاطعًا :(قبحك الله ، تشبهين تحية بثوب يبلى ويطرح ويخلع على فقير ؟)

قالت : (ها ، ألم اقل لك أنك تضمر لها حبا وإكبارا ؟) .

قال : (دعي هذا . المهم أنه لا غنى بنا عنها ولا طيب للحياة بدونها) .

قالت : (ولماذا كل هذا النفور ، بل الفزع من ذكر الحب ، أتراك أصبحت كمصاصة القصب التي ذهب عصيرها ؟ فأنت تنفر مما لم تعد قادرًا عليه لأنك جففت ونشفت ؟

قال : (أما أنك لثقيلة ، ثم أنك لم تصدقي ، فما عجزت عن الحب ، ولكن ...)

قالت مقاطعة : (مع غيرها ...اختشي يا شيخ ،هبها ملتك كما مللتها وذهبت تنشد التسلي كما تنشده ...)

فصاح بها : (اخرسي)

قالت : (إذن أنصفها ، ولا تكلفها غلا ما تكلف نفسك ، وإلاَّ زهقت روحها إذا ظلت على التصبر والتشدد ، ولم تذهب تتعزى وتتلهى مثلك وعلى فكرة ... أن روحها تكاد تزهق الآن من القلق والاضطراب ، يا ما أقل ذوقك معها وأسخف رعايتك لها ، ألا ترى أن الأوفق أن تفضالجلسة لتخرج إليها لترد روحها ؟)

قال : (صدقت ، وإني لوحش ، فلنعجل ، إذن لا معدى عن عمل نعمله ؟)

قالت : (طبعا ، وإنه لسهل)

قال : (سهل ؟ تقولين سهل ؟)

قالت : (نعم إذا كانت علة الفتور أنها لم تستطع أن تجدد نفسها لك فجددها أنت لنفسك) .

وبذلك يخرج بنتيجة هامة ، وهي إذا لم يكن الوجود يتوافق ومزاجنا أو كان خاليًا من القيم الجمالية التي نصبو إليها بكل جوارحنا فعلينا أن نخلق تلك القيم ليكتسب الوجود بهاء ورواء ويأتلق حسنا وجمالا . ولذة الخلق عن الإنسان لا تعادلها لذة ، فهو في عمله هذا – تجميل الوجود – يجد متعة و وسعادة تجعل لحياته هدفا ومغزى.

وتأتي (عايدة) ، وتجد هناك تشابها كبيرًا بين ميمي وعايدة ، فهما لا يميلان إلى الشباب ، وإنما يميلان إلى الرجال الناضجين ، وإبراهيم يمثل النموذج المفضل لها ، وكانت – عايدة – مصابة بمرض الوسواس ، وقد تعرضت ما سبب لها فقدان الثقة في نفسها ، حينما أعرض عنها ابن خالتها بعدما منحت له الكثير من ذات نفسها ، وتخيلت أنها مصابة بالصدر وفي طريقها للإصابة بذات الرئة ، والأزمات العصبية تنتابها بين الآونة والأخرى ، فهي حطام بشري لا حول له ولا قوة وامتدت أسباب إبراهيم بأسباب هذا الحطام البشري ، فبث فيه الحياة والقوة والثقة ، فبعد أن كانت تنظر إلى الوجود نظرة سوداء قاتمة ، استطاع أن يجعلها تتأمل الحياة من جانبها المشرق المضيء ، تقول له : (ولكن ما فائدة الحياة ؟ ما هو الخير الذي نصيبه فيها ؟)

.

فقال :(آه ... هذا سؤال من العبث أن نلتمس له جوابا ، فالحياة لا يسأل فيها عن الفائدة منها ن وإنما علينا أن نحياها على خير وجه وأصلحه . ثم أنك أنت الملومة إذاكنت لا تصيبين منها خيرا ، ،الدنيا كلها أمامك فماذا يمنعك أن تنشدي هذا الخير الذي تسألين عنه ؟ تمسكين عن التماس الخير ونشدانه

والسعي إليه ثم تروحين تلومين الحياة وتسخطين على الدنيا ؟ هل هذا عدل ؟ تقعدين وفمك مفتوح منتظرة أن تحشوه لك الملائكة سكرا ، ثم تشكين إذا حشته الأيام ترابا ؟ لا يا سيدتي لومي نفسك) . وأخذ إبراهيم يوحي لها أن الإنسان التعس هو من جعل نفسه تعسا فالحياة حوله جميلة وملآنة بكل ما يسعد الإنسان وعلى الإنسان أن يغتنم الفرصة ليظفر بالسعادة والمتع .

ويفلح إبراهيم في إحياء هذا الحطام وإحياء كل ما انطوى وذبل وذوى ، ولكن عليه أن يتحمل ضريبية هذا العمل ، فعليه أن يلبي ماتتطلبه تلك الحياة ، وعليه أن يستجيب لما تطلبه تلك النفس التي كانت ذابلة ، وهذا الجسد الذي كادت أن تجف منه ماء الحياة .

وطلبت منه (عايدة)ما يروي ظمأ المرأة إلى الرجل ولا سيما وهي تعتقد أن المرأة لا تطلب ولا تشتهى إلا لكونها أنثى ، وإنها إذا أرادت أن تستبقي الرجل إلى جانبها فبأسلحة الأنثى ، وما ذودتها به الطبيعة من ادوات الفتنة والإغراء ن ولكن إبراهيم رفض أن يلبي نداء الأنثى ، لأن هناك زوجه (تحية) وهو لا ينوي أن يخونها ، ثم ان طريق عايدة مسدود ، حتى ولو لم يكن مسدودا ، فليس هو هذا الأساس الذي تقام عليه علاقته بعايدة ، وحينما الحت في النداء من خلال هذا الظمأ الذي تشعر به ، اصر هو على الرفض من خلال التزامه أمام زوجه ، وخوفه من نفسه على عايدة ، وحينما استيقنت منه الرفض سخرت منه ، وحذرته إن لم يلبي نداء الأنثى لديها ويروي ظمأها ، فستلقي بنفسها على أول رجل تصادفه وتمادت في سخريتها منه قائلة له (٧٤): (الآن اقتنعت أنك لا تستطيع أن تحب امرأة ، إنك آلة مفكرة لا إنسان من لحم ودم) .

وخاف إبراهيم : (إذا تمادى في الرفض أن يحيلها إلى حطام مرة أخرى ، فقد تصدم من خلال هذا الإعراض ، وأقدم إبراهيم على إطفاء ظمأ تلك الأنثى ولكن بحذر ودون شطط) .

وأرجع إبراهيم تلك الفورة الجنسية التي انتابت عايدة إلى الظروف التي مرت بها ،(٧٥) : (وخطر له أن لعل قلة اطمئنانها وكثرة قلقها واضطرابها يثيران إحساسها الجنسي أو يخيلان إليها إن أرضاءه – على نحو ما – هو علاجها مما تكابده) .

فهو يحاول أن يهزم في عايدة الأنثى وما يرتبط بها من خضوع واستسلام وعبودية وبهيمية ، يريد أن يوقظ فيها المرأة الإنسانة التي تعتز بكرامتها وعزتها تلك التي تعلم أن الرجل يطلبها ليس من كونها أنثى فحسب ، بل أيضا من كونها رفيقا وأنيسا وصديقا له وصدر حنون في مشوار الحياة ، يريد ان يبعث فيها الثقة كي تحاول أن تضبط اندفاعها الجنسي ، لأنه إذا ما تغلب الوازع الجنسي على المرأة بدون قيد أصبحت لا تزد عن كونها جارية في سوق الرقيق تباع وتشترى كأنها سلعة من السلع الرخيصة . يقول في صفحة (٧٩) والحديث على مسمع من عايدة : (ولعرفت نفسها معرفتها لأدركت أنها لا تحتاج إلى البذل ، وإنما تحتاج إلى الثقة بالنفس ، وتفتقر إلى اطمئنان القلب وانتفاء الخوف ولعرفت أن حدة الإحساس هو الزي الذي اتخذه الضعف والخوف . وفي الوسع تلطيف هذه الحدة وكبح هذا الجماح ، فإن الإحساس الجنسي ليس مستعصيا على الضبط ولو راضت فتاتنا نفسها على السكون إلى الصداقة والعطف والقناعة بالمودة التي تكون بين الرجلين ولا يندر ان تكون بين رجل وامرأة، ووثقت بنفسها ونفت عنها هذه المخاوف التي تتلف أعصابها ، وتدفع إحساسها في مجرى غير صالح ولا مأمون لو فعلت ذلك لاستراحت ونعمت) .

إنه يحاول أن يجعلها تتسامى بغريزتها الجنسية ، وأن تحولها من مجراها الطبيعي إلى مجرى آخر ، وهذا لا يتم أبدا لأنه وقوف أمام الطبيعة ، وإن تم فلوقت محدود ، وقد مضت (عايدة) حينا من الزمن في ثبات وسكون ، وكأن ليس بها حياة ، فلم تطلب ما يطلبه الأحياء ،أما وقد حيت فلابد وأن تعيش وأن تستنفد من الوجود كل ما فيه من رحيق إلى أقصى مدى ، أما ما

يقولـه إبـراهيم لهـا ، فهـو وعـظ جـاف لا يقـوم علـى فهـم لأعمـاق الـنفس الإنسانية وغرائزها ، وكلام إبراهيم قد يؤتي ثماره مع إنسانة سوية ، أما مع من تعتقد أن عن قريب ستموت فالحيز الزمني المتاح لها قليل ن والمتعة واللذة التي دلها عليه إبراهيم لا تستطيع نسيانها أو عدم التقرب المحموم ناحيتها ، **يقول في صفحة (٨٠) :**

(ولا يتزعزع يقينها بأن عمرها عمر الورد ، وما كادت تلتقي به حتى انطلقت تريد أن تعدو بغير عنان وتحاول وتطلب أن تعتصر وتختزل في القليل الباقي لها من العمر ، فيما تعتقد كل ما يخطر على بالها أن تستفيده من متع الحياة ولذات العيش) .

ويبذل كل ما في طوقه أن يكبح جماح تلك الأنثى ، وأن يوقظ فيها مشاعر وأحاسيس يكون من شأنها أن تهدئ نار الغريزة ، **ولكن كان حديثه لها كما يقول الشاعر :** (رب مستمع لك والقلب في صمم) فما يفيد النصح والإرشاد والوعظ مع تلك النفس المتفجرة فيها مشاعر الأنثى المحرومة بكل اندفاعها وقوتها وحيوتها ؟ ما من علاج لها ، فإما الإرتواء كي تطفئ نيران الغريزة وسعيرها التي تلهب أحشاءها ليل نهار ، وإما وأد تلك المشاعر والإحاسيس ، ومحاولة قتل هذا الجسد الذي يجري في عروقه جمرات الظمأ والحرمان ، ولا خيار ثالث ، وآثرت عايدة الخيار الأول ، وهو أن تدفن نفسها بالحياة ، وشيئا فشيئا جفت وذبلت ووافها الموت ، **وعلله إبراهيم أنه** : (أشبه بالانتحار فيما يبدو لي) .

فالطاقات المتفجرة في النفس التي تريد الارتواء عظيمة ، ولكن الوجود محدود ، مثلها في ذلك مثل الزهرة التي تحتاج إلى الماء والظل ، ولكن شاء حظها أن تنبت في صحراء جرداء ، لا ماء بها ولا ظل ، وظلت الزهرة تمد جذورها هنا وهناك وحينما لم تجد ما يروي ظمأها تقلصت جذورها وجفت سيقانها فسقطت أوراقها .

افتعال الحبكة القصصية المعتمدة على المصادفة.

يجب أن يكون العمل القصصي مقنعا للقارئ ، حتى لا يخالجه شك في صدق العمل ، وهناك شروط كثيرة لابد للعمل من إحتوائه عليها ليأخذ سمة الصدق والاقناع في النهاية ، ومن أهم تلك الشروط عدم اعتماد البناء القصصي على المصادفة ، ففي اعتماد البناء على المصادفة في أكثر من جانب ، هذا من شأنه أن يخل بالعمل إخلالا مزريا ، ولا مانع أن تحدث المصادفة مرة أو مرتين أو لشخصية أو شخصيتين ، أما أن تكون أساسا من الأسس التي يعتمد عليها البناء ، وتعتمد عليه تلك الوشائج والأواصر التي تربط بين الشخصيات ، فهذا لا يعتد به ، لأن القارئ **وهو بإزاء تلك المصادفات يتبادر إلى ذهنه سؤال** : ماذا لو لم تحدث تلك المصادفة ؟ !

وهناك مصادفة مبررة أو مقنعة ، كأن يتقابل شخصان يعملان في مكان واحد ، وتنشأ بينهما علاقة من نوع ما ، أو يتقابل شخصان متقاربان في مزاجهما ويتم اللقاء في مكتبة عامة مثلا ، أو معرض للكتب أو التصوير ، أو ندوة أدبية أو في أي محفل من محافل الثقافة .

أما المصادفة غير المبررة ، كأن يتقابل شخصان ليس بينهما أي سابق معرفة وليس متقاربان في الطباع أو مشتركان في الميول ولا في وجهات النظر ولا أي شيء من هذا القبيل ، ثم يحدث بينهما تعارف وعلاقة قوية الأواصر ، فهذا يجافي المنطق أو يتعارض مع أساس من أسس البناء القصصي .

والبناء في (ثلاثة رجال وامرأة) و (ميدو وشركاه) يعتمد على المصادفة من النوع الثاني ، فمعرفة (حليم) و (عياد شركسي) وابنته (محاسن) تمت مصادفة **كما يقول الأستاذ (حليم) في صفحة (٥٣) :**

(كنت سائرا في الطريق وعيني على الأرض ، وإذ بكف تلطمني ، ولم يكد

يتعمد ذلك لكنه – كما تبينت – كان يتحدث ويلوح بيده فأصابتني كفه ، وأسرف في الاعتذار كما كان يسرف في التلويح بذراعيه ، وأبى أن يسقيني شايا في مقهى وهكذا عرفتك أنت)

ومعرفة محمود وسميرة تمت هي الأخرى مصادفة أثناء جلوس محمود – ناسيا – تحت مظلة سميرة على الشاطئ ، وحينما نبهته لذلك ، هم بالانصراف ولكنها استبقته بحجة أنها حولها شباب يتحرشون بها .

والأغرب من هذا ، أن بعد حدوث القطيعة بين سميرة ومحمود ، تذهب سميرة لتتزوج ناظر الزراعة كيدا في محمود ، وبعد ذلك يحدث لقاء بين ناظر الزراعة هذا (حمدي الديناري) ومحاسن في ديوان من دواوين القطار ، وحينما تراه محاسن تشعر بالحب فجأة تجاه حمدى ، ويتوطد الحب وينمو ، وبعد أن يكاشفها حمدي بأنه متزوج من امرأة أغنى منه والعصمة في يدها ، تتغاضى عن ذلك وتوافق على الزواج منه .

أما ما الذي جعل محاسن تركي القطار للسفر إلى الإسكندرية ؟ فالسبب واهن في الضعف ، وهو ان (نسيم بك) طلب منها السفر إلى الإسكندرية لقضاء بضعة أيام للاستجمام ، وطبيعة الأمور تقتضي أن يسافر (نسيم) مع (محاسن) ولا سيما وأن (نسيم) قد أسدى إلى محاسن خدمات لا حصر لها ، وكانت قد شعرت بأن هناك شيء من الحب بدأ يشب في صدرها ناحية (نسيم) أما ما الذي جعل (حمدي الديناري) يترك زراعته وزوجه (سميرة) ليسافر إلى الإسكندرية فلا ندري عن هذا شيئا سوى أن المؤلف قام بهذا كي يوفق بين محاسن وحمدي . ثم يحدث لقاء صدفة بين سميرة ومحمود فيغحدى المراقص ، وهو أن يتعثر محمود في إحدي الدرجات ويغمى عليه فتسارع سميرة إليه ومعها (نسيم) أما كيف تم التعارف بين سميرة و(نسيم) كي يصحبها إلى المرقص، فلا ندري عنه شيئا هو الآخر ، ويتم في النهاية زواج محمود وسميرة ن بعدما تم زواج محاسن وحمدي الديناري !!

كذلك في (ميدو وشركاه) ، فاللقاء بين (ميدو) والدكتورة سارة ، واللقاء بين شاكر وخيرية يتم مصادفة ، **والعجب أن هذا اللقاء بين كل من الشخصيتين** : ميدو وسارة وشاكر وخيرية يتم في مكان واحد ، والمصادفة تخلق أيضا أن سارة أخت شاكر ، وخيرية أخت (ميدو) ، والشخصيتان – ميدو وشاكر – زملاء في الوحدة العسكرية .

المعادلة الصعبة في (ثلاثة رجال وامرأة) :

الشخصيات في (ثلاثة رجال وامرأة) قلقة مضطربة تبحث عن شيء ولا تدري عنه شيئا ، أو هي بإزاء لغز مستغلق عن فهمها ، ولغزها هذا هو وجودها وحينما تعجز عن الوصول لحل هذا اللغز ن تبتعد عن الوجود ، حتى لا تشكل الشخصية مع وجودها معادلة صعبة ، فكيف يعادل الإنسان بينه وبين وجوده ، إن الانسجام منعدم ، والتفاهم شبه مستحيل ن فكل ما حول الإنسان يعترض طريقه وإرادته ، ويتحداه أن يعيش وجوده باحثا منقبًا منتظرًا أن تسوق المصادفة له ما يتمنى ، وإن لم يكن فعليه أن يحيا كيفما أتفق ، فهكذا هي الحياة !!

فالإنسان بداخله أحلام عن وجود مشرق وبكيانه من الإمكانات والطاقات ما يجعل هذا الحلم حقيقة ، ولكن هذا لا يحدث أبدا ، فلا الحلم تحقق ولا الطاقات التي بداخله تفجرت ، إنه وجود محنط ، يحمل كل أشكال الحياة الخارجية ولكنه ليس بحي ، ساكن لا حركة به ولا حيوية ، **يقول المازني واصفا الأستاذ (حليم)، صفحة (١٠) :** (وهو رجل يتمثل فيه " نقص القادرين على التمام " كما يقول أبوالطيب . فقد كان محيط علم ، وكان اسمى علمه فهما نجيبا ، و (لوذاعيا يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء الغيب) ومع ذلك أبى أن يكون أستاذا في الجامعة وآثر الإخلاد إلى الراحة ، ولو شاء مع الراحة وخلو الذرع وانفساح الوقت لجاء الناس بجناه طيبة وثمار يانعة من شجرة علمه المحلال ن ولكنه ترك الخلفة واللحق من ثمرها يهمد في موضعه

ولا يدري أو ينتفع به الناس . وكان ماله كافيا للسعة والخفض ونعيم البال ، ولكنه كان يعيش عيشة الشظف والضيق كأنه مخفق مخفف من المال أو مسكين ، وكان أخوف ما يخاف الفقر والحاجة ، فهو يضيق على نفسه وأهله خشية الضيق) .

فمؤهلات الأستاذ (حليم) العلمية تؤهله أن يكون أستاذا في الجامعة ولكنه فضل الراحة ، مع طول إطلاعه وكثرة قراءاته ، إذن أين الراحة هنا ؟ ولكن دائما الأمور مقلوبة ، وهو في سعة ولكنه يعيش عيشة الشظف خشية الفقر ، كل مواصفات الوجود الحق موجودة ، ولكن لا انتفاع بالوجود ولا بالحياة .

وعلاقة (حليم) بزوجته توحي بعدم نضجها جنسيا ، وإن كنا لا ندري كيف تم له معرفة ذلك ، فقد أغفل المؤلف ذكر ذلك ، ربما مجاراة للذوق العام في ذلك الوقت ، أن لا يسهب المؤلف في مثل تلك الأمور ، صفحة (١٠) : (وقال لها حليم لما انفض الجمع داخلا بها (إنك مازلت طفلة ، وسيكون عليك أن تعرفي الحياة وتفهمي معناها ، وأنه ليسرني أني سأكون معك) فأحست أن هذا تأنيب ، فكأنه قال لها انه وجدها دون ما كان يتمثل ، ومن أجل هذا يتكلف هذا التعليل لما تبينه من النقص ، ولعل الأرجح أنه لم يكن يدرك – ولا هي أيضا - أنها غير ناضجة من الوجه الجنسية ، **وكان شعورها بنقص ما فيها يرتسم على وجهها حتى لقد قال لها بعد يومين من زواجهما :** (ألاَّ تستطعين أن تبتسمي لزوجك ؟ اتذكرنني ؟ أنني الرجل الذي شرفته بأن تكوني امرأته).

ومع وجود هذا النقص في زوجه إلاَّ أنها تنجب ولدًا ، ولكن بعد ذلك تأخذ عليه عهدا بألا يعاشرها جنسيا ؛ لأنها لا تريد الإنجاب مرة أخرى ، فيحاول إقناعها بأن من الممكن المعاشرة بدون أن يسبب ذلك حملا ، ولكنها أبت ، ورضى الأستاذ (حليم) بهذا الوضع الغريب والشاذ .

أما السبب الذي حدى بالزوجة إلى تلك المقاطعة ، فإننا نجهله ، وإذا عرضنا حجة أنها غير ناضجة جنسيا فتلك الحجة باطلة ، فهي انثى من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . بدليل أنها أنجبت ، فإذا ما ثبتت تلك الصفة عليها – أنها أنثى – فهي لا تستطيع الابتعاد عن الرجل إلا بشق الأنفس ، لا سيما وهو زوجها وأمامها ليل نهار ، ثم من قال أن غير الناضجة تكره الجنس هذا الكره العارم فكل ما في الأمر أنها لا تستطيع أن تأخذ القسط الوافر من المتعة ، فهي تصاب بخيبة أمل ، وهذا لا يمنعها من المحاولة مرة أخرى ، إن لم يكن من أجلها فمن أجل حق الزوج على زوجته .

فتبري هذا التصرف الذي صدر من (سميحة) زوج (حليم) لا يستند لا على أساس نفسي ، ولا على أساس (بيولوجي) ، فصحتها النفسيسة والعضوية على ما يرام وطبيعية للغاية .

ولكن كيف يرضى (حليم) بهذا الوضع ؟

فإن احتمله نفسيا ، فلن يستطيع – على المدى الطويل – احتماله جسديا لاسيما وأن زوجته أمامه ليل نهار ، وإن ما يطالب به حق له على زوجته ، إلا أنه رضى بهذا الوضع الشاذ وسكن له (١٣) : (من ذلك اليوم صار الأستاذ (حليم) كأنه مقيم في فندق لا يربطه بمن فيه غيره سوى الجوار ، وفقد لفظ الأسرة معناه والزواج مدلوله ، وانطوى الرجل على نفسه ، ولاذ بمكتبته ، وانزوى فيها ، ولم يقصر في منشدة سميحة أن تفئ إلى القصد ، وأن يفهمها أن إتقاء الحمل لا يقتضي هذا الذي هو فراق في حقيقته ، ولا يمنع ان يعيشا زوجين ، وإن كان لا محيد عن الحذر واتخاذ ما يشير به الطبيب من الحيطة الواقية . غير أنها أبت كل الإباء أن تكون له أكثر من جارة ، فقطع الأمل وأضمر اليأس ، وصار يشتم ولا يذوق ، ويشتهي ولا ينتهي له اشتهاء ،

ويجزع على الحرمان ، ويضنيه جهد التصبر والتجلد ولا يجد السلوة وطيب النفس عن الزوجة العصية إلاَّ بالخيال يلجأ إليه ، والكتاب بين يديه أو على ركبتيه) .

(٦٠) :(فيزوده ويغني خياله بصور ما يتلهف عليه من المتع التي فاتته بعد أن ذاقها واستطابها واعتض ذلك مما حرمه ، على إغراقه في الرغبة فيه والطلب له حتى صار ذلك له عادة ودينا) .

وخرج (حليم) من هذا المأزق ، أو أخرج الكاتب شخصيته من تلك الأزمة بأن جعل منه وجودا متكاملا ، وليس وجودا منقسما بين ذكر وأنثى ، فكيانه مكون من جزء ذكري وآخر أنثوى ، وإذا ما اشتهى الذكر الأنثى ، فهي موجودة معه في كيانه يقضى منها وطره ، فهو ليس في حاجة إلى أنثى خارجية عنه ، أو مستقلة عنه .

فهو – حليم – يريد أن يحتوي كيانه على كل مقومات السعادة والمتعة كي لا يشعر بفقدان تلك السعادة في حالة غيبة أو فقدان المصدر الطبيعي . (١٦) (كان يرى نفسه في منامه يلتقي بأنثى على صورته هو ، وكانت تشبه في كل شيء إلاَّ في الدمامة وفيما يتميز به رجل من امرأة ، فكأنها العنصر الأنثوي الذي لا يخلو منه كيان رجل قد انتزع وتجسد شرا ، وكأن الأستاذ (حليم) قد آخى بذلك إنسانين – واحدًا مكتملاً يجتمع فيه ويتسق عنصر الذكورة والأنوثة على نسبة ما في اليقظة ، وواحدًا ينشطر في المنام شطرين منفصلين ، ذكر وأنثى ، متحابين متواصلين متراضيين متوافقين على الاستغناء بنفسيهما عما عز مطلبه في حياة اليقظة ن وثقلت عليهما وطأة حرمانه ، فلا حاجة به بعد ذلك إلى تألف النافرة منه ، أو مراجعة المسكة عنه) .

وتأمل معي آخر فقرة (فلا حاجة به بعد .) فلا تدري أبذلك ينتصر على وجوده الذي لا يستطيع تحقيقهمن خلال اتصاله الجنسي بزوجته ، أم هو ضعف من أن يجاهد ويصارع مع أي امرأة سواء كانت زوجه أو غيرها ، كي

يرضي غريزته ويجد لشهوته مصرفا ، فأقنع نفسه بتلك الطريقة التي لا تخلو من غرابة وشذوذ وهو ان يتكيف مع وجوده ويحاول أن يكون موجودًا متكاملاً ، لأنه في اعتماده على موجود آخر ليسد نقصه ويحقق سعادته ومتعته ، هذا يعد في نظره نقصا ، فليسد هذا النقص ويملأ هذا الفراغ بدون الالتجاء إلى (المرأة) .

ولكن هذا الوضع لم يرح الأستاذ (حليم) فهو يعتقد أن الإنسان مكون من عنصرين ، الذكورة والأنوثة ، وأن عنصر الذكورة يسيطر على عنصر الأنوثة ، ويمتزج العنصران مكونان عنصرًا واحدًا ، يمثل كيان الرجل ، أما في حالته فالعنصران منقسمان على نفسيهما ، وكل منهما مستقل عن الآخر ، وخشى أن يؤثر هذا عليه لأن هذا في حد ذاته نوع من التصدع ، خشى منه على نفسه ، فهداه تفكيره إلى سلوك الطريق الصحيح – في رأيه – وهو أن يتصل بامرأة أخرى غير زوجته ، بدلا من هذا الوضع الشاذ الذي يسلكه .

ونجد هنا المعادلة الصعبة ، كيف يوفق حليم بين وضعه مع زوجته وبين متطلبات جسده كرجل ، وهو لا يريد التزوج بأخرى ، ولا يريد ان يلجأ إلى بائعات الهوى ، إذن كيف للرجل أن يصرف شهوته ؟!

لقد قيد المازني شخصيته بالحبال وألقاه في البحر ، وطلب منه محاولة النجاة . وكان تصرف حليم المنطقي – من وجهة نظره – أن يبحث في كيانه عما يسد به هذا النقص الحادث في كيانه ... ومثله في ذلك كمن يقطع جلد جسده ليجري عمليه تجميل في جزء آخر من جسده .

وبحث (حليم) فوجد محاسن ابنة (عياد الشركسي) وخطيبة محمود ووجد حليم في محاسن ضالته المنشودة ، والذي طمأنها إليه وطمأنه إليها ، أنه كبير السن ، وأنها مازالت صغيرة ، ومن يراهما سائرين يظنهما أبا وابنته . وحدث بينهما الكثير من القبلات ، والمداعبات ، فهذا يريحه مما يجد من ثقل

وإلحاح الغيزة المخنوقة ، وهي أيضا تجد راحة معه ، لأنها تنفس عما تجده من ضغط الغريزة عليها ، وظل الوضع هكذا إلى أن شعرت محاسن أنها لم تحض في شهرها وأسقط في يد حليم ، كيف حدث هذا ؟ ! وبعد لأي توصلا إلى علاج لتلك الأزمة التي كانت ستقضي على حليم .. وإلى هنا ينتهي تصاعد الأحداث مع حليم أو يتوقف تأثير حليم في أحداث القصة .

وتبدأ الأحداث مع (محمود) خطيب محاسن ، فقد كان على علاقة مع شخصية أخرى قبل محاسن ، وكانت تلك الشخصية هي (سميرة) ، والتي يتعرف عليها ويوشك على إتمام زواجه بها ، غير انه كان له أراء في مسألة الزواج فهو يؤمن (٢٤) : (إن من المهانة أن يكون الزوج فقيرًا وامرأته غنية ، وليس معنى هذا أن على المرأة الغنية أن تنزل عن مالها لبعلها حتى يعتدل الميزان ، وإنما معناه أنه ليس مما يحفظ مروءة الرجل ويصون كرامته ان يتزوج امرأة لمالها ، وقد يكون هذا رأيا عتيقا ، ولكنه رأيه الذي يذهب إليه بدافع من إدراكه الخاص لمعنى الكرامة) .

ويشاء قدره أن تكون سميرة هذه أعلى من مستواه الإجتماعي والمادي ويعارض والد محمود في زواجه من (سميرة) لغنى الفتاة من ناحية ، ومن ناحية تلهف الفتاة وقبولها لمحمود مع أنه عاطل وليس له من المؤهلات ما يجعل فتاة هذا شأنها من الغنى انتجري وراء محمود ، مع ان محمود كان يؤمن بأنه يجب ألاَّ يتزوج بامرأة أغنى منه ، إلاَّ أن الحب أوقعه في المحظور ، وكاشف محمود سميرة أن والديه لا يرضيان عن تلك الزيجة غير متكافئة الأطراف ، واستيقنت سميرة من ذلك حينما صادفت والدة محمود في المتجر ، وقالت سميرة لمحمود بعد ذلك لتعرف رأيه (٤٠) : (ليس يطيب لي أن أفسد ما بينك وبين أبويك) إلاَّ أن محمود سفه رأيها هذا ، وأثناء زيارته لها لم يجدها ، فسأل أمها فأخبرته أنها سافرت ، فعجب وسألها لم لم تمنعيها **فقالت (٤٢) :** (يا حبيبي ماذا تريد ان أصنع ... إنه لا سلطان لي عليها ، وإن كنت أنا أمها ... وقد كنت أنت القادر على أن تمسكها ولكنك تركتها تطير ، بل

حضضتها على الطيران ... هل تستطيع أن تقول لي لماذا يعرض أهلك في الزواج منها ؟ ولماذا ينفرون منها هذا النفور ؟ ودع أهلك ، لي أنت لماذا كنت تأبى كل هذا الإباء السخيف أن تدعها تنفق مليما ووهي معك ؟ أمن أجل أنك لست كفؤا لها في الثروة يجب أن تنزل هي عن كل ما ألفت وأن تروض نفسها على حياة الضنوكة إرضاء لك ؟ أليست هذه أنانية صارخة حمقاء ؟ كيف يمكن أن تعيشا معا راضين ناعمين إذا كنت تستكبر هذا الاستكبار المر المتعب ؟ أي حياة تكون حياتها معك ما خير مآلها إذن ؟ ماذا تفيد منه ؟ وتجئ تسألني أين هي ؟ ولماذا سافرت ؟ ضجرت يا سيدى طقت ...اتفلقت ... أيقنت أن حياتها معك ستكون جحيما لها ولك ، ولأمك ولأبيك ، هل استرحت الآن ؟ هل فهمت يا غبي ، يا أعمى ، لشد ما خيبت أملي فيك ، أنا التي لم أزل أحتال حتى حسبتني ظفرت بك لها . لا حول ولا قوة إلاَّ بالله) .

وإن كانت طبيعة التكوين النفسي لمحمود تقتضي أن يكون هو البادئ يهجر سميرة ؛ لأن اتصاله وزواجه بها يتعارض وأرائه وأفكاره ، ولكن هو القلب وأحكامه التي لا تترك لأي شيء آخر معارضتها ، وتتزوج سميرة ناظر الزراعة ، الذي يعمل في أملاكها ، ونعرف بعد ذلك أنه زواج صوري فقط ، فالعصمة بيد الزوجة ، وسميرة وحمدي زوجان أمام الناس فقط ، ورضى حمدي بهذا لأنها أغنى منه بدرجات كبيرة .

ونلاحظ أن تصرف سميرة ليس مبررًا بالمرة ، ولم يكن هناك استعداد نفسي أو ذهني لما ستفعله ، فليس معنى أن والدي محمود ر يرغبان في زواجه من سميرة أن تذهب على الفور لتتزوج بآخر ، فتلك فجوة نشعر بها ولا نستطيع تجاوزها ، وإن أراد المؤلف لشخصيته في القصة أن تسلك هذا المسلك ، كان من الأجدر أن يعطي لو لمحة بسيطة عن علاقة سميرة بناظر الزراعة هذا ، حتى وإن كانت علاقة الخادم بسيدته لنقتنع بعد ذلك بما سيحدث .

وتدور الأحداث لتتصل محاسن(بنسيم بك) تلك الشخصية الهلامية الفضفاضة التي لا تستطيع أن تضع لها ملامح إنسانية بالمرة ... فهو ليس

شخصية تسد فراغا ، وإنما قل هو متكئا أو شيء هامشي لجأ إليه الكاتب ليساعده على أن يمتد بالأحداث وبتصرفات تلك الشخصيات مع الأحداث .
وبعد أن تعمل محاسن لدى نسيم هذا وتظن أن هناك أطياف حب وأشباح غرام ، يطلب نسيم من محاسن أن تقضي أسبوعا بالإسكندرية ، منفردة بدون أن يصحبها ، مع أن منطق الأحداث كان يقتضي أن يكون معها في هذه الرحلة ، ولكن كيف ذلك والكاتب منذ البداية قد رسم مسلك شخصياته ، فأراد من محاسن أن تسافر الإسكندرية مفردة كي تقابل (حمدي الديناري) ناظر الزراعة وزوج سميرة ، وتنشأ علاقة حب من أول نظرة من طرف محاسن ، حينما رأت حمدي في القطار لا لشيء ، إلاَّ لأنه من كان ترسمه في خيالها ، فهو الفارس الذي كانت تتمناه ، وتحبه محاسن حبا جنونيا رغم أنه قص عليها قصته مع سميرة ، وأنه لا يملك حتى حق تطليقها ، ومع ذلك أصرت محاسن على حبها ورضيت على زواجه منها .
وكما ساقت المصادفة محاسن التي هي أصلا خطيبة محمود غلى حمدي الذي هو زوج سميرة ، تسوق المصادفة أيضا محمود خطيب محاسن إلي سميرة زوجة حمدي ، ويلتقي محمود وسميرة في ملهى ليلي ، وتنتهي القصة تلك النهاية الساذجة ، لنؤمن في النهاية بمبدأ المصادفة والقدر في الوجود .
وإن كان سعي كل تلك الشخصيات سعيا حثيثا عن وجودها لتحل تلك المعادلة الصعبة بين وجودها الذاتي والوجود الموضوعي حولها ، ويجعلها تسلك في سبيل ذلك تجارب كثيرة تبوء بالفشل في أكثر الأحيان إلى أن تكلل في النهاية بالنجاح والفوز ، وتحل المعادلة الصعبة .

الوجود الغض وعود على بدء

تشتاق النفس وتحن إلى عهد الطفولة ، ففي ذلك العهد تتجرع الإنسان أول كؤوس السعادة الصافية من منابعها الإصيلة ، وشهد فجر وجوده ومازال غضا طريا ، ينضح غضارة ولينا ، والعالم على ضيق مساحته في ذلك العهد ، كأنه بستان تفترش أرضه العشب الأخضر وأسراب الزهور ، وترتفع في سمائه أغصان الأشجار الحافلة بالطيور الصداحة والتي أسكرها جمال الوجود ، وتظل تترنح من السعادة والنشوة ، وتشدوًا إعجابًا بهذا الجمال .

في ذلك العهد السعادة بلا ثمن ، والوجود بلا ألم ، الإنسان فيه لا يحوي غير السعادة ، يرتع يلعب بلا قيود ولا حدود ، كل ما يتمناه يحققه ، وكل ما يريد يفعله بدون خوف من رقيب ، وبدون حذر من محاسب ، مثله في ذلك مثل العصفور الذي يتنقل من غصن إلى غصن ، ومن سطح إلى إفريز يلتقط ما يلتقط ، ويحسو ما يحسو .

ويقضى ذلك العهد ، ويكبر الإنسان ، وينفد إكسير السعادة من الكؤوس، ويغدو الوجود صحراء قاحلة ، تحرقها اشعة الشمس القاتلة ، وتستأصل الأشجار من الجذور ، بعد ان تهجرها الأطيار ، وتصبح السعادة لحظات نادرة الوجود ، أمام سنين الألم والمرارة ، ولا يبقى من عهد الطفولة سوى تلك الذكريات الجميلة ويكون لها تأثير نسمة ندية في يوم صيف قائظ الحرارة ، يحلو للإنسان أن يسترجعها مرارًا .

ويتوقف الشوق إلى ذلك العهد بما يلاقيه الإنسان في وجوده الحاضر ، فإذا شعر بثقل الوجود عليه ، وضيق عالمه من خلال القيود والقوانين والعادات والتقاليد والذوق العام ...إلخ ، اشتد شوقه للعودة للوجود الغض أيام كان طفلا بهذا الشعور الناصع بالوجود وتلك الشفافية المطلقة بالإحساس به ،

ويتساءل الإنسان ، هل يا ترى تلك الذكري الطيبة ستدوم ، أم أن تلك الذكرى سيعكرها حاضر الإنسان وما يموج به من منغصات ، وهل هناك ما يسمى بالوجود الظليل داخل الإنسان ، والذي نسميه بمنطقة (الذكرى) والتي يلجأ الإنسان إليها ليستريح من وعثاء وهجير رحلة الوجود الشاقة ؟

وكان أمام المازني طريقان ، حينما يعود بالشخصية إلى طور الطفولة :

الأول : أن ترجع الشخصية إلى طور الطفولة جسدًا وعقلاً .

الثاني : أن ترجع الشخصية بالجسد فقط ، بينما العقل عقل رجل بالغ ؛ ليسجل العقل تحركات الطفل وإيقاعات الوجود عليه .

واختارالمازني الطريق الثاني ، أن تعود الشخصية إلى الطفولة بجسدها ويبقى العقل على حاله ، ولكن أين تكون السعادة في الحالتين ، حينما يكون الرجوع بالجسد والعقل معا ، أم بالجسد فقط ؟

يقول في صفحة (٥٥) : (وقد رددت طفلاً ؟ غن يكن هذا هكذا فلماذا بقى عقلي عقل رجل ؟ أم تراه سيصغر شيئا فشيئا على الأيام – أو على الساعات – حتى ينقلب أيضا عقل غلام حدث ؟ فأني أرى نفسي تنازعني أن أصنع ما يصنع الصبيان وأن أركب الحياة والناس بما يركبهما به حدث غرير ، ولو تم هذا التحول لكنت به أسعد وأشقى – أسعد لأن حداثتي تستوفى حينئذ حقها بانتفاء هذا التلفيق والترقيع ، وأشقى لأني أبت صلتي بما عشته وألفته ، وأنساه ، وتتغير شخصيتي التي أنا بها ، ولست أرضى لنفسي هذا ، ولست مستعدا أن أرضى سلفا عن شخصية جديدة أجهلها ، واعتاضها من شخصيتي القديمة المألوفة ، ثم لماذا تكتب لي وحدي هذه المحنة دون خلق الله جميعا ، ويقضي على أن أحيا حياتين مختلفين ، وأمر بعهد الحداثة وما يليها مرتين ؟

وإذا ظل الحال يجري على هذا المنوال فأصغر بعد أن أكبر ، فمتى يمكن أن أستريح وأعفى من هذا العناء المتكرر) .

فهو سيسعد ؛ لأن العقل سيكون منسجما مع الجسد ، ولن يكون هنالك ترقيع أو تلفيق ، فليس هناك تناقض ولا تصارع بين الجسد والعقل ، وهذا من شأنه أن يحقق السعادة للإنسان ، وسيشقى أيضا لأنها ستفصم عرى الألفة التي بينه وبين وجوده القديم المألوف له ، وهو يرفض أن يستبدل شيئا يعرفه بشيء لا يعرفه ثم إذا حدث هذا ، فهو يتناقض وسنة الوجود ، فمن الطبيعي أن يولد الإنسان صغيرا ، ثم يكبر ويشب وهذا شيء طبيعي ، وهو إذا أصبح فوجد الشيب غزا شعره فجأة وأخذت التجاعيد والأخاديد مكانها في وجهه ، وأحدودب الظهر ، لما أنكر هذا لأن هذا هو الطريق الطبيعي مع امتداد العمر ، أما أن يرجع إلى الطفولة بعد الكبر فهذا لا يتوافق وسنة الوجود مطلقا .

يقول في صفحة (٨٩) :

(ولكن البلاء والداء العياء ، اني لا أراني مطيقا لاعتياض هذه الشخصية الفجة التي لم تنضج ، من شخصيتي القديمة ، كلا هذا عسير ، وهو المعضلة الكبرى في الأمر كله ، وما أرى الذي أتاني هذا الجسد الصغير إلا قد اخطأ وكلفني شططا ولو كان أهرمني وأعلى سني واسكنني جسدًا مقوس القناة وجعل لي وجها مغضنا كالمدينة بادية من طيارة ، وأشاع الشيب في رأسي ، لكان أهون ، وأخف محملا ولكن أيسر على أن أفضل هذه الوثبة إلى الشيخوخة وأسكن إليها لأنها هي التي تقترن في الذهن بالحياة مع امتداد العمر ،والمرء يتوقعها ويعرف أنه يدلف إليها ولكن استمرار الحياة لا يقترن في الذهن أبدا بهذه الرجعة ، أو بهذا الهبوط إلى سفح الجبل بعد أن قارب المرء ذروته وليس في الحياة لا وقوف ولا رجوع إلى الوراء فكيف يمكن أو أوطن نفسي على هذا المستحيل ؟) .

فالإنسان يقنع بالذكرى ، يحلو له أن يرجع بذهنه إلى عهد الطفولة ، عهد الصبا ، وما أخذ من لذائذ ومتع ،في تلك المرحلة يود الرجوع ،ولكن الذاكرة كالغربال لا تحتفظ إلاَّ بالصور الباهتة للمتع ، ولحظات قصيرة من السعادة على مر الأيام وهما ما يظفر به الإنسان أثناء التذكر .

أمـا إذا رُد ثانيـا إلـى ذلـك العهـد ، فلابـد وأن يعيشـه معايشـة صـادقة ، ويتذوقه بحلوه ومره ، ولكل مرحلة متاعبها ومنغصاتها وألآمها ، والمازني وضع شخصية (سنا) في حيرة وفي مأزق ، أيسير بما يمليه عليه عقله فينتهج نهـج الرجـال ، ولكـن فـي هـذا يخـالف مـا يشـير بـه جسـده ، ويعـرض رأي المحيطين به الذين يعتبرونه طفلا ويعاملونه من خلال هذا الاعتبار ، أم ينتهج نهج الأطفال متمشيا مع جسده ومتوافقا مع أراء من حولـه ، معارضـا فـي ذلك عقله ؟

وهو إذا أرضـى عقلـه لن يرضـي جسده ، وإذا أرضـى جسده سيخالف عقلـه **أين المخـرج من تلـك الأزمـة (٥٦)** : (وكنت وأنـا أديـر هذا فـي نفسي أتمشـى فـي الحديقـة فخطـر لـي أن مد البصـر إلـى المستقبل متعبـة ، وأن الساعة التي أنا فيها أولى بالعناية وأن أول ما ينبغي هو أن أعرف أين أنا ؟ أي بلد هذا وأي حـي ؟ لأعرف أقريـب أنـا أم بعيد من أهلـي وبيتـي ، و يحسن أن أعرف ماضـي (الجديد) فقد أقحم على حاضر أعيشـه وأحياه بماضـي يعد (مستعارا) وهـذا ترقيـع لا تصـلح بـه الحيـاة التـي أُعطيتهـا ، فإمـا أن أُعطـى ماضيها معها ، أو أعاد إلى الحاضر الذي زحزحت عنه وأجليت لا أدري كيف ؟) .

إن كل مـا يجذب اهتمـام الشخصية وهـي فـي هذا المـازق ، هـو الوجـود الحاضر فهو لا يملك الماضي لأنـه يجهلـه ، ولا يطيب لـه أن يمد البصـر إلـى المستقبل فهـو فـي قبضـة الغيـب ، إذن فوجـوده لا يتحقق تحققـا واقعيًـا إلاَّ فـي الحاضر ، ففي حاضره يملك كل وجوده ، ويملك كيفية توجيهـه ، ولكـي يتمكن من هذا ، **هنـالك أسئلـة لابـد مـن الإجابـة عليهـا أولا : أيـن هـو ؟** أي بلد الذي يحيا فيه ؟ وبالإجابة عن تلك الأسئلة يستطيع أن يحدد وجوده .

السخرية تصالح إنساني مع الوجود

السخرية موقف يقفه الأديب من الوجود ، وهو لا يقف هذا الموقف إلاَّ بعد أن لا يجد جدوى من الرفض المطلق للوجود ، أو القبول الخاضع له ، فالرفض معناه عدم الرضى ، وهذا يعطي انطباعا بأن الوجود فاسد ، ومفعم بالشر ولا يستحق أن يعاش ، فهو رفض سلبي ، أما القبول الخاضع أو المستكين ، فهو تسليم ساذج ومعناه الرضى بكل ما في الوجود من فساد وشر ونقص . ويريد الأديب أن يجمع الموقفين – الرفض والقبول – في موقف واحد ، فلا يريد أن يرفض ، ولا يريد أن يقبل ، وخلاصة المزج بين هذين الموقفين هو موقف السخرية ، لأنها تتضمن القبول والرفض في نفس الوقت ، **وكما يقول الدكتور (محمد حامد الهوال) :**

(إن السخرية نوع من النقد أو هي في حقيقتها نزعة نقدية) . فحينما أنقد شيئا ، فإن محاولتي تلك تتضمن قبولا ضمنيا له ، وعملية النقد ذاتها تتضمن رفضا للصورة التي عليها الشيء المنقود .

وهي – السخرية – عملية إصلاح أو تقويم يقوم بها الإنسان الساخر ، أو هي هجوم يوجهه افنسان ضد الوجود لتحطيم أصنام القبح ، وإضفاء مسحة من سمات الجمال ، **يقول الدكتور (الهوال) ، صفحة (٣٠)** : (فالسخرية محاولة لطيفة مهذبة الغرض منها تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التي تجانب التطور وتناهض الحركة نحو المستقبل ، فإذا ما وقعت على إحدى هذه الظواهر كالبلادة أو الخمول أو الغفلة أو كل ما الحياة بالتوقف أو البطء ، أو كل ما تحس أن فيه إعراضا عن الحياة وعجزا من التلاؤم معها ، أخذت نفسها ضده ، وجمعت أسلحتها لتنقض عليه إذا لم يكن له بد من أن تكون قاسية معه) .

فهو موقف يقفه الإنسان الساخر ضد كل ما من شأنه أن ينحرف بالحياة عن مجراها الطبيعي ، وضد كل من يحاول أن يطمس ويزيل هذا التلاؤم أو الانسجام الكامل بين الإنسان والوجود ، أو هي محاولة لإعادة هذا الاتساق بين الإنسان و الوجود لتجميل جزئيات الحياة .

والسخرية تؤدي دورها من خلال عنصرين ، **العنصر الأول** : الإنسان الساخر العنصر الثاني الشيء المسخور منه .

أولا : الساخر : -

السخرية خاصية يتميز بها إنسان ذو مواصفات خاصة ، لأنها في حاجة إلى درجة من تيقظ الوعي ؛لتدرك الانحراف الحادث في المسخور منه ، والصورة التي كان يجب أن يكون عليها ، وهذا في حاجة إلى نصاعة الإدراك وشفافية الحدس **يقول الدكتور الهوال :** (لهذا فإن السخرية عمل إنساني محض ، لا يستطيعه إلاَّ الإنسان لأنها تؤأم الضحك وإن لم تبعث عليه إحيانا ، **ونستطيع أن نقول** : إن الإنسان حيوان ساخر لأن السخرية جماع النطق والضحك والعقل) .

وحين يسخر الساخر يفعل هذا بدافع داخلي لأن هذا الفعل بمثابة تطهير له بمثابة غسل النفس مما من شأنه أن يعكر صفوها ، أو يقض مضجعها .

إن عملية السخرية تعطي للساخر شعورا بالراحة الكبرى ، بأنه فعل ما عليه وأدى واجبه ، وأن مهما حدث بعد ذلك لن يتحمل مغبته ، لأن ما قام به كان بمثابة إن إنذار وتحذير ، **يقول الدكتور (الهوال) في صفحة (٣٠)** : (وحين يسخر الإنسان فهو يستخدم مواهبه الأساسية للحفاظ على المجتمع ومناصرة الحياة ، ويلبي نداء عميقا أزليا في نفسه وفي كل حواسه ليبقى على كل ما هو جميل وصادق وبناء فإذا سخر من غفلة بعض الناس ، فإنه يعبر في نفس الوقت عن محبته لهم واهتمامه بأمرهم ، حتى لو اختلط الأمر أحيانا ، وغطت عليه سحابات عارضة وسطحية ، فلم يفهم على حقيقته ، إنه يريد أن

ينبه الغافل ليتخلص من غفلته ويعود إلى رشده وانتباهه ، لأن هذا أولاً في صالحه ، ولأنه سبيله للتوافق مع النظام الاجتماعي والقانون الطبيعي للحياة الذي يستلزم الانتباه والتوتر ولا يقبل من الإنسان الغفلة والاسترخاء في كل وقت حتى لو احتاج إليهما أحيانا) .

فالإنسان الساخر لا يفعل هذا من دافع كره أو من واقع نفس مظلمة ، لا ترى إلا الجانب المظلم أو القبيح من الحياة ، وإنما هي نفس محبة ، تريد أن تضع كل شيء في نصابه و في مكانه الصحيح ، حتى ينبت الجمال في كل مكان حولنا ، فهو يسخر من خلال شفقته وخوفه وحرصه على الآخرين ، وكما قلت في فصل (فلسفة المازني) إنه لم يكن من المتشائمين وإنما كان محبا للحياة عاشقا لها ، وهذا الحب هو الذي دفعه لكي يظهر الحياة على أكمل وأتم صورة ، أراد أن يرى الوجود بدون نقص ، خاليا من كل قبح ، يريد وجودًا ساميًا ، لوم يبدأ بذلك بأن يقتص من الناس لنفسه ، بل اقتص للناس من نفسه أولا وبدأ بعيوبه هو ، ودارت سخريته حوله ، وفي نفس الوقت الذي كان يسخر فيه من نفسه ، كانت سخريته من الآخرين ، لأنه جزء منهم ، ولأنه إنسان رمز لكل إنسان في أي مكان ، **يقول الدكتور (محمد مندور) في كتابه (تجارب في الأدب والنقد) ، صفحة (٤٨) :** (فروح المازني الساخرة تطبع كتاباته بطابع لا يمكن أن تخطئه بين مئات الكتاب . هي نوع فريد من السخرية ، لا يبعث على الشفاه ابتسامة التشفي المتعالية بل ابتسامة الزهو والاشفاق التي لا تلبث أن تمتزج بمرارة الحكمة نفسها ، وذلك لأن المازني يدير سخريته دائما حول نفسه ، حول عيوبه هو ، ولكنك لا تلبث أن ترى هذه العيوب مرتبطة أشد الارتباط بعيوب الآخرين ، بل بعيبك أنت ، فأنت تبتسم أولا ومشفقا عليه ، وراضيا عن نفسك وتبتسم أخيرًا ، وقد رأيت هذه النفس التي كنت راضيا عنها ، وعرفت أنها نفس مليئة بالعيوب ، ولكن العيوب ليست فيك وحدك بل في الناس جميعا قليلة أو كثيرة ، أن سخرية

المازني لا تجعلنا نضحك من عيوب الناس بل تمدنا بالشجاعة على مواجهة عيوب أنفسنا) .

والساخر إنسان متمرد ثوري لا يرضى عن وضع فاسد ، بل يحترق شوقا إلى تغييره ؛ لأن فطرته سوية صالحة ، فهو لا يستريح إلاَّ إلى الصالح ، ولا يستطيع أن يستكين على وضع خطأ أو وضع فاسد ، فيأخذ على عاتقه تغييره ، ولكن بلا عنف وإنما في أسلوب حضاري مهذب ، لا يترك رواسب في النفس من كره أو حقد أو انتقام ، يردي أن يقوم بثورته ولكن بدون أن يكون هناك ضحايا ، إنه انتصار للمجتمع الذي يوجد فيه إنسان بتلك النوعية ، وانتصار للإنسان الساخر ، لأنه استطاع أن يكون عضوًا نافعا للمجتمع ن فهو رقيب وحارس على القيم من أن تتبدل أو تنقلب ، انتصار له لأن اهتمامه تعدى منطقة ذاته إلى ذوات الآخرين وأصبحت مشاكل الآخرين تشغله ليل نهار ، ولم يجد من سبيل لحل تلك المشاكل إلا الدخول معهم في معركة السخرية ، **يقول الدكتور (مندور)** : (وهذا النوع من السخرية لا يمكن أن يكون حيلة أدبية فقط بل هو قبل ذلك ثمرة جهاد طويل هو نوع من البطولة ، معناه أن المازني الشاعر الذي كان اسيرًا في نطاق ذاته قد حطم هذا النطاق ، وخرج يكلمنا كلام إنسان لإنسان ، كلام إنسان لم يعد يؤمن بأن كل ما في هذه الدنيا فاسد – بما في هذا الإيمان من اعتقاد ضمني مخادع بأنه وحده الصالح – بل تعلم أن يقبل الدنيا كما هي ، لأنه تعلم أن يقبل نفسه كما هي ، لهذا نجد المازني دائما قريبا إلى نفوسنا كصديق حميم ، ونجد تشاؤمه – إن كان ما وصفناه تشاؤما – داعية إلى التفاؤل وتنمحي عنده المتناقضات كما لا تنمحي إلاَّ عند كاتب عبقري) .

إن مواصفات الإنسان الساخر قلما تتوافر في إنسان ، لأنه يصبح قيمة في حد ذاته ، عندما الصواب ليعضد ، ويلتقي الخطأ ليقوم ، وقد عرض المازني الكثير من الأوضاع الإنسانية التي رأى أنها في حاجة إلى إصلاح وتقويم ، وأهم ما عرضه ورأى أنه في حاجة ماسة إلى إصلاح وتقويم هو وجود الإنسان .

ثانيا : المسخور منه :

هناك أشياء كثيرة في حياتنا من الصعب التخلص منها بقانون من القوانين ووجودها بوضعها الذي عليه قد يعرقل مسيرة الحياة ، أو ينتقص من إحساس الإنسان بوجوده ، مثل العادات والتقاليد والمعتقدات البالية التي عفى الزمن عليها ولم تعد صالحة لعدم موافقتها والزمن الحاضر ... فحينما يواجه الإنسان مثل تلك الأشياء ، لابد أن يتعامل معها بحرص وحذر ، لأنها تمس وجدان الناس ، وتستمد شرعيتها من خلال هذا الكم الهائل من الذين يمارسونها ، هنا تظهر سخرية المازني لتؤدي دورها ، لأن إذا استهدفت السخرية الهجوم على ما يبجله الناس ويحترمونه من عادات وتقاليد وأعراف ، فإن عملها هذا لا يترك في النفوس شيئا من العناد أو الإصرار على التمسك بالشيء الخطأ أو الذي لا يستند على عقل أومنطق ، بعدما ظهر لهم الخطأ في التمسك به ، فهي لا تفضح المسخور منه جهرًا ، أو بصورة صريحة أو بأسلوب فج ، حتى لا تاخذه العزة بالإثم ، وإنما تترك له متسعا من الوقت وفرصة كبيرة ليعيد حساباته ويحاول تقويم نفسه ، بدون أن تمس كرامته ، **يقول الدكتور (الهوال) :** (إن الألوان الأخرى من العقاب قد تثير أحقادا وضغائن وتخلف رواسب ترزح تحتها الحياة زمنا طويلا ، وتحملها من العناء فوق ما تحملها إياه بعض المتناقضات التي أشرنا إليها . بينما لديها هذا اللون من العقاب الذي قد لا يقل صرامة عن الألوان الخرى بل ربما زاد عنها تأثير أو فعالية ، دون أن يترك في معظم الحالات على الأقل أي آثار هدامة ، وإذا ترك فإنما يترك حركة عامة يتأثر بها الفكر ، والفن والأخلاق ويشغل بها المجتمع فتزيده ثراءً روحيًا كبيرًا).

وقد لا يستطيع الكاتب أن يتوجه بالنقد الصريح إلى السلطات التي تبطش بمن تسول له نفسه أن يتناولها بالنقد ، فتلك السلطة منحرفة عن الجادة ، وفاسدة وفي حاجة إلى أن يظهرها الكاتب في تلك الصورة ، وان يخلع من فوقها سرابيل الزيف حتى تظهر للناس على حقيقتها ، كي لا يلتبس الحق بالباطل ، يريد أن يفعل هذا ولكن بدون أن يعرض نفسه للعقاب ، فلا يسعفه في تلك المهمة الخطيرة غير السخرية ، والتاريخ – وبالأخص المصري – حافل بتلك المعارك والمواقف التي كان يلجأ فيها الشعب إلى سلاح السخرية حينما يكون هناك سلطة متجبرة تبطش بكل ما يعتز به الشعب وتنقض على حريته وكرامته ، هنا نجد الشعب يلجأ إلى السخرية يتخذها سلاحا ليحارب به ويدافع بها عن نفسه ، وليقول كلمته كلمة الحق ضد الضلال والظلم بدون أن يعرض نفسه لبطش السلطة الغاشمة أو الحاكم الظالم ، **يقول د/ (الهوال)** : (وقد تكون العيوب التي تثير التهكم والسخرية خطيرة ولكنها في حماية السلطات ، ومن بيدهم الأمر ، وقد يعرض نقدها إلى عقاب ولكن من الخطر الكبير أن تترك هكذا دون مقاومة حتى تكون لها السيادة والكلمة العليا على المجتمع ، فلابد من مقاومتها والوقوف ضد تيارها والتضيق عليها حتى تسقط في النهاية) .

فهي – السخرية – سلاح المغلوب على أمره ضد الظالم أو المستبد الذي يبطش بكل من يقترب منه ناقداً أو مقوماً ، وأيضاً ضد العادات والتقاليد والمعتقدات التي لا تستطيع أن ننقدها نقداً سافراً ، وقد وجه المازني سلاحه إلى كل تلك الأشياء وإلى الطمع والتكبر والغرور ، وأعطى لكل شيء حجمه الصحيح والطبيعي حتى يكون وجود الإنسان وجوداً حقاً يستند على أسس سليمة ، وليس على أساس واهي في الضعف .

مقالات مختارة

إذا كنا في الصفحات السابقة قمنا بدراسة نقدية في أدب المازني ، تضمنت تلك الدراسة تحليلاً لبعض قصصه ، فإن تلك الدراسة لا تكتمل لمعرفة أدب المازني معرفة كاملة بدون أن نعرج للإطلال على بعض مقالاته ، لأن المقالة احتلت مساحة واسعة من نتاجه الأدبي ، وربما بعد أن كتب الشعر والرواية والقصة رأي أن المقالة هي الشكل الأنسب لطبيعة شخصيته أو المرحلة التي يمر بها من ناحية وأنها الألزم لما تمر به مصر من تغيرات وتبدلات من ناحية أخرى ، فعكف زمناً يكتب المقال في أغلب الصحف والمجلات التي تصدر في القاهرة ، **" إن مقالات المازني في الصحف لأكثر من أن تحصى .. وإن أي إحصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها ..لقد بلغ مجموع ما أحصاه كتاب أعلام الأدب المعاصر في مصر : إبراهيم عبد القادر المازني ، الذي أعده الأستاذان حمدي السكوت – ومارسدن جونز – من مقالات نشرت للمازني في مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالا .. وذلك إضافة إلى كتبه وأحاديثه "** [١] .

أظن أن هذا العدد من المقالات يعكس صورة واضحة لأدب المازني ، بل أن أدب المازني بخصائصه وسماته المميزة لم يتبدى ويتجلى كما ظهر في تلك المقالات وربما أن الشعر والقصة التي عالجها المازني لم تكشف عن عبقريته كما كشفت المقالات ، وأظن أن قراء العربية لم يعرفوا المازني تلك المعرفة الوثيقة إلاَّ من خلال تلك المقالات ، فهي التي أذاعت صيته ، ووضعته في مكانه من كتاب العصر الحديث ، وكان صاحب فضل على

[١]- المازني ساخر العصر الحديث – د . أحمد السيد عوضين – (١٠٠) .

الصحافة أو على المقال الصحفي ، كما كانت الصحافة صاحبة فضل عليه ، فتبادل الاثنان الفضل " ولا شك أن الصحافة كان لها تأثيرها – ليس على أسلوب المازني – وإنما في اختياره لمفرداته اللغوية التي يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه ..نعم .. فقد غيرته الصحافة ، أو غير هو من أسلوبه ليتلاءم مع وسيلة النشر – صحفا ومجلات – لا تقتصر قراءتها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة الميسرة والألفاظ الشائعة ، ويتحاشى كل ما هو مهجور غير مطروق ، سواء في تركيب الجمل أو في اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازني كان لا يتحرى الجمال في صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العامية ، أو لا يحرص على سلامة اللغة .. بل استطاع في يسر أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة – التي وصفت بأنها اللغة الشاعرة – وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط .

وقد نجح المازني في هذه الموازنة نجاحا غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها في هذا النجاح ، فقد راح يصوغ مقالاته في أسلوب سلس ورقيق ، وإن ظل متساميا إلى الجمال ، محافظا على روعة التعبير .

وكان حرصه الأكبر – فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة – على تحري الوضوح في الإبانة عما يريد قوله ، والإفصاح في بساطة عن المعاني التي يطرحها على قارئه ..فهو لا

يعرف الغموض أو الإبهام ، ولا يلجأ إلى الرمز والإلغاز ، بل يعمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح ، وما كثرة الجمل الاعتراضية في أسلوبه إلاَّ لهذا الحرص على زيادة الإيضاح ، وعلى تاسي أدنى احتمال للخلط أو للخطأ "[1].

وإذا كانت المقالة – عند المازني - تجلي ملامح وسمات وخصائص أدبه فإنها كاشفة – بكل وضوح – عن ملامح وطراز تلك الشخصية ، والتي استطعنا أن نرصد ونسجل بعض – وليس كل – تلك الملامح والخصائص من خلال دراستنا لأدبه في الصفحات السابقة " **ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، تعتمد في المقام الأول على تجليتها للشخصية الإنسانية تتوارى خلفها في خفة وحياء .. إن شخصية الكاتب الأليفة العذبة هي التي تستهوى القارئ ، وتملك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر ، وجاذبية وتألق وذوق مصقول لا تفسده فظاظة ، ولين لا يتدنى إلى درجة الميوعة ، وكذلك مقالات المازني لا تستهوينا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء المنيرة ، بل بما فيها من براعة في التصوير ، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبسا وتجهما** " (٢)

وتلك بعض المقالات التي اخترناها وفيها ، وهي تكشف عن أمرين – كما قلنا – خصائص أدبه **وسمات وطراز شخصيته :**

---

[1] - نفس المصدر (٤٦) .

[2] - دكتور محمد يوسف نجم : فن المقالة – نقلا عن كتاب : المازني ساخر العصر الحديث – د. أحمد السيد عوضين (١٠١)

الحياة المصرية ينقصها المرح

نشر في : جريدة الوادي بتاريخ يوليه - ١٩٤٥

لا أعرف كيف حياة أهل الثراء والسعة والخفض فإني لست منهم، ولا عهد لي بهم، وإنما أنا من الشعب وإليه، وقد نشأت فقيرًا، وما زلت — بحمد الله — أفقرَ الفقراء إلى الله وعونه، وأبغض الناس إليَّ وأثقلهم على نفسي المتطري المتدلِّل.

ولكني أعرف حياة الأوساط العاديين من أمثالي، وهي في الأغلب والأعم جافة قابضة خانقة مع الأسف؛ لأن القاعدة التي تقوم عليها مقلوبة، والقضية فيها معكوسة، فالرجل يعتقد أنه ينبغي أن يكون في بيته السيد الآمر المطاع، ولست أنكر عليه ذلك؛ فإن هذا حقه على أن يعرف كيف يستعمله دون أن يُغفل واجبه فإن كونه هو رب البيت أو سيده ليس معناه أن الذين معه فيه عبيد أرِقَّاء وخدم أذِلاَّء، وما أكثر ما يكون معنى السيادة علو الصوت، وكثرة الصياح، وسرعة الغضب، وعنف المقال، وشدة الزجر. ونرى الرجل يكون في بيته ومع زوجته وبنيه كالِحَ الوجه مقطَّب الجبين، شكسًا شرسًا، حتى إذا خرج تطلَّق وجهه، وأشرقت ديباحته، وكثر ضحكه، وصار خير أنيس وأظرف جليس، فالنفخة الكذابة والمرح للإخوان دون الأهل.

وهذا الحال المقلوب يرجع إلى أمرين على الخصوص فيما أرى: الأول الخطأ الشائع بين الأوساط العاديين، وخلاصته أن المرأة لا يجوز معها إلاَّ الشدة، وأن ذلك أجدى وطريقة أقصر من تكلُّف سياستها بالحكمة والحسنى. وما زلت أذكر قصة قصها على قريب لي وأنا حدث، وأكبر ظني أنه أراد أن يعظني ويدلني على النهج الأقوم قال إن «جُنديًّا» من الأتراك القدماء تزوج، فلما كانت ليلة الجلوة، ودخل على امرأته، وجلس معها إلى المائدة رأى قطة، فاستل سيفه وضرب به عنقها، ثم مسح الدم وأغمده فريعت المرأة المسكينة واستقام أمرها بعد ذلك! وأحسب أن كثيرين حتى ممن لم

يسمعوا بهذه القصة، يُؤثِرون أن يكونوا مع زوجاتهم على هذا النحو؛ أي وحوشًا تُخشى ويُتَّقَى شرها لا بعولاً تُحب وتُحترم.

وقد يستطيع الرجل أن يكون مرهوب الجانب كهذا «الجندي» السياف ولكن امرأته إذا كانت ذكية أديبة تستطيع أن تَركبه كالحمار وتدعه يتوهم أنه هو السيد الذي تُفزعها نظرته، وتصعقها صيحته، بل لعلي لا أعدو الحقيقة والواقع حين أقول إن مثل هذا الرجل لا يكون زمامه إلاَّ في يد امرأته وهو لا يدري - أو يدري ولكنه لا يعرف له حيلة إلاَّ أن ينقاد — ثم يروح يتعزى بأن يُظهر الغطرسة والتجبر من حين إلى حين، وهو واثق أن امرأته لا يشق عليها أن تلين له مرة وتسايره وتحاسنه ليسلس لها قياده في غير ذلك وفيما هو أهم عندها.

والأمر الثاني الذي يرجح هذا السلوك الأعوج هو ظن الكثيرين أن الاحترام لا يكون إلاَّ بالجهامة والشتامة، وأن التبسط أو المرح يُضيع الهيبة وأن التَّفَكُّهَ يُنافي الوقار، وأنا ما أظن إلاَّ أن العكس هو الصحيح؛ أي إن تكلف الجهامة بلا موجب تُغري بالسخرية، وأن الحرص على مظاهر السمت والأبهة في غير موضعها - أو ما يسميه العامة النفخة الكدابة - تجعل المرء عرضة استهزاء وعبث، وما على من يشك في ذلك إلاَّ أن يجعل باله إلى الأطفال في البيوت وكيف يقلدون الكبار، فلن ترى طفلاً يقلد كبيرًا من أهل الظرف والدعابة والمرح، وإنما يقلد من يتكلَّف الوقار وصرامة الجد ومن ينفره بالعبوس والزجر.

وقد كُنَّا تلاميذ صغارًا فلم يكن أبعث لنا على التشيطن من المعلم الصخب الذي لا يقدر على كَفِّ جفوته وشراسته وصلفه؛ فكنا نرسمه على السبورة على هيئات مضحكة، ونكتب له بالطباشير الملون على الجدران كلامًا مزريًا، ويقف بعضنا في الصف أو الفصل فيروح يقلد حركاته وإيماءاته ولهجته ومشيته ونفخته وكنا قَلَّمَا نهدأ أو نُحسن الإصغاء إلى درسه، وكنا ربما بلغ من اجترائنا عليه أن نقلده على عينه فإذا دعا أحدنا إلى القراءة مثلاً أو ألقى عليه

سـؤالاً، نطـق كمـا ينطـق، ونفـخ أوداجـه كمـا ينفخهـا فينفجـر التلاميـذ ضاحكين، ويطير عقل المعلم ولكن ماذا يصنع؟ وكنا ربما ركبناه بشر من هذا العبث الخفيف المحتمل، فيستجير ولا يجير، ويلجأ إلى الناظر شاكيًا متسخطًا فلا يجديه ذلك بل يؤذيه أن يعرف الناظر أنه لا يستطيع أن يحفظ النظام وأنه لا احترام له عند التلاميذ. أما المعلم الظريف اللطيف فكنا نُقبل على دروسه ونطيعه لأنه يشعرنا أن بيننا وبينه صلة مودة، ولأنه ينعش نفوسنا بما يفيضه على درسه من المرح الخفيف.

وما يقال عن الرجل يقال مثله عن المرأة؛ فإنها لا تبرأ من التبعة عن ثقل وطأة الحياة في بيتها وجفافها ويبسها، والبيت مملكة المرأة كما يقولون لأن الشأن فيه كله أو معظمه لها، فكيف تسوس هذه الدولة الصغيرة؟ لا شك أن هناك سيدات فضليات يُحْسِنَّ سياسة هذا الملك الصغير، ولكنه لا شك كذلك في أن اللواتي لا يُحْسِنَّ السياسة أكثر من اللواتي يُحْسِنَّهَا، ولك أن تقول إنهن هُنَّ الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، ومنهن من تؤدي عملها المنزلي بنفسها ولا تَكِلُهُ إلى خادمة أو خادم، ولكنها قَلَّمَا تبدو في بيتها إلا في مباذلها، فلا ترتدي ثوبًا مقبولاً إلاَّ لتخرج أو لتستقبل ضيوفها، وقَلَّمَا تكف عن الشكوى مما تعاني، وقلما تجلس إلاَّ على هيئة منفرة، وخدها على كفها، وقد تكون معذورة إذ هي ضجرت وسئمت واشتكت من التعب والعناء.

ولكن الرجل ليس أحسن منها حالاً؛ فإنه هو أيضًا مكدود مرهق سأمان وليس مما يخفف عنها أو عنه أن تتلقاه هكذا: الثياب رثة، والخد على الكف، والعين كالزجاجة لا معنى فيها ولا حياة، والوجه ساهم والشفتان مطبقتان، فإذا نطقت تأففت وتوجعت وتكلمت بكلام الضجر والتعب، وإذا حاول أن يلاطفها ويمازحها رَجَتْ منه -إذا كانت فيها رقة وأدب- أن يدعها لحالها، وإذا كانت طويلة اللسان شكسة الطباع أسمعته ما يكره، وألطف ما تقول له: «اذهب إلى غيري فمازحها فإني لا أحب المرح.» ويدور الرجل يَنْشُدُ ما يسليه ويُرَفِّهَ عنه

فلا يجد شيئًا، حتى الحديث الطيب لا يفوز به، أفليس معذورًا إذا فَرَّ من البيت إلى المقاهي؟

ولست أُبَرِّئُ الرجل فإنه شَرٌّ من امرأته، وفي وسعه أن يروضها على ما يوافقه، ولكنه نشأ فألفى البيت هكذا قابضًا خانقًا فجرى على سنة أبية وراح مثله يعد البيت سجنًا أو فندقًا للنوم ومطعمًا على أحسن الوجوه.

والبنون والبنات مصيبتهم كبيرة: لا يسمعون إلاَّ الشتم والتوبيخ واتهامهم بقلة الحياء وسوء الأدب كلما تحركوا أو ضحكوا أو لعبوا، كأنما لا بد أن يكونوا دُمًى وأصنامًا في السن التي تكون حيواتهم فيها مظهرها الأكبر حركة البدن.

ونحن أمه فيها فكاهة قوية، ومع ذلك نحيا حياة تقصر العمر، ومن الخطأ أن يظن أحد أن المرح خارج البيت يُغني عنه في داخله؛ لأن البيت هو الأصل والحياة فيه هي التي عليها المعول، أما ما يظفر به خارجه فبمثابه «التصبيرة» أي شيء يستعين به الإنسان على الاحتمال والصبر حتى يعود إلى بيته فيظفر بما كان يتطلع إليه ويتشدد ويتجلَّد حتى يجيء أوانه.

والمرح يطيل العمر — هذا ظني، بل يقيني — والأعمار بيد الله، ولسنا نعرف ما كتب الله لنا في لوحه وغيبه، ولكنا نعرف أن المرح يشرح الصدر ويصلح ما يتلفه الكَدُّ من الأعصاب، ويجعل المرء أصفى ذهنًا وأقوى على العمل ومواصلة الكدح وأكثر جَلَدًا وأقدر على المقاومة والكفاح وأقل استعدادًا للتهافُت والتضعضع.

وليس المرح من الاستخفاف، فالرجل المرِح لا يُعَدُّ قليل الاحتفال بالأمور الجدية أو سيئ التقدير لها؛ لأن صحة التقدير لا تنافي إعطاء النفس حقها من السرور الذي يشد الأعصاب ويصلحها ويعالج تلف الأنسجة في البدن، ولماذا نسمع الموسيقى والغناء ونشهد الروايات الفكاهية وما إلى ذلك؟ ولماذا نقسم حياتنا هذه القسمة العجيبة، فنجعلها في البيوت كربًا عظيمًا وهمًّا ثقيلاً، وخارجها مرحًا وطربًا، والعكس أولى؛ فإن البيت سكن، والذي فيه أعز

الناس علينا وأحبهم إلينا فهم أحق بأن نجعل حياتنا معهم كلهم بهجة وبشاشة وسرور. كان لي صديق أغناه الله عن الكدح في سبيل الرزق، وكانت داره من الطراز القديم، «فالحريم» له جناح والرجال لهم جناح مستقل، وكان يندر أن يبرح بيته، ولم يكن له أولاد، فليس في البيت إلا زوجته وخدمه من النساء والرجال، فكان إذا استيقظ ضحى، يخرج إلى جناح الرجال فيبقى فيه إلى الهزيع الثالث من الليل، يتغدى وينام، ويشرب قهوة العصر، ويقبل زواره فيجالسهم ويحادثهم ويمازحهم، ويتعشى وحده أو مع من يشاء من ضيوفه، ويقضي بقية السهرة مع من يبقون ممن يطيقون السهر أو بمفرده، ثم يدخل لينام وكنت أستغرب حياته هذه وأستهجنها، ويدركني العطف على زوجته المسكينة، وألومه على ذلك، **وأقول له فيما أقول**: إنك لا تعدُّهَا زوجة وإنما تعدها «أنثى» اتخذتها في بيتك، وإني أخشى عليها، فيسخر مني ومن فلسفتي، غير أن زوجته المسكينة جُنَّتْ؟ ولعله لم يكن يحبها، فما أدري، ولكن لماذا كان يمسكها إذن؟ وقد كان بادي الرضى بحياته هو، ولكن الزواج مشاركة، وليس من العدل أن يستأثر الرجل بما فيه له رضوان؛ فإن لامرأته حقًّا في ذلك.

احرصوا على المرح في بيوتكم؛ فإنه لا يغني عنه ما تظفرون به خارجها.

الكتابة وثقلها

نشر في : جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ : أكتوبر ١٩٣٠

قد أعرف لماذا أقرأ وما يستهويني من الكتب ويغريني بالإطلاع، فإن أقلَّ ما في ذلك أنه نَقْلَةٌ إلى عالم غير دنيانا الحافلة بالمُنغِّصات المائجة بالمتعبات، ولكني والله لا أدري لماذا أكتب؟ ولست أراني أفدت شيئًا ولا لي أمل في شيء، وأحسبني بين الكُتَّاب الوحيدَ الذي يعيش بلا أمل جادٍّ أو طمع مستحث، بل لعلي الكاتب الوحيد الذي يعتقد أن الدنيا لا تخسر شيئًا - وقد تكسب - إذا خَلَتْ رقعتها من الأدباء والشعراء، واعتقادي هذا فرع من أصل أعم وأشمل، هو أن الدنيا لا تنقص إذا قضت «الحياة» نفسها نَحْبَها فلا إنسان ولا حياة ولا نبات، وقد غَيَّر زمنٌ كنت فيه مجنونًا كشيللي، فالآن صار جنوني بهوان الحياة وغرور الإنسان وعبث العيش كله، وما لقيت نعماء أو أصابني ضراء إلاَّ قلت **كما قال سليمان بن داود**:

«باطل الأباطيل، الكل باطل» حتى لقد هممت أن أسمي كتابًا لي «باطل الأباطيل»، كما سميت آخر «قبض الريح»، وثالثًا «حصاد الهشيم»، فليس إيثاري لهذه الأسماء عن تواضع كما توهَّم البعض، بل عن نزوع إلى الاستخفاف حتى بالنفس، وعن شعور قوي بمرارة الهوان الذي أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها.

وليس أبغض إليَّ من الكتابة، ولا أثقل على نفسي من تناول القلم، وما أعرفني كتبت شيئًا إلا بعد أن أَعْيَا بالتهرب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل فإني لا أطيق السكون، ومن أغرب ما يحدث أني أراني — كلما أردت الكتابة — أحاول قبل معاناتها أن أُعزِّي نفسي بأحلام اليقظة، فآوي إلى فراشي وأستلقي عليه وأغمض جفني وأذهب أحضر إلى ذهني صورًا شتَّى من الحياة كما أشتهي أن تكون، على قدر ما يستطيع خيالي أن يُلفِّق، ولا أزال

كذلك حتى يغلبني النعاس أو ينهضني الشعور بالواجب، إذا كان الوقت أضيق من أن يتسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحب الأحلام ولا أؤثرها على الحقائق.

ولو كانت القدرة على اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقًا - على الأرجح أن أكون أنشط إلى الكتابة، ولكن اختيار الموضوع أشق عليَّ وأشد عذابًا من الكتابة نفسها على فرط مقتي لها واستثقالي لمعاناتها، وأنا أحسُّ — حين أعالج أن أهتدي إلى موضوع صالح للكتابة — كأن رأسي قد صار «قهوة برابرة» أعني مكانًا يكثر فيه اللغط وتشتد الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهم الناس بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي، كل ما فيه ضجة عالية مرهقة تنتهي بالصداع والعدول عن الكتابة أو إرجائها إلى وقت آخر أحس فيه أني أصح وأكثر تهيُّئًا لها.

والواقع - عندي على الأقل - أن نفسي لا تكون متهيِّئة للكتابة في كل وقت أو كلما أردت، ويُخيَّل إليَّ أن هناك أُوَيْقاتٍ تحس فيها النفس مثل نشوة الخمر وهذا هو الذي أعنيه بالتهيؤ، وقد كنت أُجرِّب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سراح ورواح؛ أعني لما كنت غير مطالب بالكتابة، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعة وعملاً أُؤَدِّيه وأنا كاره لتكرره يومًا بعد يوم بلا راحة أو استجمام، ولقد سألني بعضهم — في رسالة بعث بها إليَّ — لماذا لا أقول الشعر الآن، وليس لي من جواب عن ذلك سوى أن الصحافة هي التي قطعتني عنه، والصحافة تُكسِبُ الكاتب مرونة في الأسلوب وسرعة في الأداء، ولكنها تفسد عليه «فن» الكتابة، ولا سبيل إلى الاستغناء عن «الفن» في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصحف - المصرية على الأقل - وأقول المصرية لأن الكاتب فيها مرهق، يضطلع بأكثر مما يجوِّد معه العمل، وهي في بلادنا تغني النفس وتقمع النشاط وتغري باليأس؛ لأن المرء يكون فيها كالذي يُضرب بالسياط، لا يحس الدنيا حوله، وإنما يحس العذاب الذي هو فيه.

أحسبني كففت عن الشعر أيضًا لأني أعلى به عينًا، أعني أني انتهيت إلى أنها إحدى اثنتين: فإمَّا أن يقول المرء شعرًا من أعلى طبقة وإما أن يريح نفسه ويريح الناس فلا خير في غير الكلام الخالد على الدهر، وأنا أَعْرَفُ بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسي وقلت «هذا كلام فارغ، وأولى بي أن أعرف قدر نفسي، فلأقلع» ورميت ديواني، حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقيًا!

والشعر- على كونه إلهامًا - فن يسلس بالمرانة، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطرًا واحدًا، وحسنًا فعلت، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط؛ فإنه فيها كثير بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فُطِرَ عليه الإنسان.

المـــــال

نشر في جريدة : السياسة الأسبوعية بتاريخ : يوليه ١٩٣٢

أوصاني أبي وأبوه وكل جَدٍّ لي إلى الشيخ آدم أنْ أكنز المال، قالوا: والمال عصب الحياة، بل هو الحياة، ولا قيمة لشيء في الدنيا بغيره، وليس بحيٍّ مَنْ ليس له مال وغاية حظه أنه موجود في الدنيا ومحسوب في الأحياء على التسامح، **قالوا**: ولا حرية لفقير، ولا حق لمُعْدِم، ولا كرامة لمفلس، وإذا لم يكن للإنسان مُدَّخر حين يمد اليد حتى إلى الأجر الذي عملتْ به، فقد خضعت رقبته لمُعطِيه حقَّه، وهان عليه أمره.

قالوا: وكن مَن شئت أو ما شئت أدبًا أو علمًا أو خُلقًا، فليس بمُجدِيك هذا فتيلًا ولا رافعك كثيرًا أو قليلاً، إذا كنت فقيرًا، وأحرِ حينئذٍ بالأدب أن يكون من ذنوبك التي تُحصَى عليك، وبعلمك أن يكون مدعاة لكرهك أو استثقال ظِلِّك وبالخلق الذي أنت عليه أن يَجُرَّ عليك الهضيمة والغمط والاستخفاف، ثم كن من شئت فراغًا أو جهلاً أو سوء خلق، فلن يضيرك هذا إذا كان لك مال، فإنه شفيع لا يخيب وستر لا يُكشَف، ودرع سميكة تقيك وترد عنك النصال مكسرة، ولا تصدق أن في دنياك عدلاً، أو أن القوانين تكفل لك حقًّا، أو أن كونك إنسانًا يجعلك مساويًا لأي إنسان سواك، إنما العدل هو المال، والحق هو المال، والمساواة هي المال، وعلى قدر مالك تكون الرغبة في إنصافك، والاجتهاد في إعطائك حقَّك وتقديمك أو تأخيرك ورفعك أو حطِّك، بل نظرة الإنسان إلى الإنسان تَرِقُّ أو تجفو، وتدعو أو تَطْرد، وتكرم أو تهين، وترحب أو تغضي، ويلمع فيها نور البشر أو يفترها الملال أو يسودها النفور تبعًا لمالَيْهِمَا، والمال يقلب المذامَّ محامد، والفقر يعكس الآية ويقلب القضية.

قالوا: ولا ديمقراطية ما دام أن في الدنيا شيئًا اسمه المال؛ لأن المال يقسم الناس فريقين: غنيًا، أي ليست به حاجة، وفقيرًا، أي به حاجة؛ ولا يستوي مستغنٍ ومحتاج، وكل ما يحاوله الإنسان من تنظيم حياة الخلق على قواعد الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما مما يمكن أن يخطر له، عبث وباطل ومحال، فاعرف هذا واجعل وَكْدَكَ جمع المال وتكديسه فإنه أجدى عليك من كل تعبك تحت الشمس.

قالوا: وقد كان اليونان الأقدمون يزعمون في بعض أساطيرهم أن المرء بعد الموت ينحدر إلى وادي الأشباح، وهناك يتلقَّى «أتروب» الموتى ويحصيهم، ويسلمهم إلى «شارون» النوتي لينقلهم على زورقه ويعبر بهم نهر «ستيكس» - أو نهر النسيان إذا شئت - إلى حيث يحاسبون، والنقل على الزورق بأجر، ولا بد أن يؤدي الميت هذا الأجر إلى شارون النوتي، وإلا امتنع عن نقله، وتركه معلقًا بين الدنيا والآخرة!

فحتى الآخرة فيما تصف هذه الأساطير الإغريقية يلقَى فيها ذو المال التيسير ويشقى فيها الفقير، فاعرف هذا ولا تنسه.

والمال هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والضعة والكرامة والمهانة والقوة والضعف، والقدرة والعجز، ولا تصدق من يقول لك غير ذلك، جرِّد الدنيا من المال تمحُ كل هذا، وتترك الحياة باهتة مسيحة لا لون لها ولا طعم، ولا طماح فيها ولا سعي، ولا شيء من المغريات بهما، وقد أضنى الفلاسفة عقولهم في البحث عن أصل الخير والشر وغير ذلك، والأصل تحت أعينهم، وهل ثَمَّ أصل غير المال؟ ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك، فما عليه إلا أن يتصور الدنيا - إذا وسعه ذلك -وقد خلت من المال، فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أية قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم، وعلى أنه لا حاجة بأحد أنه يرهق نفسه ويكلفها أن تتصور هذا الذي يكاد يستعصي على الخيال، وبحسب مَن شاء أن يفكر في أية خلة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإن التأمل حقيق أن

ينتهي به إلى الإيقان بأن المال ـــ كائنة من كانت صورته ـــ يوشك أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة «التسمي»، وأعانها على البروز بعد أن هيَّأ لها أن تُعرَف بأسمائها، ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكَّدها وأظهر الكامن فيها، وأقام المعالم ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن «ليكرج» المشترع الأسبرطي فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفي عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تُسكَّ من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تُتَّخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوي، لا تساوي شيئًا يستحق الذكر، فكان أن كفَّ الناس عن ادخار المال؛ لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطعة صغيرة من الذهب وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم، إذ كان الحديد لا يُقتنَى ولا هو يشتري شيئًا، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرَق، فبطل التلصص وانقطع السطو وامتنعت الخيانة وما إلى ذلك، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارًا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتخذت النقود دومًا إليها في أول الأمر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تُطلَب لذاتها وتُجمَع وتُدَّخر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة؛ فتسابق الناس إليها، وتهالكوا عليها، وانقلبت غرضًا يُطلَب ويُسعَى له، وإن كانت قد ظلت مع ذلك وسيلة إلى ما وراءها مما تُعِين عليه، وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية،

وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح وأطفاه على اللُّجَّةِ، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة حتى إذا جاش وأزبد قذف بما في جوفه من طيِّب وخبيث.

قالوا: وليس أقوى من المال إلاَّ القدرة على الاستغناء عنه، فمن كره أن يحشد المال ويشد به أزره ويقوي به ساعده، فلينفض منه يده، ولما كان المال هو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتُجِلُّه وتحقره، وتفرح به وتحزن له، فنفضُ اليد منه معناه ومُؤدَّاه نفض اليد من الدنيا نفسها، وإذا كان المال قوة، فإن أقوى القوة أن تستغني عن القوة، والزاهد الذي يصفِّي نفسه ويخنق شهواتها ويقتل أهواءها ويروضها على الاستغناء عن كل ما يطلبه الناس ويسعون له ـــ هذا يخلق من روحه قوة تربى على قوة المال ولا تباليها.

قالوا: فإما أن تغنَى أو تزهد، وإلاَّ عشت محتاجًا إلى الناس، والناس من تَعرِف كذلك أوصاني أبي وأبوه وأجدادي إلى آدم.

صور وأخلاق : المال

نشر في مجلة :الجديد - بتاريخ مارس١٩٢٩

المال هو الفضيلة والرذيلة، وهو الخير والشر، وهو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخَّطه، وتُجلُّه وتحقره وتفرح به وتحزن له، والناس بالمال، والرجل بلا مال لا رجل ولا شيء له حساب أو قدر، ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك أو لا يصدقه فما عليه إلاَّ أن يتصور الدنيا- إذا استطاع - وقد خلت من المال فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أي قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم؟ وعلى أنه لا حاجة بأحد إلى إرهاق النفس وتكليفها أن تتصور هذا الذي يستعصي على الخيال، وبحسب من شاء أن يُفكِّر في أية خُلَّة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإنه حقيق أن ينتهي به التأمل إلى الإيقان بأن الذي اخترع النقود يوشك

أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة «التسمي» وأعانها على البروز بعد أن هيَّأ لها أن تُعرَف بأسمائها، ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكَّدها وأظهر الكامن منها، وأقام المعالم، ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن أحد المشترعين من الأغارقة الأقدمين فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفعله في عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تُتَّخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوي، لا تساوي شيئًا يستحق الذكر، فكان أن كف الناس عن ادخار المال لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطع صغيرة من الذهب، وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم إذ كان الحديد لا يشتري شيئًا، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرَق، فبطل التلصص وانقطع السطو وما إليه، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها، وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتُّخِذَت النقود أو ما إليها في أول الأمر وسيلةً لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تُطلَب لذاتها وتُجمَع وتُدَّخَر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة، فتسابق الناس إليها وتهالكوا عليها وانقلبت غرضًا يُطلَب ويُسعَى له وإن كانت قد ظلت مع ذلك «وسيلة» إلى ما وراءها مما تعين عليه، وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية،

وكشف عن المستور، ودفع بـه إلـى السطح، وأطفاه علـى اللُّجَّـةِ، والمـرء فـي سـكونه غيـره حـين يهتاجـه شـيء، كـالبحر لا تـرى منـه وهـو سـاكن غيـر صفحته المصقولة، حتى إذا جاش وأزبد قذف بما في جوفه من طيب وخبيث.

فالمال داء الإنسانية وليس له مـع الأسف دواء ولا منـه شفاء، وأحس مـا يكون المرء بذلك حين تصفر كفه وتسد الآفاق في وجهه.

في الكتابة والكتب

نشر في جريدة البلاغ- يونيه ١٩٤٣

كتب بعض الأفاضل يسأل عن «المازني» ما له لا يخرج للناس كتبًا في هذه الأيام. وكتب إليَّ بعض الإخوان — قليل منهم — يسألني عن السر في هذا الصمت أو الكسل، أو عن داعيه، ويَحُضُّنِي على التأليف والإنتاج، وروى لي أصدقاء أوفياء أحاديث بهذا المعنى دارت في مجالسهم.

فالمسألة إذن تستحق أن أقول فيها كلمة على سبيل البيان لا الدفاع، فما يحتاج من لا يصنع شيئًا إلى دفاع، أو هو عسى أن يكون الدفاع منتظرًا منه، ولكنه يستطيع أن يلزم الصمت بلا ضير عليه، وأحسب أن السؤال لم يَبْقَ له مَحَلٌّ بعد أن أخرجت ثلاثة كتب في شهرين، دفعنا اثنين منها إلى السوق وهما «عود على بدء» و«إبراهيم الثاني» وفرغنا من أمرهما وحبسنا الثالث وهو «ميدو وشركاه» بضعة أيام لسبب خاص ثم نلقي به في الموعد الذي آثرناه له.

غير أن هذا لا ينفي أني لبثت زمنًا لا أخرج شيئًا من كتبي فهل كان لهذا داعيه؟

ويحسن قبل كل شيء أن أتقي تهمة الكسل، وإن كنت أعترف أني أكسل خلق الله، وأزهدهم في كل عمل وأرغبهم في راحة، فإن عندي بضعة كتب أخرى — خمسة إذا أردت الدقة — لا ينقصها إلاَّ أن أجد ما يشجع على تهيئتها للطبع كأن أجد الورق، أو المال الجم الذي يكفي لاقتناء ضيعة، فأشتري به هذا الورق العزيز الذي صار يساوي وزنه ذهبًا، أو يتيح الله لي ناشرًا ظريفًا منصِفًا لا يغبن، وقنوعًا لا يطمع، ولا يجعل همه وكده أن يقنع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه! أو ناشرًا يتحلى بهذه الصفات الحميدة، وعنده فوقها الورق الكافي. وما أكثر الناشرين الظرفاء، ولكن البلاء هو الورق، وأنك لا تعرف هؤلاء الناشرين أو لا تستطيع أن تعرض نفسك على من تعرف منهم، أو أنا على الأقل لو يدخل هذا في طاقتي، وإني لأوثر للكتاب أن يُحرق

على أن أعرضه فيُعرض عنه من تخاطبه فيه، وعسى أن تكون هذه أنفة لا مسوغ لها، ولكن الله يخلق الناس كما يشاء هو لا كما يشاءون.

وليس بكسلان فيما أظن من يستيقظ قبل الطير وقبل أن يتنفس الصبح صيفًا وشتاءً ثم يتوكل على الله ويجلس إلى مكتبه من الخامسة إلى ما بعد التاسعة، ويقضي هذه الساعات الطوال التي يطيب فيها النوم في قراءة أو كتابة، ثم يغدو على «البلاغ» فيؤدي له حقه، ثم ينصرف إلى غير ذلك ممَّا يكون عليه عمله ثم يتغذى متوخيًا التقليل والتخفيف، ويستريح نصف ساعة، ويقوم مرة أخرى إلى كتبه وأوراقه، حتى إذا كانت السادسة تمشَّى قليلًا، أو باشر أمرًا آخر، ثم عاد في الليل على مكتبه فبقي فيه إلى منتصف الليل وزيادة، إلا أن يسقم فلا يبقى له معدى عن الكف.

وليس معجبًا - وهذا ما وصفت من سيرتي على الجملة - أن ينتابني الملل أحيانًا حتى لأهم بأن أوقد نارًا أُلْقِي عليها كل ما عندي من كتب وأوراق، وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيق النظر إلى كتاب، وأروح أتساءل: «ما الفائدة؟ فِيمَ كل هذا العناء؟» لن تنقص الدنيا شيئًا إذا نقصت هذا المازني، فما أراها زادت به وإنها لتستغني عن أجيال متلاحقة من الكبار والصغار، والصالحين والطالحين وكأنهم ما كانوا عليها ولا دبت بهم الرجل فوقها! أأقول فوقها؟ وما فوقها هذا أو تحتها، وأين هو؟ وما هذا الإنسان، وما خيره على كل حال؟ وليس هذا من الشك في حكمة الله سبحانه، ولكنه من فرط الإحساس بالنفس، واستهوالها أن يكون شيئًا، ثم يصبح لا شيء، وعدمًا مطلقًا إذا كان هناك عَدَمٌ مطلق وعدم غير مطلق أو من العجز عن فهم ذلك، أو عن رياضة النفس على السكون إليه.

وأسأل نفسي أيضًا، وهبني لم أَكُنْ كتبت أو نشرت شيئًا، فماذا كنت خليقًا أن أخسر، أو ماذا كان الناس خليقين أن يخسروا؟ لا شيء، فأما أنا فكنت آكل وأشرب، وأعيش كما يعيش الأكثرون، ولا أرفع عيني عن الأرض، ولا أصعد طرفي إلى السماء، وكفى بهذه نعمة، وبحسب المرء من المتاعب والمنغصات

مـا يكابـده أمثالـه ولا حاجـة بـه إلـى زيـادة تجـيء بهـا القـراءة والكتابـة والتفكير، وتـالله إن الإنسـان لمسكين! صـار إنسـانًا لمـا استطاع أن يقف علـى رجلين اثنتين، ووسعه بفضل ذلك أن يجيل عينـه فيما حولـه وأن يرفعها أيضًـا إلى فوق، وقيل إنـه ارتقى، ولكن ارتقاءه حرَمـه مـا كـان ينعم بـه وهو حيوان يمشي على أربع كغيره من الحيوانات؛ لأنه صار الحيوان الوحيد في كل هذه الدنيا الطويلة العريضة الذي لا مفر له في العمل والكدح ليأكل ويشرب، فهو لا يأكل إلاَّ إذا سعى وكد، ولا ينـال إلاَّ بقدر مـا أوتـي من القدرة وهو الحيـوان الوحيد الذي يُعَقِّدُ الأمور على نفسه ويخلق لها المشاكل ويمنيها الأماني، ثم يروح، يعالج أن يحل هذه العقد، أو يدرك مناه، أو يحقق ما يحلم بـه ولو ذاق في سبيل ذلك الأَمَرَّيْنِ!

على أن هذا استطراد مُغْرٍ لم يكن في النية، فيحسن أن أقصر، وإلاَّ اتسع مجال القول فلا ننتهي في يومنا هذا.

وأعترف أن أول كتاب لي أخرجته - وكان ديوان شعر سامحني الله وعفا عني أفرحني، فكنت لا أنفك أتناوله وأتأمل غلافه وورقه وأقلب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذل مزهو، وأستقصـي أن أسمع مدحه والثناء عليه، فإذا فاتني ذلك اشتهيت أن أسمع ولو قدحًا، فإن كل ذكر له ولو بالسوء خير من الإهمال كأنه لم يكن، ولكني **الآن أتناول الكتاب من كتبي الحديثة فأقول له**:

«يا هذا إني كتبتك - صنعتك - في عشرة أيام أو عشرين مثلاً، (فإن صبري قليل وسريع النفاد، ولست أطيق أن يستغرق مني الكتاب - يشغلني بنفسه - أكثر من شهر) وها أنت ذا قد خرجت إلى الدنيا، كنت مستكنًّا في رأسي، بل لم يكن لك وجود أحسه وأفطن إليه، ثم صرت كقطع السحاب السابحة، وأكبر الظن أن ليس فيها ماء ولكن خاطرًا خطر لا أدري كيف أو لم؟ فضمت قطع السحاب وكسفه بعضها إلى بعض وصارت متراكمة، حتى سدت الآفاق فيما أحس، فإمَّا أن يخرج الودق من خلالها ويسيل وإلا اختنقت،

كالحبلى جاءها المخاض، إمَّا أن تضع وإلاَّ هَلَكَتْ، والآن وقد صرتَ شيئًا يا هذا، فما أدري لماذا تعبت فيك، ولا ماذا أفيد منك؟ وليس وجودك - بعد أن وجدت - وعدمك كما كنت سِيَّيْنِ فيما أرى أو أشعر، ولكن لماذا أجشم هذا العناء كله، ما قيمتك؟ ما محلك بين مخلوقات الخيال أو العقل من أمثالك؟ إني لأخشى أن تصبح صعلوكًا بين ملوك الكتب فأكون قد جنيت عليك، كما جنيت على أولادي «الآخرين»؟ ومن أدراني أنك لا تحس؟ أمن أجل أنك لا تنطق، تكون غير مُحِسٍّ مدرك؟ وعجيب أمرك! إنك إبانة، ولكنك مع ذلك أخرس لا يُبين عن نفسه، وما هي نفسك؟ أهي ما صنعت أنا بما كتبت، أم لك نفس أخرى قائمة بذاتها بعد أن صرت شيئًا قائمًا بذاته؟

وأظل أعذب نفسي بأمثال هذه الخواطر حتى أتنبه، فأكف وأهم بأن أرمي الكتاب ثم أشفق أن يكون قد أوتي الحس ورُزق الشعور، فأترفق به وقد أُرَبِّتُ عليه، ويا ربما تبسمت له ملاطفًا مجاملًا، كأنه يفهم عني، وأتركه وقد كبر في ظني أو وهمي، من يدري؟ لعله يستوحش وحده في هذه الغرفة، وعسى أن لا يجد الخل الموافق له وإن كثرت الكتب حوله! وأقوم — حين يخطر لي هذا — فأرتب الكتب ترتيبًا جديدًا يضم المؤتلفة منها حتى لا تشقيها الفرقة أو تثقل عليها صحبة المخالفين.

ويخيل إليَّ أحيانًا أني أسمع لغطًا في المكتبة، كأنما تتحادث الكتب وتتحاور أو تتهامس فأبتسم وأقول ليتها تفعل، وكثيرًا ما أجلس وأروح أتصور حوارًا دائرًا بين كتابين، ويطيب لي هذا حتى لتمضي الساعات وأنا ذاهل إلاَّ عن الحديث الذي أجريه بينهما، ولست أذكر من هذه الأحاديث إلا طيب متعتها، ولولا نسياني وكسلي لسُقْتُ لك بعضه، على أني أرجو أن أنشط فأثبته.

وأقول الحق أني ما استطعت قط أن أسلك الكتاب مع الجماد، فإنها عصارة العقول والنفوس، وإنها لورقات لكنها أيضًا معانٍ حية تلاقي عندك ما يوائمها فتتزاوج هذه وتلك وتتولد معانٍ جديدة حية، وهل يجيء الإنسان إلى الدنيا إلاَّ على هذا النحو؟ وما أكثر ما تثير هذه المعاني التي تقرأها في الكتب

من معارك في نفوسنا وتعقد من مؤتمرات تطول أو تقصر، وتثمر أو تعقم، فكيف تعد من يفعل ذلك جمادًا؟ حاشا لله.

مساكين تلاميذ هذه الأيام

نشر في جريدة : أخبار اليوم – بتاريخ :إبريل ١٩٤٦

لم نكن نتعلم في حداثتنا كما يتعلم أبناؤنا الآن؛ فقد كانت المواد قليلة وأمرُها هينًا ومدة الدراسة وجيزة في كل مرحلة، أو أقصر مما هي الآن، حتى لقد استطعت أن أفرغ من التعليم في المدارس- من ابتدائية وثانوية وعالية - في عشر سنوات ليس إلاَّ، ولم يكن هذا لأني كنت نابغة أو ذكيًّا أو مجتهدًا. كلا، فقد كنت أغبى التلاميذ وأكسلهم وأبلدهم، وآخرهم في كل فصل ولا فخر! وكان التعليم كله باللغة الإنجليزية، إذا استثنينا اللغة العربية، حتى الترجمة كان يتولى تدريسها أحيانًا أستاذان: واحد مصري للترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وواحد إنجليزي للنقل من العربية إلى الإنجليزية، وكان الأجانب الموظفون في الحكومة المصرية محتمًا عليهم أن يتعلموا اللغة العربية، وأن يؤدوا فيها امتحانات متتالية وإلاَّ فُصِلُوا ورُدُّوا إلى بلادهم وجيء بغيرهم. وقد يحب القراء أن يعرفوا مبلغ اقتدار هؤلاء ومقدار علمهم بالعربية، فأقول إن أحدهم كان يدرس لنا الترجمة في المدرسة الثانوية، فدق الجرس، وأقبل الأستاذ على الفصل الذي أنا من تلاميذه، وكان معه زميله المصري، فقد كانا يحضران معًا ويتعاونان على تثقيف عقولنا الجاهلة، وكان الصيف قد جاء واشتد حره، فظمئت، ورأيت قُلَّةً على شباك في الردهة، فملت إليها لأشرب قبل الدخول في الفصل، ورآني أستاذنا الإنجليزي، وكان فخورًا بأنه يعرف تلاميذه جميعًا بأسمائهم ووجوههم، ولكن ذاكرته خانته في تلك اللحظة، فنسي اسمي، **فصاح بي**: «أنت هناك اللي بتاكل ميه!

فلا عجب إذا كنا قد نبغنا على أيدي هؤلاء العلماء الفطاحل!

وكان يندر أن يرسب أحد في امتحان ما، وما أكثر ما انتقلت من «سنة» إلى «سنة» على وجه الاستثناء، وليست هذه دعوى أدعيها؛ فقد كانت أسماء المنقولين بحقهم، والمنقولين على وجه الاستثناء تُعَلَّقُ على باب المدرسة، ولو أنَّه كان لا بد من النجاح في امتحان كل مادة، بالحق والعدل، لبقيت إلى اليوم تلميذًا بالمدارس، أو لما أمكن أن أتخرج فيها، وقد كنا نتلقى في مدرسة المعلمين العليا علوم الجبر العالي والهندسة الفراغية وحساب المثلثات، ولا أدري ماذا أيضًا، وكل هذا مما يعجز عقلي عن فهمه، ومع ذلك نجحت في امتحان هذه العلوم، فهل هذا معقول؟ إنه الاستثناء المسعف ولا شك!

وكنا لا نحتاج إلى دروس خصوصية لسهولة الأمر أولاً، ولفقر الأكثرين ثانيًا ولأن معظم المدرسين كانوا يُكرمون أنفسهم، وينزهونها عن الكسب من الدروس الخصوصية، وقد كان كثيرون من تلاميذي فيما بعدُ يلحون عليَّ أن أكون معلمًا خاصًّا لهم في بيوتهم، فلا أقبل، وآنَفُ أن أذهب إلى بيت أحدهم **فيقول خادمه: «جاء المعلم» كما يقول: «جاء الفقي.**

ولكن أساتذتنا على قلة ما كانوا يعلموننا، كانوا يحثوننا على القراءة والاطلاع، ويعيروننا حتى كتبهم الخاصة، وكانت هذه القراءة أهم في نظرهم ونظرنا من الدروس التي نتلقاها، وأذكر أني بعد تخرجي كنت جالسًا ذات يوم في مقهى وكان معي كتاب لأوليفر وندل هولمز، فلمحت أستاذي في اللغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين، فخففت إليه لأسلم عليه وأحييه، ورأى يدي فارغة، فقد تركت الكتاب في المقهى، فكان مما قال لي: «طبعًا أنت الآن موظف، فكفاك ما قرأت، ولا حاجة بك إلى زيادة!» فآلمني هذا التهكم، وأصررت أن يجيء معي إلى المقهى ليرى الكتاب الذي تركته فيه ففعل، واعتذر، وحمدت الله الذي أعفاني من سواد الوجه واستحقاق اللوم.

واليوم يتعلم أبناؤنا في المدارس فوق ما تعلمناه وأضعافه، حتى لأرتاع إذ أرى هذه الكتب الضخمة المقررة في كل مادة، **وأروح أتساءل**: متى يستطيع التلميذ أو الطالب أن يحفظ كل هذه الدروس في كل مادة؟ ومتى يرتاحون، أو يخرجون للرياضة والتنزه؟ وكيف يتسنى لأساتذتهم أن يشرحوا لهم هذه الدروس كلها الشرح الواجب، وهم مرهقون بالعمل؟ ثم ما الفائدة التي ترجى من هذا الحشو كله؟

إن التعليم ليس الغرض منه التوجه إلى الذاكرة وحشوها بالمعارف المختلفة وإنما الغرض منه تزويدها أولاً بما لا غنى عنه من المعارف الضرورية، وإيقاظ الذهن وإنماؤه وتدريبه، وإعطاء التلميذ ما يصح أن يسمى «مفتاح» المعرفة، بعد تعويده النظام في التحصيل؛ ليتيسر له فيما بعد أن يدخل من الباب الذي أعطي مفتاحه ويتوسع على هواه. والمشاهد الآن أنه قَلَّ بين التلاميذ من يفتح كتابًا غير الكتب المدرسية؛ لأن وقته مكتظ، ولأن أسلوب التعليم يزهد التلميذ في القراءة والتحصيل وينفره منهما ولا يغريه بهما، وليس العيب عيب المدرس، بل عيب النظام كله؛ ولهذا يكثر الرسوب، وتتكرر الامتحانات، ويشتد الطلب على الدروس الخصوصية حتى صارت موردًا ثريًا للرزق، وسبب إرهاق شديد للآباء؛ ولهذا أيضًا صار التعليم في مصر يستغرق نصف عمر المرء، فيا لأبناء هذا الجيل الجديد من مساكين!

مشقة التحصيل

نشر في مجلة : الرسالة – بتاريخ أكتوبر ١٩٤٥

منذ ربع قرن تقريبًا، زارني شاب في جريدة الأخبار وشكا إليَّ المرحوم شوقي الشاعر وقال: إنه ذهب إليه يستشيره فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية فأشار شوقي عليه بدرس كتابين وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة فاعتقد أنه أضاع ماله، وأن شوقي أخطأه التوفيق. فقلت له: إن شوقي لم يخطئ؛ فإن النحو والصرف وما يجري هذا المجرى لا بد منه، ولا غنى عنه، ولكل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها وفقهها، والإحاطة بهذا كله واجبة إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة، وإلاَّ فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها؟ وصحيح أن الكتب الغربية القديمة تحتاج إلى تيسير مطلبها، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء، فاعرف لغتك أولاً ، وادرس أدبها، ثم عالج بعد ذلك ما شئت من فنون الكتابة، وأعلم أنه لا مطمع لأحد في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلاَّ بالاطِّلاع الوافي، ولمَّا كانت لغتنا العربية؛ فهي أداتنا التي لا أداة لنا سواها ولا سبيل لنا إلى البيان إلاَّ بها، فلا مهرب لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفر على درسها.

وقد حدثت شوقي -رحمه الله -بهذا، فقد كنا نلتقي في «الأخبار » ، ونتذاكر على الرغم من رأيي المعروف في شعره، فقال لي: يا أخي قد كنت في بداية عهدي بالشعر بعد أن عدت من أوربا - ألحن وأخطئ فيسلقني الناقدون بألسنة حديدة، فالآن أنصح للشبان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم فيشكونني ويعيبونني بذلك!

وقد قلت أيضًا لذلك الشاب المتذمر: إني لا أرى الاقتصار على درس اللغة العربية وآدابها؛ فإنه لا يكفي طالب الأدب، بل لا بد من التوفر على درس الآداب الأخرى ولا سيما الغربية منها. وحسب طالب الأدب لغة واحدة

كالإنجليزية مثلاً، فإن يراعات الآداب الأخرى مترجمة إليها، وقد كان العرب حصيفين حين عُنُوا بنقل الفلسفة الإغريقية فاتسعت آفاقهم، ولسنا نستطيع في عصرنا هذا أن ننقل خارجيات الغرب في الأدب والفلسفة، فإنها شيء لا آخر له، ولكن في وسعنا أن نَطَّلِعَ عليها ونُلِم بها إلمامًا كافيًا بإحدى اللغات الغربية، ونحن نلقح الشجر ليثمر ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب، ويجنينا ما هو أشهى، فلنلقح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب، ليعود أوفر إنتاجًا وأحلى جنًى، ونحن آدميون، والشجر نبات، ولكن سُنَّة الحياة واحدة، وقانونها لا يختلف، وهو واحد في كل مظاهر الحياة على السواء وما يصير به النبات أقوى وأزكى، يصير بمثله الحيوان — ونحن منه — أقدر على معاناة الحياة وأصلح لها وأنجب، وليس مما يَصِحُّ في الأفهام أن نكون في القرن العشرين، ونقنع بأن نعيش بعقول القرون الخالية، وأخلق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقًا متخلفًا من الأزمنة البائدة، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذي خرجنا فيه.

وأنا أعرف أن في هذا مشقة عظيمة، ولكن الثواب على قدرها، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة، بل كَدٌّ ونضال وكفاح، وما يبلغ المرء في دنياه غاية أو يدرك شيئًا إلاَّ بالكفاح وعرق الجبين المتفصِّد، فلماذا نستثني الأدب ونراه أهون شأنًا وأيسر مطلبًا من أن يحتاج إلى عناء؟

وليعذرني القراء الأفاضل إذا رأوني ألح على شبابنا أن يعكفوا على التحصيل ويجدوا فيه ويشقوا أيضًا، فقد رأيت شبانًا كثيرين في مصر أكبر ظني أن لهم أندادًا في غيرها يستثقلون الطلب، ويستطيلون مدته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفون بالأمر كله ويحاولون أن يرقوا بغير سلم، وأن يبلغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأتون إلاَّ بأَغَثِّ الغثاثة وأسخف السخف، ثم يروحون يتذمرون ويجأرون بالشكوى ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجَّههم ويعترضون سبيلهم حسدًا، إلى آخر هذا الهراء.

وتقـول لهـم: إن كـل علـم وفـن مثـل الطـب والهندسـة والتصـوير والموسيقى، إلى آخر ذلك يحتاج إلى درس طويل وتحصيل وافٍ؛ فإن الملَكة وحـدها لا تكفـي، والاسـتعداد بمجـرده لا غنـاء لـه، مـا لـم تـؤازره المعرفـة الصحيحة، فلماذا يعدون الأدب بدعًا يرونه مما يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة؟ فلا يقتنعون - أو على الأصح - لا يستطيعون أن يروضوا أنفسهم ويوطنوها على احتمال المشقة.

وأوثر أن أكون صريحًا فأقول: إن هذا تطرٌّ لا يعجبني، وكسل لا أراه بشيرًا بخير فيحسن أن أورد طائفة من الأمثلة تبين أي مشقة احتملنا، وأي عناء صبرنا عليه وأي جهد تكلفناه في حداثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلع إلى منازل الأدباء.

وقبل ذلك أقول: إن ممَّا نفعني وأغراني برياضة نفسي على التشدد والتجلد كلمة قرأتها ومنظر رأيته، فأما الكلمة فقول كوبيت في كتابه «نصيحة إلى الشبان»: إن على الشاب إذا أراد أن يكون رجلًا كاملًا لا نصف رجل أن يحلق ذقنه كل صباح بالماء البارد في الشتاء، وجو إنجلترا من أقسى الأجواء.

فقلت لنفسي: إن مصر جوها معتدل، فأنا أولى بهذه النصيحة وأقدر على العمل بها. وتوخيت بعد ذلك أن لا أستعمل إلا الماء البارد في كل حال فنفعني هذا وقواني على احتمال المؤثرات الجوية وإن كان بدني خرعًا.

وأما المنظر، فكان شابًّا من العمال راقدًا على الحجارة في وقدة الظهر وشمس الصيف تضربه، وكنت يومئذٍ في السابعة عشرة من عمري، **فقلت لنفسي**: أنا أتململ لأن وسادتي ليست محشوة بريش النعام، وسجادتي ليست من صنعة العجم، وهذا الغلام ينام على الحجارة ولا يتأفف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه ... أما والله لا اتخذت بعد اليوم شيئًا وثيرًا! وما زلت إلى اليوم أوثر الخشن على الرقيق، وليس في بيتي كرسي مريح أو فراش لين، لأني أخجل أن أكون مترفًا.

ورضت نفسي على الجلَد، فاتفق في أول عهدي بدرس الأدب أن وقعت في يدي نسخة من ديوان «الشريف الرضي» مطبوعة في الهند، ليس فيها بيت واحد يسلم من التحريف، فما استطعت أن أفهم شيئًا، وكدت أيأس، ولكني تشددت وأقبلت عليه أعالج تصحيحه، وقضيت في ذلك قرابة عامين وأنا أوفَّق قليلًا وأخفق كثيرًا، حتى هداني الله إلى ديوانه المطبوع في بيروت، وهو أصح وأسلم من الخطأ، وإن كان لا يخلو منه، فتشهدت واسترحت.

وحبب ابن الرومي إليَّ ما قرأته له مبعثرًا في كتب شتى، فطلبت ديوانه، فلم أجد إلاَّ مخطوطًا -أعوذ بالله منه - في دار الكتب المصرية، وكان فيها مخطوطان آخران، ولكنى لم أُعْطَ إلا أسوأ الثلاثة وشرها، فاستنسخته وعكفت عليه سنوات طويلات المدد أحاول التصحيح والضبط، فلم أبلغ من ذلك ما أريد، ولكني بذلت غاية ما يدخل في الوسع.

وكان من أول ما اقتنيت: الأغاني طبع الساسي، وهي نسخة محشوة بالغلط ففككت الأجزاء «ملازم»، وجعلت أحمل الملازم معي واحدة واحدة إلى دار الكتب في أوقات فراغي، وأراجع النصوص نصًّا نصًّا، وبيتًا بيتًا، وأدون التصحيح أو التكملات على ورق أبيض أعددته لذلك، وصرت ألصق الورق المكتوب بين الصفحات المطبوعة، حتى إذا إنتهيت من جزء جلدته وانتقلت إلى ما يليه، وهكذا حتى أتممت الكتاب كله، فصار ضِعفي حجمه الأصلي، وحدث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رقت حالي فجأة، واحتجت إلى مال، وأنا امرؤ ربَّتني أمي — رحمها الله — على الاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس، وبغضت إليَّ الاستدانة وكل ضروب الاستعانة بالغير؛ فلم أجد لي حيلة إلاَّ أن أبيع ما اقتنيت من كتب، ورأى بعضهم عندي نسخة الأغاني هذه، فألحف في طلبها، فأبيت أن أبيعها، فلم يَزَلْ يزيد في الثمن ويرتفع به حتى أغراني، وما كاد يخرج بها حتى طار عقلي وندمت أشد الندم؛ فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أمي قامت بي إلى السكينة **وقالت لي:** «ألست قد قرأتها؟ انتهينا إذن ولا داعي للأسف!» فجعلت بعد ذلك أعزي

نفسي بقولي: إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصح بدنه ولو أني نسيت اليوم ما أكلت في أمسي، لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت وكذلك العقل: يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوي مداركه وينمي ملكاته، ولا يمنع حصول الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود.

وحسبي هذه الأمثلة القليلة، والحقيقة أننا أُعْطِينَا الحياة لنحياها، لا لننعم بها أو نسعد، ومعنى أن نحيا أن نعمل، ومؤدى العمل أن نكدح ونتعب، والأدب مطلب كسائر المطالب له وسائله، فلا معدى عن العناء في سبيله.

من أنا ؟

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ : ديسمبر ١٩٤٥

سألت نفسي مرة: ماذا أنا؟

وأني لأدري أني صحفي، وأني معدود من رجال هذه المهنة، ولكنني لست كذلك في الحقيقة، وأي صحفي هذا الذي لا يعرف دواوين الحكومة أين هي أو بعضها علي الأقل، ولا يطيب له أن يلقى الناس، ولا يُعنى بتقصي الأخبار ولا يثقُل عليه أن يبيت جاهلاً بما هو حادث في الدنيا، ومبدؤه الذي لا ينزل أو يحيد عنه هو «خبر بفلوس، بكره يبقى بلاش»؟ كلا، لست صحفيًّا إلا علي التسامح وإنما أنا رجل كاتب، أو أديب إذا شئت. فهبني أردت أن تكون لي بطاقة تذكر فيها مهنتي الحقيقية أو أن أثبتها في جواز سفري، فماذا أكتب؟ أأقول إني «كاتب»؟ هل يكفي هذا في تعريف من يطلع علي بطاقتي أو جوازي أني رجل صناعته الكتابة؟ أَوَلا يُخشى أن يتوهم أني «كاتب» في دكان أو نحوه؟ أم أقول «أديب»؟ ولكن هذه صفة لا صناعة؛ فقد يكون الرجل أديبًا ولا يكتب شيئًا، أم أقول إني «مؤلف» فإني أترجم أيضًا، وليس عملي في الترجمة بدون عملي في التأليف.

حدثت بهذا «رصيفًا» أديبًا؛ فقال إنه وقع في مثل هذه الحيرة يوم أراد السفر إلي خارج مصر بعد أن اعتزل وظيفته الحكومية، واحتاج أن يجدد جواز سفره أو يغيره، فلم يدرِ كيف يصف مهنته: «موظف سابق»؟ من «الأعيان»؟ من «أرباب المعاشات»؟ كاتب؟ أديب؟ مؤلف؟ روائي؟ وأخيرًا حل العقدة هو وموظف الجوازات بإيثار كلمة "المؤلف ".

وغريب ولا شك أن يحتار كاتب أديب في وصف مهنته والتعريف بنفسه وإنها لحيرة تريك أن «الأديب» ليست له منزلة اجتماعية مقرَّرة معترَف بها كالتاجر، أو الميكانيكي، أو الجزار ، وأكبر الظن أن كثيرين من الناس لا يزالون يعتقدون أن الأدب والتسول وحياة التطفيل مترادفات، علي نحو ما كان مألوفًا منذ بضع عشرات من السنين، أيام كان الشاعر يعيش على ما يجود به عليه أهل الخير من ممدوحيه أو الجبناء ممن يهجوهم.

وقد غبر زمان كان الناس فيه يعدون الصحفي متسوِّلا، وبهذه العين كان الناس ينظرون إلي معظم الصحفيين، فكان إذا أقبل صحفي علي جماعة استعاذوا بالله في سرهم، وراحوا يفكرون هل ينقدونه «شلنًا» أو حسبُه «نصف فرنك»؟ أم تراه يرجي أن يكتفي بفنجان من القهوة يشربه ويتوكل علي الله ويريهم قفاه؟ وكان الخوف من طول لسان الصحفي - لا احترام عمله وتقدير مهمته -هو الباعث الأكبر للناس علي إظهار التوقير له اتقاء لشره، ثم ارتقت الصحافة ودخل فيها لفيف من أهل الفضل وذوي المقامات الملحوظة فرفعوا من شأنها وأعلوا قدرها، حتى لقد أصبحت تسمي نفسها «صاحبة الجلالة» و"السلطة الرابعة" .

أما الأديب فلا يزال مركزه الاجتماعي قلقًا، وصفته يشاركه فيها كل من هَبَّ ودَبَّ وسواد الناس يختلط عليهم الأمر حين تقول لهم إن فلانًا أديب، ولعل منهم من يتوهمه من جماعة الشعراء الذين كانوا قبل ربع قرن يقعدون علي دكة عالية في المقاهي ومعهم الربابة، ويروون للناس قصة أبي زيد، أو عنتر، أو سيف «اليزل» كما تسميه العامة. ولَعَلَّ منهم من يتذكر حين يسمع بأديب أولئك الذين كانوا يسيرون في الشوارع يَسْتَجْدُون، وقد وضعوا علي رءوسهم طرابيش واسعة طويلة الأزرار تختفي فيها الآذان، ثم يصفع بعضهم بعضًا وهم ينشدون ما عندهم من هزل فارغ ويرددون كلمة «كعكم» إن صح أن تسمى هذه كلمة، ويهزون رءوسهم بعنف فيدور «الزر» في الهواء. ألم يكن هؤلاء يدعون «الأدباتية»؟

ويخطر لك أن تبعث برسالة إلي تلميذ صغير فتكتب له في العنوان: «حضرة الأديب الفاضل» وإن كان ما يزال يتهجى، كأن من العيب في حقه أو الحطة له والغض من قدره أن تقول: «حضرة الطالب أو التلميذ»، وتكون أنت أديبًا له شهرة في مصر والأقطار العربية كلها شرقًا وغربًا، ويرى مركز البوليس أن يدعوك ليسألك عن شيء، **فتتلقى منه دعوة هي عبارة عن قصاصة كتب عليها:** «مطلوب حضور النفر فلان» فإذا بدا له أن يتأدب معك أسقط كلمة «النفر» واكتفى باسمك مجردًا.

ولا ترى أحدًا يذكر طبيبًا إلاَّ مقرونًا بلفظ الدكتور، أو محاميًا أو مدرسًا إلاَّ حرص علي أن يقول الميتر أو «الأستاذ» وهكذا، إلاَّ الأديب والكاتب فإن الناس يبخلون عليه بصفته الحقيقية، أو لعلهم لا يبخلون بها وإنما يستصغرونها ويستقلونها، ويرون غيرها أدل علي التكريم.

ترى لو أراد في زماننا هذا أديب لا عمل له غير الأدب أن يتزوج، وتقدم إلي أسرة يطلب مصاهرتها وسألوه عن عمله أو صناعته، **فقال لهم إنه** «أديب» فماذا يكون رأيهم فيه؟ وظنهم به؟ أما أنا فأرجح أن يتوهموه عاطلًا ويحسبوه قد جاء يطلب مصاهرتهم ليسرق مالهم.

الأدب والمدرسة

نشر في : مجلة الرسالة- بتاريخ : يناير ١٩٣٩

هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية؟

سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى «برجه العاجي» من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها؛ فكان جواب أحدهم: «يخيل إليَّ أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسميًّا في المناهج المدرسية.

ويقول الصديق فيما عقب على هذا الجواب: «ولو سئلت لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى.

وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأه في البرج العاجي من الرسالة، قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة، ووصفت له أساتذتي في اللغتين العربية والإنجليزية، وتوخيت الإنصاف وتحريت الحق، فسألني أن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل. وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكن بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف؛ فما أحب أن أسيء إلى أحد بلا موجب وبغير حق، أو أن أُرمَى بالجحود والكفران. وأكبر الظن أن الذين علموني نسوا -أو هم لا يدرون - أني كنت من تلاميذهم، فلو قلت فيهم ما قال مالكٌ في الخمر ما عرفوا أنهم هم المعنيون، **ولو أثنيت عليهم لتعجبوا وراحوا يتساءلون**:

«ترى من كانوا معلميه؟» ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جُبِلَ منه ولكني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم.

أنا أيضًا كنت تلميذًا ثم مدرسًا لسوء الحظ، وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة: «الغباء وفقر الذهن وضعف التصور» يضاف إليها الفقر، وكان

يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة فلا نجد ثمنه، فتعمد أمي المسكينة إلى ما خلف أبي من قمصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقصر من هناك، ولكن الياقة أو البنيقة كانت تعييها فتلبسنيها كما هي ولو جعلت لي منها حزامًا لكان هذا أصلح؛ فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة؛ لأني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوي بجانبي الطوق عن أذني، ولكني محتاج أيضًا إلى حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين.

ولا أدري كيف نجوت من العمى؛ فقد كانت عيناي ترمدان فلا تعبأ بي المدرسة، نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى مِنَّا، فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصفنا أمامه ولا يجشم نفسه عناء السؤال أو الفحص، بل يقول **وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب**: «شربة، لبخة، قطرة» فيتفق أن يكون من حظك «القطرة» وشكواك أن رجلك مهيضة، أو اللبخة وبك زكام، وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكني كنت أخرج مأمورًا بالشربة أو اللبخة ولا أخرج قَطُّ بالقطرة أما في البيت فكان كل ما أتداوى به من الرمد الماء البارد.

وآية غبائي وبلادتي أني كنت في كل فرقة الأخير - حتى مقعدي كان الأخير في الحجرة - وكنت لصغر جسمي وقماءتي لا أكاد أبدو للمدرِّس، فهو لا يرانيولا يحس بوجودي ولا يعنى بي، وأنا أغتنم هذه الفرصة فأتشاغل عن درسه بما يخطر لي من العبث، وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الفيل الصغير وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكئ على الدرج بكلتا يديه، وكانت عادته أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتمتم بقوله: «خيبة الله عليكم»، يعني زملاءه التلامذة لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالعبث، فاشتريت مرة

قليلاً مما يسمى «بودرة العفريت» ونثرتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه، ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دمي وجهه وانقطع عن المدرسة أيامًا حتى شفي؛ ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك، وصرت أُتَّهَمُ بكل ما يحدث في المدرسة ولو وقع في فرقة غير فرقتي؛ فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالعبث إذا لم أكن أنا الفاعل.

أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئًا، ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكني أنا كنت لا أستطيع أن أنتفع بذلك؛ لأني أكون قاعدًا على ركبتي فوق البلاط؛ عقابًا لي على ما لم أصنع في الغالب، أو واقفًا ووجهي إلى الحائط، أو مطرودًا من الحجرة كلها. وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئًا من لا يزال هكذا، ركبتاه على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز...

وكان أرق المدرسين معي وأظرفهم وألطفهم على العموم إنجليزي أنيق، كان إذا رآني - وما أكثر ما كان يُغضِبِي - أخرج على النظام يدعوني أن أقف ويطلب مني أن أتهجى كلمة «مجنون» أو «شقي» وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، ويكتفي من العقاب بهذا.

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر، كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزي، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضًا في خمس دقائق على الأكثر، ثم يقول: «أغلقوا النوافذ كلها» فنفعل، ثم يأخذ في حديث سياسي يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثني على الإنجليز أطيب الثناء، ولم يكن أعجب من صنيعه هذا إلاَّ إغلاقه النوافذ ليوهمنا أن الناظر الإنجليزي يسوءه أن يعلم أنه يثني على قومه ... وكنَّا نناقشه ونجادله ونخالفه فيوسع صدره ويروح يحاورنا ويداورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر، وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ «لواءه» ونسمع خطبه. وأحسب أني لا أبالغ إذا قلت إني تلقيت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلميَّ في المدارس، وتصور أن

منهم معلمًا كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب ... بل تصور أنه كان يثني على التلميذ الذي يقول له في جواب سؤاله عن الفعل اللازم «ما هو»: «هو ما ليس كذلك»، كما في الكتاب بالحرف الواحد ولم أستطع قط في حياتي أن أحفظ شيئًا عن ظهر قلب إلا إذا جاء هذا عفوًا وعن غير قصد، فكانت درجتي في اللغة العربية هي الصفر دائمًا.

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة مثل:

إذا المرء لم يدنَس من اللؤمِ عرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

وما إليها، وحتى هذه يخيل إليَّ أني ما حفظتها إلاَّ فيما بعد لما كبرت، ولكني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يغلق النوافذ ويهجو المصريين ويمدح الإنجليز **هو الذي كان** يتقاضانا أن نحفظها:وقد يكون هذا اتفاقًا محضًا.

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا آنسوا منا ميلاً إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يبخلون علينا بالتفهيم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك، ولكن بعضم كان عجيب الشذوذ، أذكر منهم واحدًا كان يعلمنا الجغرافيا الاقتصادية، فكان يكتب على السبورة رقمًا يبلغ من طوله أن بقيته تجيء على الجدار! وكان هذا مبلغ علمه بهذه الجغرافيا، ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي أصبنا أم أخطأنا في الموضوع، فأجودنا خطًّا أعلانا درجة ولو كان أجهل مني.

أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب، وكل ما يسعها ويجوز أن يُطلب منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد، وحسبها أن توفق في هذا، وأكاد أقول حسبها ألا تنفر من الأدب وتزهد فيه.

السعادة لا توهب

نشر في :جريدة أخبار اليوم- بتاريخ مارس ١٩٤٧

ضحكت حين تلقيت رسالة معنونة هكذا: «الفيلسوف الكبير ...» ولبثت لحظة محجمًا عن فضها مخافة أن أقرأ فيها ما هو شر من ذلك، وإذا كانت الفاتحة أني «فيلسوف» و«كبير» أيضًا — ألا ليت من يكتبون إليَّ يرونني!! وإن كنت لا أحب أن يريهم الله سوءًا — فما ظنك بالخاتمة؟ وقلت وأنا أفتح الظرف بعد طول التردد: «إذا كنت أنا فيلسوفًا، فالله يرحم مصر!» وتساءلت وأنا أهز رأسي أسفًا: متى يعتدل الميزان في بلدنا المسكين؟ حتى متى نسرف ونشتط في كل شيء: في الرضى والسخط، وفي المدح والذم، والحب والبغض؟

وتوكلت على الله، وقرأت الرسالة، فجف وجهي، وأحسست أن شعلة ساطعة ذات لهيب شديد وزفير قوي تستطير فيه، فقد ردتني بعنف إلى عهد الطفولة والشباب الذي قطعته «وثبًا»، ورفعت أمام عيني صورًا كنت أتوهم أني طويتها أو أدرت وجهها إلى الحائط.

وتلوت الرسالة مرة، وأخرى، وثالثة، ورابعة؛ فقد وجدت فيها عزاء. أنا إذن لست الوحيد الذي عانى ويعاني ما شاء الله أن يكتب له في لوحه! فهذه فتاة في سن السادسة والعشرين تكتب إليَّ، فتقول:

ولو سألتني عن سر انطوائي على نفسي لحرت ولم أَدْرِ بماذا أجيب ... غير أني أذكر طفولة غير سعيدة، وتعليمًا بدأ مبكرًا وسار سيرًا حثيثًا، لينقطع فجأة وأنا أشد ما أكون رغبة في مواصلته، وأحوالًا مالية مرتبكة أدت إلى ذلك الانقطاع وآمالاً كبارًا عقدتها على ذلك التعليم انهارت كأنها كوم من الرمل، واضطراري لمزاولة عمل بسيط ينافي ما كنت أرغب فيه وأتطلع إليه، مع قوم أجزل الله لهم حظهم من تفاهة الخلق، وأصابني منهم إيذاء وإيلام وتجريح،

ولقد حاولت كثيرًا أن أضحك وأن أتلقى ما تجيء به الأيام بالسخر، ولكن كلمة تبدر أو إشارة تصدر تردني إلى الحقيقة - حقيقة نفسي الموجَعة - وعبثًا حاولت أن أنسى أو أتناسى ... ولقد وهبني الله قبسًا من السعادة في شخص صديقة عرفتها، سيدة عاقلة فاضلة مهذبة، حباها الله ذكاء نادرًا وزودها العلم بثقافة عالية، وجمعت بين دقيق الشمائل وحميدها، وقوة العزم ومضائه، ولكن الأيام باعدت بيننا، ففقدت بفراقها هدوءًا وجدته في ظلها، وحُرِمْتُ سكينة النفس، وما كنت أفيده من علمها وفضلها وأدبها وتهذيبها ... والآن أراني قد أصبحت على شفا انهيار عصبي لا يعلم نتيجته إلا الله ... فأنا أكتب إليك راجية أن أجد عندك طبًّا لما أعانيه من جراء الكبت والانطواء على النفس، من شتى الأحاسيس والانفعالات.

أنا أيضًا عانيت هذا كله وصَلِيت بحر نار لم أكن - علم الله -من جُناتها؛ فافتقرت - بعد يسر - في حداثتي، وكاد ينقطع تعليمي لولا عناد أمي وإباؤها كل الإباء أن أخرج من المدرسة، وجاء يوم يابس تناهي فيه سوء الحال، فاقترح قريب لنا - من أدنى ذوي قربانا - أن نقدم طلبًا بإعفائي من نفقات التعليم؛ فقد كان هذا هو كل ما تحرص عليه أمي، أما ما عداه فأمره مما نحتمله فيما بيننا وبين أنفسنا، وكتب الطلب، وذهب به ثم عاد يقول - أي والله، **غفر الله له:**

إن الناظر يطلب رشوة! وكان الناظر من أنزه الناس وأَعَفِّهم يدًا ولسانًا وقلبًا وريعت أمي؛ فقد كان أبي محاميًا، فتعلمت منه أشياء وأبت كل الإباء، وأُوجِزُ فأقول إنها دفعت الرشوة إلى قريبنا لا إلى الناظر المظلوم! وبعد شهر وزيادة جاء القريب الفاضل سامحه الله يقول إن الوزارة أعفتني من نصف المصروفات فقط **فقلنا:** خيرًا على كل حال، وكانت «المصروفات» ستة جنيهات في العام على ثلاثة أقساط فاعطتني أمي جنيهًا من ذهب وقرشين ونصف قرش، وألهمني الله أن أتحرَّز وتصور طفلاً في العاشرة يتنبه الى وجوب التحرُّز - فلم أذهب إلى «الصراف» بل قصدت إلى الناظر في حجرته،

ودفعت إليه الجنيه والقروش، فاستغرب فلما قصصت عليه ما أنبأنا به القريب الفاضل، كاد يبكي، فقد كان جارًا وصديقًا لأبي، وقال إنه يأسف؛ فقد رفضت الوزارة الطلب، وأبت المجانية، وأمهلني ما شئت! فعرفنا أن قريبنا «نصب» علينا وهو في يسر ونحن نتضور.

وكانت الحياة كلها في ذلك العهد كبتًا في كبت وانطواءً تامًّا على النفس ولا حاجة بي إلى شرح ذلك وبيان أسبابه؛ فإنه هو الذي كان لا مفر منه مع الفاقة، وفي الأحوال الاجتماعية التي كانت يومئذٍ مقررة سائدة. وعكفت على القراءة - وماذا كان هناك غيرها - حتى أَضَرَّ ذلك بصحتي وكاد يطفئ نور عينيَّ ولكني كنت قد اعتدت الاعتماد على النفس، والاستقلال في التفكير والتصرف وأصابتني النوراستينيا، فلجأت إلى الأطباء فكادوا يطيرون لي ما بقي من عقلي فتوكلت على الله مرة أخرى ... وعالجت نفسي بنفسي، أو بذلت كل ما يدخل في طاقتي من جهد. وما زايلني تلف الأعصاب، ولكني أغالب ذلك بالإرادة، ورياضة النفس، ومواجهة الحقائق لا الهروب منها، وتلقي ما تجيء به الأيام بأعظم ما يسعني من التهوين، وبإنزال كل شيء منزلته دون مغالاة، وبقولي لنفسي إن هذه هي الدنيا، وأن الحياة هكذا أبدًا - كانت كذلك وستظل كذلك - والناس هم الناس فيهم الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وكل شيء في الحياة قسم وحظوظ وأرزاق وفي وسع الإنسان أن يجمل الحياة، والسعادة ليست هبة تأتيه من الخارج، وإنما هي ثمرة لسكينة النفس الصحيحة الإدراك، ولا داعي على كل حال للتهويل على النفس؛ فإن ما لا يدرك في صورة ما، يدرك في صورة أخرى، وفي مقدور كل امرئ أن ينال ما حُرِمَهُ، وأن يفوز بما يبغي أو يتلهف عليه، ولو على وجه غير الذي تعذر واتقاء الكبت أوجب ما يجب؛ فإن عواقبه وخيمة، وما من أحد يعدم - إذا عني بالتماس الوسيلة - مخرجًا من الكبت- وأظن هذا جوابًا كافيًا، وإن كان غير مباشر.

المـوت

نشر في :جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ نوفمبر ١٩٣٢

رأيت الموت في صورة الشنع، وعرفت وقعه، ولذع مصابه، وهول معناه، وأنا صبي أتهجَّى وأحسب الحياة كرة تُضرب وحلوى تؤكل، وقد مات أبي على عيني وكان مهول الحلم، صليب الإرادة، قليل التَّشَكِّي، فلما حضرته الوفاة نادى أمي وأمرها أن تُرقده على القبلة، ثم ابتسم لي ودعاني أن أقبله، وفاضت روحه في عناقي حتى لخلته قد نام، ثم اختفى من بيننا؛ فغاب الخير كله، وشهدت جدتي لأبي وهي في سياق النزع أربعة أيام بلياليها، وكانت سِنُّها عالية، وأحسبها أَرْبَتْ على التسعين إلا أنها كانت قوية، فلما جاء أجلها جعلت تفهق، ولا تكف عن ذلك حتى اختارها الله، وماتت ابنة لي بين ذراعيَّ، وظلت حشرجتها ثلاث ساعات وأنا أنظر إلى وجهها الصغير وأراعي عبث الموت به وتشويهه له، وأرى كيف يخبو ضياء النـاظِرَيْن وتصبح العين كالزجاجة. وقضت زوجتي الأولى ويدي على رسغها وعينها تحدق في وجهي، ودمها ينزف، والموت يشيع فيها شيئًا فشيئًا، وأخيرًا ماتت أمي فشهدت أعنف عراك بين الحياة والموت، أو بين إرادة الحياة وعدوان الفناء وأحسب القارئ يعرف ماذا يصنع الرجل إذا أبقي في الماء وكان لا يعرف السباحة، وكيف يروح يجاهد ويخبط بيديه ويضرب برجليه ويدفع برأسه، ويحاول أن يقتنص بضعة أنفاس من فوق الماء يستعين بها على الصبر والمقاومة، كذلك كانت تفعل أول ما أصابتها الذبحة، ولبثت ثمانية أيام تكافح في كل ساعة منها صورة جديدة مما يكرُّ الموت به عليها ليهزمها أو على الأصح ليخنقها، حتى لقد كان يكبر في وهمي أحيانًا أن هناك يدًا تقبض على عنقها لتحبس أنفاسها، وهي تعالج الفكاك والتملص، حتى كلَّت وأسلمت الروح، ومن ذا الذي لا يهزمه الموت؟

هذا الموت الذي يصنع بنا ذلك ماذا هو؟ هو في نظر الأحياء غول موفق، يعدو على الرضيع والصبي والشاب والشيخ، ولا يُبقي ولا يذر، ولا يحترم قوة، ولا يدرك على الضعف عطفًا، ولا يُكبر علمًا، ولا يُقدِّر أدبًا، ولا يَرِقُّ لحسن، ولا تصده تقوى ولا تردعه سذاجة، ولا تغلبه حيلة، ولا يُجدي معه مكر، وأهول ما يروع المرء منه ما يتصوره من فعله، ومن منافاته ومحوه لمعنى الحياة. هذا إنسان مُحِسٌّ مدرِك يروح ويجيء ويأكل ويشرب ويضحك، يلعب ويخاف ويرجو، ويحزن ويفرح، ويطمع ويزهد، ويشقى وينعم، ويقعد أو يسعى، ويخيب أو يفوز، ويفتح له التفكير ميادين لا آخر لها يُعرف، ويكاد أحيانًا يُحَلِّقُ فوق الحياة ويجوز حدودها ويتصل بروح الكون، ويلهم ما لا ينفع فيه تفكُّر أو يهدي إليه تدبر. هذا الإنسان يمسي جيفة تسد الأنوف من نتنها، جيفة يشق على المرء أن ينظر إلى بلاها، أو أن يحتمل ريحها الخبيثة، وينضب كل ما كان من ماء حياة مستجير ومن سحر، وينعدم ما كان من حس وإدراك، وتجف الأماني، ويقف العقل، ويتعطل الخيال، ولا يبقى إلاَّ شيء من الإكرام له، ومن الخير للناس أن تدفنه عن العيون.

ولكن هذه المقابلة بين الحياة والموت قَلَّمَا تكون في شباب العمر؛ لأن قوة الحياة تكون أزخر وعباب تيارها يكون أطمى من أن يتجه الخاطر إلى ركود الموت، والتفكير في الموت يجيء مع الإحساس بأنَّ فيض الحياة أخذ يضعف وأنَّ نبعها لم يَعُدْ كما كان ثريا؛ فيستيقظ الشعور بالذات يقظة المُحِسِّ بالخطر عليها، ويكذب من يقول لك إن خاطر الموت لا يجري له في بال، وإن فكرته لا تروعه؛ فإن غريزة حفظ الذات مركوزة في الطباع، وهي تَقْوَى على الأيام في الإنسان وتزداد تنبُّهًا؛ إذ كانت حياة الإنسان كلها تعرضًا واستهدافًا للمخاطر والتجربة والمعاناة يشحذان هذه الغريزة، والموت هو الخطر الأكبر على الحياة فيما يحس كل مخلوق، حتى الحيوان يجزع منه بفطرته الساذجة،

فغير مقبول من امرئ أن يقول إن خاطر الموت حسن الوقع في نفسه، ولكن من الممكن أن يقول الإنسان إنه راضٍ نفسه على السكون إليه؛ إذ كان لا منجى منه ولا متحول عنه.

على أن الخاطر قد ينثني إلى الموت ويطول تفكيره فيه، حتى في أيام الشباب الجامح، ولقد عانيت آلام هذا التفكير وتنغيصه في صدر حياتي، وكان يفزعني ذكر الموت حتى لقد كنت أعوذ بأهلي وأحيط نفسي بأذرعهم، كأنما كنت أتوهم أن في وسعهم أن يحموني من أن يخطفني، والعجيب أني كنت أحس بهذه الحماية أو قل إن إحساسي لم يكن أن في وجودهم حولي حماية لي، بل بأن هذا الوجود فيه مقدار من الإيناس يَرُدُّ بعض الطمأنينة إلى النفس، ومع الطمأنينة يعود إلى المرء شيء من اتزان الأعصاب، ومتى اتَّزَنَتِ الأعصاب خَفَّ عن النفس كرب الخوف والجزع، وليس الجزع من الموت جبنًا، وإنما هو نقص في اتزان الأعصاب يتعذَّر معه التفكير الهادئ الرزين الذي يستطيع وحده المحافظة على التناسب الحقيقي بين الأشياء.

ولفرط جزعي من الموت في شبابي، وهول ما قاسيت من آلام هذا الجزع قلت أتداوى بالداء، فنقلت سكني إلى حيث أجداث الموتى، وحيث كل قبر يصير كما يقول المعري - قبرًا مرارًا ضاحكًا من تزاحم الأضداد؛ لتألف نفسي فكرة الموت وتسكن إليها! وتتبلد بذلك، والعادة تبليد. والطرق عديدة إلى حيث سكنت، ولكني كنت أوثر المشي بين المقابر في النهار وفي فحمة الظلام، وأتعمد ذلك وأحمل على نفسي به، حتى برئت من هذا الجزع أو على الأصح تبلدت وسكنت وفقد خاطر الموت لذعه، وقد رويت للقارئ من قبلُ كيف وقعت مرة في قبر متهدم عانقتني فيه جثة، وأحرى بهذه التجاريب أن تشفي، وأن تفرغ على النفس القدر الكافي الواقي من البلادة أو الاعتدال في الإحساس، وقد أصبحت من البلادة بحيث لا يبذني في ذلك دافنو الموتى أنفسهم.

ولو سئلت الحياة عن رأيها في الموت لخالفت الإنسان، والإنسان يبغي البقاء والدوام، ولو بقي لفقدت الحياة غايتها وبطل فعل عواملها، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أن دوام الحياة لمخلوقات بأعيانها يعصى على «الحياة» نفسها وينفيها، فلا تعود هناك حياة لها سنن، وإنما يكون هناك وجود هو عبث محض وقد فصَّلنا ذلك في «حصاد الهشيم» ولعلنا نعود إليه في فرصة أخرى، والموت ليس فناء، ولكنما هو طَوْرٌ من أطوار الحياة، والذي يموت يخدم «الحياة» ويغذي عناصرها، كما يخدمها من وجوه أخرى، وهو حي يرزق، وليست خدمة الميت «للحياة» بأقل من خدمة الحي، ولا هذه الأخيرة أولى أو أحق بالرعاية، والقانون واحد للأحياء وللموتى، وليس للفرد قيمة خاصة، وكلٌّ قيمته عند نفسه لا في نظر الحياة، وهي قيمة مبعثها الشعور بالذات، ولو فقد المرء شعوره بذاته لفقد تبعًا لذلك ما ينحل نفسه من القيمة، ولما عَزَّ عليه الموت إلى هذا الحد، ولا استهول أن يصبح، فإذا هو جثة هامدة لا سعي لها ولا حس ولا رُوح فيها ولا نَفَس، تتحلل في التراب وتمتزج بعناصره وتتفاعل معها لتساعد «الحياة» على الإنتاج، كما ساعدها في وجوده فوق ظهر الأرض بصور الإنتاج المختلفة التي قدر عليها ووفق إليها. وقد لا نفهم الغاية التي تقصد إليها الحياة، أو قد تقصر أذهاننا المحدودة عن إدراكها، ولكن عجزنا نحن - المحدودي الأذهان - عن إدراك كنه الحياة والتفطن إلى غاياتها ليس بدليل على أن ليس للحياة غاية، وإن كان كذلك ليس بالدليل على أن لها غاية، ولكن الحياة لا تكرر نفسها؛ لأن التكرار يكون عبثًا وسرفًا، وهذه الصرامة في قوانين الحياة والدقة الرائعة في سننها تُنَزِّهَانِهَا عن العبث، وأخلق بالإنسان - إذا نظر إلى الموت من هذه الوجهة، وجهة الحياة بالمعنى الأوسع - أن يرى فيه من السحر والفتنة مثل ما في الحياة نفسها، وأن يحس بنفسه تسمو وتحلق وتمتزج بروح الكون، وتتسرب فيها كالموجة في الموجة، وأن تذهل عن الخواطر الأرضية جميعًا.

خواطر في الحياة والموت

مجلة الرسالة بتاريخ مارس ١٩٣٦ نشر في :

كلما فكرت في أمر الموت ازددت حيرة، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه، وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا في عيني، ويجعلني بالحياة أقل احتفالًا، فإذا الأمر على خلاف ذلك، والحال على نقيضه. وما أظن بغيري إلاَّ أنه مثلي، وقد أقول لنفسي حين أخلو بها - **وقلّما أفعل هذا الآن**: إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التي يسكن إليها الحي ويطيب بها نفسًا، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجاري علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد؛ نسمنها لنذبحها آخر الأمر، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحمًا وشحمًا وأنَّا نزداد علمًا وفهمًا، ولا أدري من الذى قال إن الحياة مدرسة، ولكن الذي أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها - ولا أقول أقلها -حكمة؛ ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه لانتفاء الإرادة الشخصية، ولأن المدرسة هي الدنيا كلها، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء، والعالم والجاهل سِيَّانِ، واللبيب كالغبي، والساعي في وزن القاعد، والمصير واحد، والمآل لا يختلف، وكل من في هذه المدرسة العجيبة يتلقَّى علومه الخاصة التي لا تشبه دروس غيره، ولا ترى أحدًا يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونَسِيَهُ؟ وكل واحد عالم وجاهل في آنٍ معًا، يعرف ما أتيح له أن يعرف، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه. وقَلَّ أن ينتفع أحد بما تعلَّم في حياته لأنه يدفن معه في قبره ويلف عليه وعلى تجاربه ومعارفه كفن واحد. وكم تساءلت - وأنا أتدبر هذا كله - عن الحكمة في تضييع ما أفاد الإنسان في حياته من العلم والخبرة؛ ذلك أن كل ما

حصل في حياته يموت معه، وسبيل إلى استنقاذ التجاريب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضي صاحبها نحبه ويستوفي أجله، فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الإنسانية كلما مات منها فرد، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير؟ من يدري؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا، ولكن العسير أن تجعله يفهم أنه يخلق للممات. فلماذا يكون هذا هكذا؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له؛ ذلك أن الإنسان يموت منه كل يوم شيء، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة في إثر أخرى، حتى تصوِّح وتعطب، وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا؟ والآمال يدركها الحين، والشباب يذهب والصباحة يغيض ماؤها، والنشاط ينضب معينه، والشعر الأسود يبيض، والقوة تسترق، والقناة المعتدلة تتقوَّس، والسمع يثقل، والنظر يضعف، والشهوات تفتر والعجز يدب دبيبه شيئًا فشيئًا؛ حتى يوافي الأجل فيكون كل هذا تمهيدًا له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت، حتى كر الأيام إيذان مستمر بالموت الزاحف وليس يسع الإنسان حين يتأمل ذلك إلاَّ أن يشعر أن كل يوم يعيشه هو يوم يموته والواقع أن الإنسان في يومه غير ما كان في أمسه؛ لأن الحياة قائمة على التحول أو هي دائرة على الموت إذا شئت، ولا سبيل فيها إلى بقاء شيء أو ركود حال، وكل ساعة تمضي علينا تمضي بشيء مِنَّا، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجيء غيره ويموت ثم يُخلق خلقًا آخر، ولكن سرعة التعاقب في الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبهًا يخفي وجوه الاختلاط. والذي يديم النظر في المرآة لا يفطن إلى التغير الذي حدث، ولكن الذي يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت، وحالت عمَّا كان يعرف.

فالموت يعيث فينا نهارًا وليلاً. وصباحًا ومساءً، وكل إحساس أو رأي أو اعتقاد لنا يتغير، هو ضرب من الموت يدركنا، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة في آمالنا أو إخفاق في مساعينا رياضة لنا على ما نحن سائرون إليه من المآل. وقد أتساءل أحيانًا عن معنى حياة مجهولة للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه في كل حالة ومظهر؟ ولا جواب هناك أعرفه لسؤالي، وقد يئست من إمكان الاهتداء حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت، أو أبالي كيف أكون في يومي، وماذا يكون من أمري في غدي. وهل الإنسان إلاَّ مقبرة متحركة؟ بل أنا أبالي - كما قدَّمت في مستهل هذه الكلمة - ولكني أغالط نفسي، وأصرِفُهَا عن النظر إلى هذا الجانب الأسود، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أريقه على جوانب العيش من ضوء يردُّها مشرِقَة ضاحكة. ومن هنا نشداني للفكاهة وحرصى على الوقوع عليها. ومتى تساوى الحزن والفرح، وتعادل الغضب والرضى، وكان الاهتداء في وزن الحيرة والضلال، وصار البكاء والضحك سِيَّيْنِ، فالضحك أولى إذا قدرت عليه، والدنيا مأتم فما أحقنا بأن نسر الناس، أو نسري عنهم، أو نذهلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطَّنة بالموت، وذلك يتطلب الإرادة، ولكن الإرادة تكتسب.

سرقت لأصبح أديبًا

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ سبتمبر١٩٤٨

حدثني بعض الزملاء قال إن الأدباء الشبان يزعمون أننا نحن «الشيوخ» كما يسموننا - نسد في وجوههم كل الفجاج! فتبسمت وقلت لنفسي: يظهر أن شياطيننا مردة، وشياطينهم صبية صغار لا يزالون يلعبون في «الحارة» ويُهملون اكتساب المعرفة والتجربة والحنكة!

وأتكلم جادًّا فأقول إني تذكرت كيف كنت وأنا غض السن صغيرها، وكيف كان يُخجلني حتى أن أمر على مقهى، فأنزل عن الرصيف إلى الشارع! وكيف كنت أحيي الليل بالسهر وأنا عاكف على قراءة كتب عويصة مثل «أصل الأنواع» لداروين، وعلى طبعة سخيفة ولكنها رخيصة ـــ وتلك كانت مَزِيَّتها يومئذٍ ـــ لكتاب الأغاني تكاد تعصف بالعقل، وعلى طبعة «هندية» أهداها إليَّ صديق كريم لديوان الشريف الرضي، محشوة بالأغلاط والتصحيف والتحريف.

وتذكرت كيف كنت أنفق نصف دخلي على اقتناء الكتب، وكان موظفو مكتبة «ديمر» يعرفونني ويأتمنونني لكثرة ما أشتري منهم، وهو في كل شهر فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافَلْتُهم وسرقت طبعة «جيب» لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعة كاملة منها بشروحها وتفاسيرها، ولا خوف من الاعتراف بهذه الجريمة، فقد سقطت «بمضي المدة» ثم إنها جريمة طالب معرفة، لا جريمة طامع في مال!

وكنت كثير «الغياب» في مدرسة المعلمين، لأني كنت أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم، ثم أنام فأتخلَّف، فدعاني ناظر المدرسة المرحوم إسماعيل حسنين باشا -عليه ألف رحمة - **وقال لي:** «يا بني، إنك «حمار» في العلوم الرياضية، وأنا أخشى عليك الرسوب، ولا ألومك على التخلف ما دام

هذا عذرك، فخذ إجازة خمسة عشر يومًا، واقرأ ما شئت، ثم واظب بعد ذلك على الحضور.

وكان أساتذتنا يحضوننا على القراءة، وتخرجت، وصرت مدرسًا في مدرسة ثانوية، واتفق يومًا أن كنت في مقهى فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية، وكان معي كتاب «الشاعر على مائدة الإفطار» لويندل هولمز، وكنت أقرأ فيه، فما كان هناك يومئذٍ بنات يشغلن الجالس في المقهى بالنظر إليهن مُقْبِلات ومُدْبِرات، فمر أستاذي في الأدب الإنجليزي، فنهضت لتحيته، فقال لي بعد كلام: «لقد أصبحت موظفًا، وأكبر ظني أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع.» فأريته الكتاب، فربَّت على كتفي وقال: «هذا ما أرجو، أن تظل تقرأ وتقرأ ولا تشبع، وأن تحرص دائمًا على أن تضيف عقولًا إلى عقلك.» فقلت في سري: هذا مثل كلام الجاحظ الذي ما ترك في زمانه شيئًا يُقرأ إلا قرأه، وقد مات حين سقطت عليه كتبه!

وكنت أكتب، وأنظم الشعر، وأحاول النشر، ولم يكن ثمة سوى جريدتين تشجعان الأدب، هما «الدستور» لفريد وجدي بك، و«الجريدة» للطفي السيد بك وكنا نفرح حين يُنشر لنا شيء، وإن كنا لا نتقاضى عليه أجرًا، فما كان يخطر لنا الأجر على بال، ونظمت قصيدة طويلة قلت أنشرها في «اللواء» فلبثت ثلاثة أسابيع أسعى وأرسل الشفعاء والوسطاء حتى نُشِرَ نصفها!

وكنا نطبع الكتب على نفقتنا، ونودعها المكتبات «أمانات»، ويتكفل الإخوان «بتوزيع» بعضها مجاملة ومساعدة. ومن ألطف ما يُروى أن أحد إخواننا طبع كتابًا، وأودع نسخًا منه مكتبة، ثم مَرَّ بعد شهور بالمكتبة يسأل عمَّا بيع من كتابه، فطلب صاحبها «الإيصال» فقدمه إليه، فدسه في فمه وبلعه!

وأصبحت أديبًا معروفًا، تستكتبه صحف شتى، واسمه يظهر كل يوم، وكنت أكتب وأنشر، منذ سنة ١٩٠٧، ومع ذلك بِعْتُ أضخم كتاب لي- وأحسن ما كتبت في رأي بعض الزملاء- في سنة ١٩٢٤ بثلاثين جنيها! وقد طُبِعَ

الكتاب ثلاث مرات، ولكن هذا كل ما أفدت منه، ويقول المثل العامي «يكفيني نعيرها» أي الساقية ولم يخرج منها ماء! وقد كفاني «نعيرها» فعلاً.

وفي سنة ١٩٢٩ تفضل ناشر فطلب أن ينشر لي «صندق الدنيا» وهو أروج كتبي، فقبلت وطُبِعَ الكتاب، ونفد، ولم أقبض من ثمنه مليمًا واحدًا!!

وفي سنة ١٩٣٠ طلبت مني مجلة الهلال مقالًا، فلبيت، وبعد أيام تلقيت رسالة مسجلة فيها «شيك» بخمسة جنيهات! وكنت وحدي في غرفتي، ومع ذلك احمرَّ وجهي خجلاً - أو شعرت أنه أحمَرَّ- فقد كان هذا أول أجر على مقال أدبي وكان قد تقرَّر في نفسي أن الإنتاج الأدبي لا يباع، ولا يطلب به الربح.

أريد أن أقول إن طريق الأديب طويل وشاق، وإن ظل خطوة فيه تتطلب منه كفاحًا وصبرًا، وإن الذين يُعَدُّون شيوخًا فيه إنما صاروا كذلك، لا بارتفاع السن، بل بأنهم يعدون أنفسهم «تلاميذ» لا تنقضي حاجتهم إلى الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما، وبالنظر والتأمُّل، ومحاولة الإدراك الصحيح.

وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لا بد له من غذاء.

في الحب أيضًا

نشر في مجلة :الرسالة بتاريخ : فبراير ١٩٣٧

أرجو ألاَّ يتوهم أحد أن هذا حديث في فلسفة الحب؛ فإنه لا قدرة لي على الفلسفة، وقد فقدت إيماني بها منذ خذلتني وخيَّبت أملي وعجزت عن أن تفسر لي شيئًا مما يحيرني في هذه الحياة. وقد قرأت كثيرًا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمي، غير أني لم أقتنع به ولم أسترح إليه، ومن سوء الحظ حظي أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه- أنه ليس لي في هذا الباب تجربة تستحق الذكر، حتى كنت أعرض ما يقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت، وأرى إلى أي حد أصابوا ووُفِّقُوا. ولست أكتمكم أني عاجز عن هذا الحب، وعسى أن أكون واهمًا لا عاجزًا، ولكني ما قرأت قَطُّ شعر العشاق وما قالوه في الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والإحساسات في القرب والبعد، والإقبال والصد، والمواتاة والحرمان، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسي — حين أخلو بها: «**اسمحي لي يا نفس أن أقول" :** إنك - ولا مؤاخذة - بليدة» فتسألني: لماذا؟ فأقول «لأني لا أراك تحسين شيئًا من هذا الذي أجمع على وجوب الإحساس به الشعراءُ والناسُ قاطبة، فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟» ولا أحتاج أن أقول إني لا أخرج من هذا الحوار الذي يدور بيني وبين نفسي بشيء آنَس به وأستريح إليه؛ فإنها تصر على أن الناس مبالغون وأُصِرُّ أنا على منطق «قرقوش» المشهور؛ فقد قالوا إن ناسًا كثيرين وضعوا رجلاً من الأحياء في نعش وحملوه فيه كالميت، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدًا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة، فأطرق قرقوش قليلاً، وفتل شعرات من لحيته، ثم رفع رأسه ونظر إليه وإلى

الناس **وقال**: «أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟» وكذلك أنا مع نفسي لا يعقل عندي أن تكون هي وحدها على صواب، وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة أو مبالغة.

ولا أنكر أن نفسي كانت تتحرك أحيانًا، فأشجعها مسرورًا، وأستحثها فرحًا بيقظتها بعد طول السبات، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقي من فرط شدتها؛ فأفيق وتعود فتهوي به إلى قريب من حذائي، كأنما هذا ليس قلبًا وإنما ركب لي الله سبحانه في مكانه لعبة من لعب «اليويو» التي شاعت في الزمان الأخير. وأحيانًا أشعر بأن حولي فراغًا وأحس شيئًا من اللهفة وقليلًا من الشوق، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يَسْوَدُّ من جرائها العيش، وشبيه بذلك أن يشتهي الإنسان أن يرى شريطًا من أشرطة السينما سمع عنه ثَنَاءً أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضًا كبيرًا في بلد ناءٍ ولا أظن أن هذا يعد حبًّا بالمعنى القديم أو الحديث.

وللسامع العذر إذا تساءل: كيف إذن كنت تقول الشعر في شبابك، وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته، وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك؟ والسؤال طبيعي ولكن الجواب عنه حاضر، ولولا عادة الصدق التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة لعَزَّ الجواب. والجواب يعرفه القراء فقد سقته في فصل سابق عن الحب نشرته لي «الرسالة» وخلاصته أني أوحيت الحب إلى نفسي.

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك، ولكني أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الإيحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعُرف، ولو خلت الكتب ممَّا نقرأه في وصف الحب وأثره في النفس، وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبًّا لا يخرج بالنفس عن الاتزان؛ لصار الحب هادئًا فاترًا كالصداقة. وأحسب أن الفرق بيني وبين غيري ليس هو أني شاذ وهم طبيعيون، بل أني تأثرت بإيحاء الجماعة وإيحاء الكتب، وأنا عارف بذلك

مدرك له متفطن لحقيقته، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تمامًا، ولكنهم لا يدركون أن في الأمر إيحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه، والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين- على الإيحاء، وكل امرئ يوحي إلى كل امرىء آخر ويستوحي منه، بل نحن نستوحي الأشياء كما نتلقى الإيحاء من الناس.

ويخيل إليَّ أن الحب اسمه غلط؛ فإنه يبدو لي أن هذه العاطفة التي نسميها الحب خالية في الحقيقة من الحب، والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مَوَدَّة وهذا كلام قد يبدو متناقضًا ولكني أظنه صحيحًا؛ ذلك أن الحب ضرب من الجوع ولا تقولوا إنه جوع معنوي فإن هذا يكون تخريفًا؛ إذ ليس ثَمَّ فيما يتعلق بالإنسان أو الحياة شيء معنوي. والإنسان مادة وكل ما في الحياة من المادة وإلى المادة فلندع هذه الخيالات ولنجتزئ بالحقائق؛ فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل والمرء يجوع فيشتهي الطعام أي يطلبه، لا لأنه يحب الطعام في ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التي يشعر بها ويقضي الرغبة التي تلج به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل، وكذلك يجوع جوعًا من ضرب آخر، جوعًا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعة في النسل إطاعةً لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الآكل والمأكول مودة كذلك لا ينبغي أن يقال إن بين المحبين مودة، إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة في الالتهام أو الاستحواز إطاعةً للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين؛ لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة، وهما لا يستعملان سلاحًا ولا يحدثان جراحًا، ولكن الواقع أن القُبَلَ والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين، كل ذلك ليس إلاَّ وسائل للتليين بغية التغلب.

وقد استعمل الشعراء ألفاظًا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لايشعرون فذكروا في مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هي أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته -وهي النسل - تنطوي على تعرض للتضحية الكبرى على الأقل من جانب المرأة، وسبيله الإخضاع.

فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذي جعلتها الطبيعة أداة له، والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذي يطلبه بغريزته، والحال بينهما دائر أبدًا على الكفاح. وفي كل شعر صادق قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلي لها.

والحب يتخذ الصورة التي يؤدي إليها التفاعل بين عاملين: الأول وهو الدافع الغريزي للإنسان، والثاني هو مقاومة الجماعة، وهي مقاومة مرجعها إلى العُرف والدين وما يجري هذا المجرى. وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدًا في الجيل الماضي من ذكر الحب والاعتراف به أو المجاهرة به؛ لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يُستهان به، وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام **وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور**: «إذا بُلِيتُم فاستتروا» فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العُرف، وكان الشبان مثلاً يستحيون أن يجلسوا في القهوات، وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات، ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها، وانتشر التعليم، وشاع الاطلاع على الآراء

الجديدة في الأمور الجنسية، وهدمت الهيئة القومية المصرية حواجز كثيرة وفي جملتها ما كان يفصل بين الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس — شيئًا فشيئًا — يلهجون بذكر الحب ويتناولونه في مجالسهم وفي كتاباتهم تناوُلاً هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمي، ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون في الأمر موجبًا للحماسة أو داعيًا للخجل أو باعثًا على الاستحياء. وجاء التطور الاجتماعي ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادمًا لحاجز منيع بين الرجل والمرأة.

وفي الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها، فإذا لم تكن ثَمَّ ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه في سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر.

ومن أخطار الحرية في بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التي تقابل الحقوق، والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة؛ وبذلك فقد الحب الهالة التي كانت حوله وسُلِبَ القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرًا عاديًّا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية؛ لأن وطأة العُرف والتقاليد ضعفت وخفت جدًّا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة في الأغلب والأعم، وفي مثل هذه الأحوال التي يعظم فيها الترخُّص والتسامح يندر الحب القوي العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر في ركود الشعر إلى حد كبير في هذه الفترة من حياتنا الأدبية.

معاملة الناس

نشر في مجلة : الرسالة – بتاريخ سبتمبر ١٩٣٧

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم، لكنت حريًّا أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل؛ فقد كان الفقر لا يعيب أحدًا في ذلك الزمان، ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه وكان حسن الأدب والتواضع ولِين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به، وكان للعلم شأنه وكرامته، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها، وكان الصغير يوقِّر الكبير، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه، إلى آخر ذلك ممَّا لا حاجة إلى التقصي فيه. وقد أدركت بعض ذلك؛ ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة، دَقَّ علينا الباب رجل من العلماء كان زميلًا لأبي، وقال إن «الأفندي» - يعني والدي فقد اتخذ زي الأفندية في آخر زمانه - ترك معه قُبَيْلَ وفاته مبلغًا من المال، وإنه لا علم لأحد بذلك، وإنه يخشى أن يزوره الأجل، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير، ولا أدري ما شأن غيري، ولكن الذي أدريه أنه لو ائتمنني أحد على مال له لكان حقيقًا أن ييأس من رده!

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له، وأن صاحب المال - وإن كان قد جمعه بِشَرِّ الوسائل وأرذلها وأسفلها - قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم، ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير، وأن من شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه، فإذا كنت معهم عَفَّ اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب، لم يهابوك ولم يبالوك، ولم يتقوا

أن يسيئوا إليك وإن كانوا يرون منك أنك تكره أن تسيء إلى نملة، وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلًا منهم وإيثارًا للصنع الجميل، لا حقًّا لك عليهم. أما إذا كانوا يعرفون أن أدبك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لِينَكَ قد ينقلب صلابة وعنفًا، ورِقَّةَ ملمسك خليقة أن تحور شوكًا حادًّا كشوك القنفد، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التي ترسمها لهم في علاقتك بهم، وتفرضها عليهم، فأيقِنْ أنهم لا يكونون معك في حال من الأحوال إلاَّ على ما تحب وترضى، وقد يسخطون عليك في سريرتهم ويكتمونك ما ينطوون عليه لك من المقت والحقد، ولكن هذا لا قيمة له؛ فإن الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم. وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لا يجرءون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويُبدون غير ما يبطنون، ولكن الحيلة في ذلك قليلة، والشأن شأنهم لا شأنك، وعلى أنه ما داعي الغيظ والنقمة؟ وما موجب الكراهية والمقت؟ وما الحاجة إلى النفاق؟ إنَّ كل ما تبغيه منهم أن يجتنبوا الإساءة إليك كما تجتنبها إليهم، فإذا بدأوك فإنهم الظالمون، **والشاعر القديم يقول:**

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمَك وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا!

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الإساءة بلا مسوغ، فذنبهم على جنبهم، وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمردًا على سوء الخلق وقلة الحياء! كان كبيرٌ من الكبراء يدخل حيث أكون، فيمر بي وكأني قطعة أثاث، وكنت ألقاه كثيرًا، فحملت هذا في أول الأمر على الذهول أو نحوه، ولكنه كرَّر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة، **فقلت:** أكيل له بصاعه، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأهمله، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك، ولم يكن له غير هذه النفخة، فلما خرقت القربة المنفوخة، لم يبقَ شيء، فلم يطق صبرًا، وأقبل يومًا فهممت أن أشيح بوجهي عنه فإذا هو يطوقني بذراعيه!

وليست هذه المبادئ التي يُلقنها التلاميذ في المدارس، ولكنها هي المبادئ التي أُلقنها ابني، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه، لا مثلي، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه، فخيب الناس والدنيا أملي في كل ناحية، وأحدثوا لي رجَّات نفسية أتلفت أعصابي. وكنت أعتقد مثلًا أن في وسعي أن أسير في الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إليَّ أحد، وأن عليَّ أن أعطي الناس حقوقهم في صراحة وبإخلاص، وأن لي أن أثق أن سيعطيني الناس حقي ولا يقصرون في أدائه إليَّ كاملاً، فإذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه. أنا أكف أذاي عن الناس، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك، حتى لصرت مضطرًّا أن أحتال لاتقاء أذى الناس، وأنا أؤدي للغير حقه غير منقوص، ولا أبخل عليه بالإسراف في الأداء، ولكنه هو لا يخطر له أن لي حقًّا يؤدَّى، أو كرامة تُحفظ لا لسبب إلاَّ أني لا أَتَقَحَّمُ على الناس ولا أركبهم بالغطرسة، ولا ألح عليهم ببيان ما يجب لي؛ ومن هنا تغير رأيي في كل ما نشأت عليه، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان، وتغير سلوكي مع الناس، واختلفت سيرتي وتربيتي لأبنائي، وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان، فما لهذا معنى، ولكني لا أتردد في دفع الأذى، ولهذا مزيته، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيِّرين!

الدستور ورجل الشارع

نشر في جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ ديسمبر ١٩٣٠

الفرق بين الحكم الدستوري وغيره فيما يُحس «رجل الشارع» ـ كما يقول الإنجليز ـ هو أن الأول (أي الحكم الدستوري) يفيده الشعور بالرضى والاطمئنان على حرياته وحقوقه، والقدرة على تغيير ما لا يروقه، وقد يكون الواقع خلاف ذلك وربما جاء الحكم الفردي أحيانًا أصلح وكان أبعث على الارتياح، ولكنه -بالغًا ما بلغ من الصلاح - يسلب رجل الشارع هذا الشعور ويمنع نشوءه في نفسه؛ ذلك أنه يقوم على إرادة الفرد لا على إرادة الجماعة في أي مظهر من مظاهرها، فعمل الفرد من الأمة هو أن يسمع ويطيع، من غير أن يكون له اشتراك مباشر أو غير مباشر فيما يُلقى إليه من الأمر؛ وهو لذلك لا يستطيع أن يشعر أنه آمن على ما يتمتع به من الحريات أو يستعمل من الحقوق، وكل ما في يده من ذلك هو عرضة لأن يُسلبه وسبيله أن يحتمل، أو أن يتوسل ويتضرع، أو أن يتمرد ويجنح إلى الانتقاض وهو يحتمل ما يسخطه ويتصبر ويتشدد، ويشقى صبره فيشكو، حتى إذا استنفدت الحوادث مجلوده خرج عن طوره وأعرض عن ذكر العواقب وثار، وهذا شر ما في الحكم الفردي، أو أي طراز من الحكم لا يتوقى هذه المغبة بأن يدع للشعب متنفسًا، ويترك له سبيلاً مشروعة يمضي منها إلى غايته من غير أن يشعر بوجوب اللجوء إلى العنف والثورة.

وليس كذلك النظام الدستوري؛ فقد يتفق أن يتولاه من يسيئون استعماله؛ فيَفشو الظلمُ في عهدهم وتثقل وطأة الحكم في ظلمهم على الناس، ويعظم الخطب ويشتد الكرب وتضيع المصالح وتُهمل المرافق، وتُنتهك الحريات وتُغصب الحقوق؛ ولكن الشعب أو رجل الشارع يبقى له شعوره الذي ينقد الموقف، وهذا الشعور هو أن في وسعه أن يغير هذا الحال، وأن يُنحِّيَ عن

الحكم من لا يحسنونه، وأن يأبى عليهم الثقة التي مكنتْهم من ولاية الأمر؛ وذلك بإيثار غيرهم في الانتخابات التالية حتى يجيء يومها، فليس ليل الظلم عليه سرمدًا، ولا الكرب الذي يعانيه مخلدًا، وللأمل مضطرب واسع، وللسعي طريق معبد، وموعده يوم الانتخاب، وهو مهما بعُد قريب.

وصحيح أن رجل الشارع لا يتولى الحكم ولا يشترك فيه، وأن رأيه لا يقيد ممثليه، ولا نكران أن الأمور تجري من غير أن يَرجع إليه الذين يقطعون فيها برأي وغير مردود أن الأمر يخرج من كفيه بعد أن يُبدي رأيه يوم الانتخاب، وأنه لا يملك بعد ذلك أن يكبح المسيء أو يرد المخطئ إلى الصواب، ولكن له مع ذلك عزاءً مزدوجًا؛ هو أن حرياته وحقوقه وديعة في يد القضاء يحميها ويرد عنها من يريدها بالسوء، ثم إن المصير على كل حال إلى رجل الشارع، والأعوام تمر والأيام تنقضي ثم يعود الأمر إليه ويحتكم المتنافسون على الحكم إلى إرادته واختياره، وفي مقدوره حينذاك أن يُشيح بوجهه عن الذين أساءوا السيرة وأن يُؤْثر عليهم غيرهم ممن يكون هو أحسن بهم ظنًّا.

وصحيح كذلك أن رجل الشارع ليس بالأخصائي في الفقه الدستوري، وأنه لا يستطيع أن يزن الدستور من هذه الناحية وزنًا دقيقًا محكمًا لا يغل شعيرة، ولكن غير صحيح أنه عاجز عن تكوين فكرة مجملة عن الدستور وروحه؛ فإن في وسعه وإن أعياه أن يورد النصوص ويستشهد بالمبادئ والأحكام - أن يَخرج لنفسه برأي صحيح في جملته عن روح أي دستور، **وليس يخفى عليه فرق ما بين دستورين**: واحد يُضيق سلطة الأمة وآخر يُوسعها، أو واحد يجعلها هي المرجع في الظاهر، وثانٍ يجعلها كذلك في الحقيقة، وليس عجزه عن الجدل الفقهي بمانع أن يكون ما استقر في روعه صحيحًا على العموم، ومن الجهل بالحقائق أن يتصور الإنسان أن رجل الشارع مخلوق لا يُعنَى إلا بطعامه وشرابه، ولا يتقبل ذهنه ما يعدو حاجاته

المتصلة بوجوده الحيواني؛ فقد يكون بُعده عن البحوث الفقهية المعقدة أَعوَن له على صحة التفكير واستقامته، وأضمن لخلو تفكيره من الاضطراب الذي يؤدي إليه تشعب البحث وتعارض الآراء، وأدْعى إلى أن تكون النظرة مستقيمة لا عوج فيها ورجل الشارع ينظر إلى الحقائق ويقيس إليها كل شيء، ولا يتعلق بالكلام النظري؛ لأن حياته عملية، وكذلك أساليبه في معالجة الأمور وفي فهم الأشياء، ومن هنا كان حكمه على الأمور حقيقًا بأن يكون أصدق؛ لأنه يحكم عليها وهو مواجه للحقائق الواقعة غير مغالطٍ نفسَه فيها، أو ضال بينها كما يضل الواسعُ العلمِ العميقُ التفكيرِ، وإن كان جمهور الناس على خلاف هذا الرأي، وكانت العقيدة الشائعة أنه كلما كان الإنسان أعلم وأكثر تفكيرًا، كان أَسَدَّ لذلك نظرًا وأهدى سبيلاً وبحسبنا في دفع هذا الوهم الذي يركب الناس أن نقول إن العامة كثيرًا ما يكونون أفهم للحياة وأشد توفيقًا في الاهتداء إلى حقائقها، ولكل أمة أمثالها الشائعة الدائرة على الألسن، وهذه الأمثال كنز عظيم، من هم الذين يضعونها ويفرغونها في القوالب التي تجعلها أَسْيَر وأذيع وأسهل في الترديد؟ ليسوا هم العلماء والمفكرين وإنما هم العامة والأميون، وعامَّةُ كل أمة هم الذين يختزلون حكمة الحياة ويلخصون تجارب القرون، ويختصرون الحقائق الخالدة في ألفاظ قليلة تذهب مثلاً وليس على من شاء إلاَّ أن يحضر إلى ذهنه طائفة من أمثال العامة، ويتدبرها ليرى إلى أي عمق يصل العامة في التعبير عن حقائق الحياة وفي اختزال حكمة التجارب وكون هذه الأمثال الحكيمة العميقة تجري على ألسنتهم وتصدر عنهم بلا عمد لا ينفي أن الذهن الذي ابتدعها وأحسن العبارة عنها قد شُغل بها، وأنها هي قد دارت فيه وظلت تتكون حتى انتهت إلى البروز في صورة تامة يصح إلقاؤها إلى الناس، ويستطيع الناس أن يتلقفوها بسهولة.

فكون رجل الشارع أخصائيًّا في الفقه الدستوري ليس معناه أنه لا يفهم ولا يدرك الأشياء على وجهها الصحيح، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه وغشها؛ ومن هنا هذا الامتعاض العام من الدستور الجديد، وهو امتعاض

تستغربه الوزارة الحاضرة وتظنه راجعًا إلى فعل خصومها، وتتوهم أن رجل الشارع إذا تُرك وشأنه وبقي بمنجى من تأثير هؤلاء الخصوم، خليق أن يرضى آخر الأمر عما يتسخط الآن من هذا الدستور، ولا شك أن خصوم الوزارة لا يكتمون رأيهم في الدستور الجديد ولا يحجمون عن بث نقدهم له وإفشاء اعتراضهم عليه، ولكنه لا شك كذلك أن الامتعاض العام راجع في مَرَدِّ أمره إلى ما استخلصه الناس من روح هذا الدستور، وانتهوا إلى الاعتقاد فيه من غير أن يكون لخصوم الوزارة أثر يذكر في إحداث هذا الشعور، والقول بغير ذلك لا يكون إلا عن جهل لروح الجماعات وقلة فهم لطبيعتها وسوء رأي فيها.

ورجل الشارع لا يجد أنه يفيد من هذا الدستور الجديد ذلك الشعور الذي أسلفنا الكلام عليه في مستهل هذا المقال، وقد يشق عليه أن يبيِّن علة بنص الأحكام التي اشتمل عليها الدستور، ولكن هذا لا قيمة له؛ لأنه يَعرف - وحسبه هذا أن الدستور لا يجعل الأمر إليه حتى يوم الانتخاب، وأنه لم يعد ذلك المرجع الأخير الذي كانه بمقتضى الدستور الذي ألغته الوزارة، فليس في وسعه أن يُحس برضًى أو يشعر باطمئنان على حرياته أو حقوقه، أو أن يتعزى عما يسخطه بأن في مقدوره حين يكر المختلفون إلى الاحتكام إلى إرادته، أن يجعل لهذه الإرادة المظهر الذي يُؤْثره، بنقل ثقته من فريق إلى فريق، وإذا عدم رجل الشارع هذا الشعور فماذا يبقى له؟ وأي فرق يكون عنده بين نظام دستوري وآخر غير دستوري؟

ورجل الشارع كتلة بطيئة ولكنها لهذا وطيدة، وكذلك الحق، وقد يستخف بها الذين يحسبون أنهم من طراز المتفوقين، ولكنهم لا يستطيعون أن يتقدموا خطوة من غير هذه الكتلة، وليس المهم -آخر الأمر -ما يفعله أو يفكر فيه المتفوقون، بل ما تتقبله وترضى عنه وتأخذ به هذه الكتلة.

العراق بين ماضيه وحاضره

نشر في مجلة : الكتاب بتاريخ ديسمبر ١٩٤٥

سمعت صديقًا عراقيًا أديبًا يقول: إن العراق لا يقر له قرار، وإنه أبدًا في قلق وتحفز، وليس من شأن ذلك أن يكفل له اطراد التقدم.

وضحك وقال: «لعلك لم تنسَ ما قال الحجاج".

يشير إلى كلمته المشهورة: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق والله ... إلخ.

فقلت له: إن ما زعمه الحجاج غير صحيح، ولست أحتاج أن أقضي في العراق عمري لأعرف ذلك، فإن به من مصر مشابه كثيرة، والحجاج وأمثاله من الطغاة هم الذين يجنون على الأمم، ويورثونها ما تسميه أخلاق الشقاق والنفاق التي تعيبها.

والحقيقة أنه لم يظلم العراق أحد كما ظلمه الحجاج بهذه الكلمة، وأي شيء أظلم من أن يصبح العراق متهمًا بأنه - دون أمم الأرض - بلد النفاق والشقاق؟ أهو بدع في الخلق؟ أيدخل في عقل عاقل أن تتميز أمة من الأمم وتنفرد بهذه الأخلاق؟

وعندي أنه يجب التفريق بين الطباع الأصلية، والأخلاق المكتسبة، وينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: لماذا ينافق المرء؟

وماذا ينزع به إلى الشقاق؟

وأحسب أن الجواب أنه ينافق لأنه يخاف ولا يطمئن إلى عواقب الصدق والصراحة، ولا يرى أنه في أمان من صروف الحذر، فهو يلقي نفسه - مضطرًا لاتقاء الشر أو اجتلاب الخير - إلى المصانعة والتقية.

وكل امرئ في هذه الدنيا يحتاج إلى قدر من المصانعة؛ لأنه لا يسعه أن يكون صادقًا صريحًا في كل حال، وما أظن إلا أن الدنيا تفسد، والحياة تعود وهي مما لا يطاق لو كان كل إنسان يُظهِر ما يبطن، ولا يجري لسانه إلاَّ بما

يدور في نفسه ولكن هذا القدر من المصانعة الذي لا تطيب الحياة إلاَّ به، ولا تستقيم أحوال الناس بغيره شيء، والنفاق الذي تضطر إليه الأمة شيء آخر، مختلف جدًّا، فالأول ليس أكثر من وسيلة تصفو بها العلاقات بين الناس من الأكدار، وأما الثاني فأثر من آثار الاستبداد، وكل أمة إذا طال عهدها بالحكم الفردي الاستبدادي تلقي نفسها مكرهة على اصطناع النفاق وتوخيه، حتى يصبح ذلك وكأنه طبيعة فيها أو مما فطرت عليه، وليس الأمر كذلك، فإن بضعة أجيال من الحكم الصالح القائم على الحرية وتحري العدل وإيتاء الناس حقوقهم، والمساواة بينهم، تغني الأمة عن ضرورة النفاق.

والنفاق وليد الخوف، ولا خوف في ظل العدل والمساواة والحرية، وقد ابتُلِيت مصر، كما ابتُلِي العراق، بأدهار طويلة من الحكم الاستبدادي الغاشم، فأورثهما الرغبة في إيثار العافية، وهو ما نسميه النفاق، وما هو إلا مظهر للمحافظة على الذات، أو الدفاع عن النفس؛ لأنه إذا كان المرء غير آمن على نفسه أو ماله، أو غير واثق من العدل، أو غير مطمئن إلى احترام الحقوق، فما حيلته إلا أن يصانع ويداري ويماذق ليتحفظ بمصلحته، أو يجتنب الأذى ويتقي السوء ويأمن الظلم والعسف؟

والمرء ينزع إلى الشقاق إذا لم يرضَ عن حاله، ومن ذا الذي يرى العدل قائمًا والحرية مكفولة، والحقوق مرعية، وفرص السعي والنجاح في كل ميدان متاحة لذوي المواهب، ثم يذهب يتسخط ويثير الشقاق ويجنح إلى الفتنة؟ لا أحد سوى الذين مُنوا بالعجز أو أسرفوا في الطمع، واشتطوا في طلب ما ليس لهم بحق، وهؤلاء لا يعتدُّ بهم ولا تأثير لهم.

ومهما يبلغ من عدل المستبد المستأثر بالحكم، فإن الأمر فيما يمس الشعب يكون أشبه بالمقامرة، فهو موكول إلى الحظ لا إلي القانون والحق، ومن هنا قلت لصديقي العراقي: إن الحجاج وأمثاله من الطغاة البغاة هم الذين يحوجون الأمم إلى أخلاق النفاق، ويضطرونها أن تنزع إلى الشقاق، ومن هنا

أيضًا كانت هذه أخلاق ضرورة، تزول بزوال دواعيها وبواعثها، أيْ متى حل العدل محل الظلم، وقامت الشورى مقام الاستبداد، واطمأن الناس إلى حرياتهم العامة والخاصة، ووثقوا من أن حقوقهم في أمان من العدوان.

فإذا كان في العراق أو مصر نفاق - فإنهما سيان - فهذه علته، أو شقاق فداعيه ما أسلفنا عليه القول، وقد صار العراق - كمصر - دولة حرة مستقرة، ذات دستور وبرلمان، ولكن الأمر لم يستقم بعدُ، لا هنا ولا هناك، وهو يحتاج إلى زمن غير قصير حتى تستوفي الأمة حظها من التعليم الصالح والتربية الاستقلالية القويمة وتتدرب على استعمال حقوقها، وتدرك قيمة هذه الحقوق فتحرص عليها، وتضن بها أن يعبث بها عابث، أو يغالطها في حقيقتها مغالط، وحينئذٍ يحل الأمن محل الخوف، والعلم محل الجهل، فتصبح الثقة والاطمئنان مدار السلوك.

ويقول صديقي العراقي: إن العراق قَلِق متحفز، فهو لذلك لا يستقر، والظواهر تؤيده، فإن الوزارات تقوم وتسقط بسرعة، ولا تكاد تبقى في الحكم زمنًا يكفي للقيام بأعمال الإصلاح، وهذا أيضًا حال مصر، وكل ما بينهما من فرق أن الجيش في العراق تدخَّل غير مرة لإسقاط وزارة وإقامة وزارة، وقد سمعت غير واحد من إخواني العراقيين يقول: إن الشعب لا يطيق أن يطول عمر وزارة، فإذا بقيت سنة بدأ يتململ ويضجر، ويظهر السخط ويطلب تغيير الحال.

ولست أستغرب هذا أو أرى فيه شذوذًا أو خروجًا عن حد الصحة في الأمة فإن تعليله سهل، ذلك أن الأمة إذا فازت بالاستقلال بعد معاناة عهد طويل من حكم لم يكن لها فيه رأي أو قول أو شأن، تشتد رغبتها في تعويض ما فاتها وإدراك مَن سبقها، وعلى قدر تنبهها ويقظتها يكون إلحاح هذه الرغبة وقوتها، فنراها بعد أن تستيقظ نفوسها تأسف على الماضي الذي ضاع وهي في غفلة من جراء الجهل والاستبداد بها، وتحس بحاجة إلى الإسراع في السير لتصل

إلى حيث تتطلع، وتبلغ ما تعتقد أنها جديرة به من منازل الكرامة والعزة والرقي، وتقيس حالها إلى حال غيرها، وتوازن بين مرتبتها والمراتب التي ارتقى إليها سواها، فتلفي نفسها متخلفة عن ركب الأمم، فتستعجل، وتستبطئ كل عامل مصلح، مهما بلغ من اجتهاده لها وابتغائه لخيرها، لأن كل ما ينجزه من الإصلاح يبدو لها قليلاً يسيرًا بالقياس إلى ما تنشد، فتتململ وتتبرم، ولا تحس أنها راضية، لأن العمل دون الأمل، ولأنها تنظر بعيونها فترى الأمم الأخرى تُغِذُّ السير بل تطير، على حين تحس هي أنها تمشي بخطوات السلحفاة، وقد لا يكون هناك بطء حقيقي، ولكنها تشعر بالبطء وتستثقله، لأن آمالها كبار، ونظرتها إلى الهدف البعيد والغاية القصوى، ولأنها تنسى وهي تتطلع إلى ما تنشد، قلةَ الوسائل عندها، وتوفُّرَها عند سواها من الأمم التي سبقتها في الميدان، وتغضي عن كونها حديثة عهد بتولي أمورها، وأن الأمم الأخرى تتولى جميع أمورها بنفسها منذ قرون.

وهذه هي الحال في العراق ومصر على السواء، ومن هنا كان السخط الذي لا ينفك يظهر، والتذمر من بطء السير.

على أن هناك علة أخرى مشتركة، بين مصر والعراق، ذلك أن الأمر في البلدين إلى الأمتين في الظاهر، أما الحقيقة فهي أن الأجنبي لا يزال يملك من الأمر كثيرًا ولأصابعه الظاهرة أو الخفية أثر فيما يكون، فالأمر ليس كله إلى الأمة، وإن كان هذا هو المفروض، ومهما أخفى الأجنبي أصابعه وسترها فإن الأمة لا يخفى عليها أن الأصابع تلعب من وراء الستار، إذا كانت لا تلعب جهرة، ومن الغفلة الشديدة أن يتوهم متوهم - أجنبيًّا كان أو مواطنًا - أن الأمة لا تفطن إلى لعب الأصابع الأجنبية.

ثم إننا لطول عهدنا بالاستبداد -في مصر والعراق على السواء -أصبحنا نميل إلى سوء الظن، وهذا بعض ما يجنيه الاستبداد على الأمم، فنحن لا نصدق أن الأجنبي قد كُفَّت يده عن العبث، وأنه نفضها من شئوننا كل النفض، وكل عمل نراه نروح نبحث عن أثر الأجنبي فيه، لأننا فقدنا الثقة من زمان

طويل بحكَّامنا أي من تلك الأيام التي كانوا يتولون فيها أمورنا على الرغم منا، وقد نكون مخطئين في قياس الحاضر على الماضي، بل نحن مخطئون في الأكثر والأغلب، ولكن الإنسان إنسان، وهو لا يستطيع أن يتخلص بسهولة مما ورثه في الماضي الطويل، فله العذر إذا أساء الظن، وليس مما يعين على إحسان الظن أن يكون للأجنبي قوة حربية في بلادنا بالغة ما بلغت من الضآلة أو قلة الكفاية، ومهما قيل في صفة هذه القوة وأنه ليست لها صبغة الاحتلال، فهي قوة أجنبية، ووجودها معناه ومؤداه التلويح بها للضغط، فلا اطمئنان مع وجودها إلى حرية التصرف، وإمكان إهمالها كأنها ليست هناك.

والعراق ومصر على حق في سوء ظنهما بما يؤدي إليه وجود القوة الأجنبية في البلدين، واعتقادهما أنهما من عوائق الرقي، فهي من بواعث الضجر والسخط وعدم الاستقرار.

وفي العراق ما ليس في مصر مثله، مثال ذلك: أنه قريب من الاتحاد السوفيتي وأن فيه جماعات غير عربية لا يؤمَن أن تستخدمها الدول المجاورة أو المتصلة به للتآمر على كيانه، فهو لهذا في حيرة غير هينة: يكره أن يكون لبريطانيا مركز في بلاده، مهما بلغ من هوان شأنه وقلة خطره، ولكنه من ناحية أخرى يخشى غير بريطانيا، ويحب أن يطمئن، فيلفي نفسه محتاجًا إلى عون بريطانيا، ويرى الدسائس الأجنبية تحاك، ولو كان قد بلغ من القوة والبأس ما يتطلع إليه لاطمأن إلى قدرته على القضاء عليها بمفرده، دون أن يحتاج إلى معين. ثم إن تعداده قليل وهو على قلة عدده لا يزال في بداية النهضة، فماذا يصنع؟ أيعتمد على بريطانيا؟ إنه لا ثقة له في قرارة نفسه ببريطانيا، وإن كانت ظروفه تحوجه إلى صداقتها، وقلة الثقة مرجعها إلى أن بريطانيا تنتهز الفرص لاستعادة نفوذها القديم بل سيطرتها السابقة، وإذا لم يحرص على صداقة بريطانيا فكيف يأمن جانب الطامعين فيه وفي موارده الطبيعية وخيراته، وفي مركزه الاستراتيجي؟ وهؤلاء الجيران ماذا تراهم

يضمرون لـه؟ وهل يسعه أن يكافح روسيا وبريطانيا في آن واحد؟ إن هذه حيرة مزعجة ولا شك، لأنه يريد - بحقٍّ - أن يستقل بأموره استقلالاً تامًّا، ولكن بريطانيا -في بلاده - وروسيا على مقربة منه (ودَعْ تركيا وإيران) لا تدعان له سبيلاً إلى الاطمئنان، أفلا يكون معذورًا إذا سخط وصب نقمته على من يستطيع أن يصبها عليه؟ إن عذره واضح!

ولكن في العراقيين رجولة تبعث على الاحترام بل الإجلال، وستنفعهم هذه الرجولة في الخروج من المآزق السياسية التي زجت ظروفهم بها فيها، وأنا على يقين جازم من هذا؛ لأني عظيم الثقة بهذه الرجولة التي تبينتها فيهم، والتي جاءت الحوادث بالدليل الناهض عليها، وإنها لحسبهم، ومتى كانت الرجولة وافية، فإن لك أن تثق بأن صاحبها لن تنقصه صفة من الصفات الجليلة في مواقف الشدة والحرج.

المصريون وروح الفن

نشر في جريدة : البلاغ- بتاريخ ديسمبر ١٩٤٣

كتب إليَّ بعضهم يستغرب قولي أو ينكره، إن المصريين مطبوعون على روح الفن، ولا يرى فيما سقته من الشواهد في محاضرتي في موضوع الرأي العام ما يكفي للدلالة على ما ذهبت إليه، فلا بأس من كلمة في هذا تجلو الغامض.

ولا شك أن في بلادنا جهالة فاشية، وأمية منتشرة، غير أن هذا لا قيمة له ولا وزن، فإن كلامنا ليس على الفنون بل على الروح التي تبدو مظاهرها في حياة الأمة، وفي أساليب الكلام، وفي العادات وفي العفو والعمد من العمل والسلوك، وما كان الجهل ليمنع أن تظهر الروح العامة وإن كان قادرًا على طمسها إلى حد ما وعلى الحيلولة دون الاتساع ورحابة الأفق، ودون الانتفاع بالاستعداد المضمر والمواهب الكامنة.

ويجب التفريق بين الأثر الفني في صورة أو قصيدة أو تمثال أو غير ذلك، وبين الروح الفنية، فقد أكون جاهلاً أعرف الكتابة ولا أقدر على القراءة فلا يمنع هذا أن تكون لي روح الشاعر، وأن تظهر شاعريتي الخرساء في أسلوب معيشتي وما أنا مغرى به وفيما أحب وأكره، وما أستظرف وأستثقل، وفي ثيابي وألوانها، وفيما آلفه وأنفر منه، وفي جدي وهزلي، وفي كلامي وإشاراتي ونظراتي واتجاهات نفسي وفي صناعتي والروح التي أقبل بها عليها وما أتوخاه فيها. وقد أكون أكثر الناس علمًا، وأعظمهم إحاطة بالمعارف وأوسعهم تحصيلاً بكل ما يدخل في الوسع اكتسابه، ولا أكون مع هذا خيرًا من كتاب ضخم غليظ يطيب منظره وهو على رَفِّه وينفع إذا فتحه قارئ، ولكنه فيما عدا هذا جامد خامد لا حياة فيه ولا حس ولا إدراك، ولا

ذوق ولا خيال، ذلك أن العلم شيء والروح الفنية شيء آخر. والروح يفطر عليها المرء، وقد يقويها التعليم ويقومها ولكنه لا يخلقها، ويجيء بعد ذلك الأداء، وأعني به العبارة عما في النفس بالوسائط الصالحة، وهو مَلَكة واكتساب في آنٍ معًا؛ لأن في كل فن وكل لون من ألوان الأدب مقدارًا من التقليد لا سبيل إلاَّ إليه، لأنه بعض ما يُورث ويجري به عرف الجماعة.

ونحن مثلاً لا نزال وسنظل على الأرجح، ننظم الشعر من البحور التي نظم منها أقدم شعراء العرب، وقد نزيد عليها بحورًا جديدة، ولكن الإضافة لا تمحو القديم، والألفاظ والقوالب التي نستعملها هي التي استعملها مَن لم نعرف ولم نسمع بهم ممن عاشوا في أزمان موغلة في القدم، والمجازات التي نتخذها في كلامنا وكتابتنا قديمة عتيقة، وأكثرنا لا يعرف أصلها ولكنا نفهم المراد منها حين نقرأها أو نسمعها، وهكذا في كل شيء آخر. ولو أن إنسانًا منا استطاع أن يحصي موروثه وجديده، لهاله أن حياته كلها تكاد تكون من القديم وأن الجديد فيها ضئيل، وأنه على الجملة يمكن أن يعد نسخة معادة ممن رحلوا عن الدنيا.

والعلم وحده لا يكفي في فن وأدب، وقلما يعنى إذا لم يؤازره الذوق والموهبة والذوق بمجرده لا يكفي ولا غنى عن التحصيل الذي يوسع الدائرة ويُعِين على الضبط والإحكام.

وفي مصر عشرات من الشعراء لا نسمع بهم، وإنما كانوا مجهولين لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون ولا يعرفون الصحف والمطابع، ولو أنشدتهم شعرًا عربيًّا لما فهموا على الأرجح، وهم مع ذلك يقولون شعرًا موزونًا ومقفى أيضًا، في الحقول وفي سهراتهم في الليالي القمرية، وكلما تحركت نفوسهم وجاشت صدورهم ببواعث الشعر من فرح وحزن وألم، وحب وكره، وحيرة واضطراب إلى آخر ذلك، وهم ينظمون هذا الشعر بلغتهم العامية ولهجاتهم المحلية، كما كان البدو في جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده أيضًا ينظمون الشعر باللغة العربية التي كانت لغة الكلام، ويغنون ويضربون على الدف وينفخون في المزمار، وما سمعوا قطُّ بعبده الحامولي أو سيد درويش. وقد

سمعت مقطوعات شتى من قصيدة طويلة، نظمها رجل من أقاصي الصعيد هجرته زوجته وفرت مع مَن لا يعرف، فذهب يبحث عنها في كل مكان حتى انتهى إلى بورسعيد واهتدى إليها هناك، فعاد أدراجه وتركها مع من وجدها معه. وفي هذه القصيدة يصف رحلته وما لقي فيها ويسرد ذكرياته، والقليل الذي روي لي منها يسمح لي أن أقول إني أفضلها- إذا كانت كلها من طبقة ما سمعت -على هومر، وكم من إنسان خرج من جنته كما خرج آدم، وكم من شاعر دفن شعره لأنه لم يجد له راوية.

وقد تلقى المتنبي اللغة من العارفين بها في البادية والمدن المتحضرة، فصار من أعلم الناس بها، وكان هذا بعض ما يتعجبون له منه، ولكن المتنبي شاعر بسليقته؛ لا لأنه واسع العلم باللغة، ولو لم يكن له كل هذا العلم لبقي شاعرًا، ولو كان لم يُرزَق السليقة ولم يُوهب المَلَكة والروح لما عدا أن يكون واحدًا من الرواة الكثيرين، أو ممن يحفظون من اللغة فوق ما يحفظ الأوساط العاديون، لأن العبرة ليست بكثرة المحفوظ ولا بسعة العلم بل بالملكة، ثم بالقدرة على الأداء والذوق فيه، فالجهل لا يمنع أن تظهر الروح الفنية، والعلم يؤازر ويسعف ولكنه لا يخلق.

وقد سقت في محاضرتي مظهرين لروح الفن في مصر: الفكاهة والطرب للغناء فلا أعود إليهما، ولكني أحب أن أنبه إلى ما يبدو من سواد المصريين عند السماع فإن الإحساسات التي يثيرها الصوت تطغى عليهم وتستغرقهم وتنسيهم الوقار والاحتشام المألوفين، فنرى الرجل الرزين يقوم ويقعد، ويصيح ويزعق بأصوات الاستحسان، ويلح في طلب الإعادة وينشد الري، كأن هذا آخر ما كُتِب له أن يسمع، ولا تراه يقنع بما يلمس ولا ينفذ من نفسه إلى الأعماق.

وهذا من حب الحياة، وكل إنسان في كل أرض يحب الحياة ويتعلق بها ويحرص عليها، ولكن المصريين من أشد الأمم حبًّا لها ورغبة في تخليدها، ومن فرط حبهم للحياة عنوا بالموت كما لم تُعنَ به أمة أخرى، ومن فرط حبهم للحياة أحبوا السرور واللذة وأغرقوا في طلب المتعة، وأسرفوا في التماس الشعور بلذة الوجود؛ فلسفتهم محورها هذا، وطبيعتهم راجعة إلى هذا، وخصائصهم في السرور والحزن وفي الشجاعة والجبن، وفي الصبر الذي يكاد يلتبس بالبلادة، وفي الطاعة والاستسلام، وفي التمرد والعصيان، وفي كل حالة من حالاتهم، ترتدُّ إلى فرط حبهم للحياة.

وقد أشرت في محاضرتي إلى إيثار المصريين للارتجال في الغناء، وتفضيل المغني أو العازف القادر على الابتداع والابتكار عفو الساعة والبديهة، وهو يعرف ذلك ويروض نفسه عليه، ولا يستنكره أو يتململ منه، وقد تكون هذه سذاجة ولكنها من روح الحرية التي هي أغلى ما تعتز به روح الفن، ولا أحتاج أن أقول إن الفنون تموت إذا فقدت الحرية، وصحيح أن التزام لحن معين لا ينفي أن الفنان كان حرًّا في صوته وابتكاره، ولهذا قلت إن سرور الشعب بأن يرى المغني يتصرف ويذهب في الصوت على هواه من السذاجة، ولكنها سذاجة ترجع إلى حب الحرية، التي لا يقوم فن بغيرها.

ومن شاء فَلْيسأل أي واحد من معارفه أو أقربائه عن «أول» ما يخطر له أن يصنع إذا رُزِق مالًا وفيرًا، فإنه خليق أن يسمع منه -إذا آثر الصدق ولم يستحِ، وقبل أن يشاور نفسه -أنه يشتهي أن يبني قصرًا كبيرًا، وأن يقتني السيارات والجياد وأن يؤثث البيت - أو القصر كما يحب أن يسميه - بأفخر الرياش وآنق الأثاث إلى آخر ذلك، أما التفكير في تثمير المال فيجيء بعد ذلك، وهل خرَّب بيوت الموسرين منا إلا جريهم مع أول الخاطر الذي تمليه روح الفن المصرية، وإلاَّ سحر الخيال الذي يعمِّق ويقوِّي ويضاعف الشعور بالحياة والإحساس بوقعها؟

وحب الفخفخة والعظمة راجع إلى خصائص مصر الفنية، وآثار مصر القديمة تدل على أن المصريين أشد ولعًا بمظاهر الجلال منهم بمظاهر الجمال، ولهذا يؤثرون الكبر والاتساع والضخامة والروعة، أيْ كل ما يكون عظيم الواقع، ويفضلون ذلك على الأناقة والظرف والحلاوة، والقَصْر الضخم عندهم خير من البيت الصغير الأنيق الجميل، والسعة والرحابة والعلو والضخامة آثر وأولى بالإعجاب، ويدعو الرجل إلى بيته ثلاثة أو أربعة، فيصنع لهم طعامًا يكفي عشرين، ويحتفل بعرس فيحسب حساب من لم يُدعَوا ومن لا يمكن أن يدخلوا في حساب، ويكون فقيرًا لا يعرفه أحد، ويموت له واحد، فيقيم سرادقًا يزحم الشارع كله - ويتعجب للأجانب الذين يصنعون الطعام على قدر الحاجة، ويضحك منهم - إلى آخر هذه المظاهر التي تدل على أن المصريين يتعلقون بمعاني الجلال أكثر من تعلُّقهم بمعاني الجمال.

ومظهر آخَر لروح الفن: ترى في الطريق رجلين يتشاتمان، ويوشك أن يتضاربا فتقف لترى ما يكون منهما، فتسمع أحدهما يقول للثاني إنه سيأكله بلحمه وعظمه، فيرد عليه الثاني بأنه سيفرمه فرمًا وينثر لحمه المفتت للكلاب، فيقول الأول بل هو سيتناوله ويضرب به الأرض ويبططه، فيقول الثاني إنه سيقتلع له لسانه من جذوره حتى لا يثرثر بعد ذلك، وسيفقأ له عينه ليعمى، وسيفعل كيت وكيت بيديه وأذنبه، فيعود الأول إلى وصف ما ينوبه من ضروب التمثيل بخصمه.

ويظلان هكذا حتى يدخل بينهما المصلحون وتمضي كل جماعة بواحد وينفض السامر ويصفو الجو، وقد سمعت من يعيب المصريين بهذا وينعتهم بأنهم أمة قوَّالين لا فعَّالين، ولست أرى رأي هذا العائب؛ فإن الأمر مرجعه إلى الروح الفنية، ويخيل إليَّ أن المصري يجد لذة مغرية بالاسترسال في طلب تذوقها حين يصور لنفسه وللناس ضروب الأذى التي ينوي أن ينزلها بخصمه، ويظهر أن لذة التصوير والوصف تفوق عنده كل ما عسى أن يفيده من الرضا والارتياح إذا هو أوقع بخصمه فعلاً، وكأني به يقيس، فيما بينه وبين نفسه

حقيقة الأذى الذي يستطيع أن يصيب به خصمه، إلى ما يتخيل ويشتهي من ذلك ويتمنى لو رآه في الحقيقة والواقع، فيجد أن الحقيقة دون الخيال، ويسحره الخيال ويفتنه بما يعرض عليه من الصور فيذهب معه، وهذا عندي هو التأويل الصحيح لهذه الظاهرة.

وقد أشرت في محاضرتي إلى روح الفكاهة عند المصريين، فلا أعود إلى ذلك ولكني أقول إن قوام كل أدب وكل فن- إذا آثرنا البساطة في التعبير وزهدنا في الحذلقة الفارغة والفلسفة التي تعقِّد الأمور -أن للآداب والفنون دعامتين كبيرتين هما الملاحظة والخيال، وأظن أن فكاهة المصريين وحدها كافية للدلالة على عظم نصيبهم من هاتين، فما من سبيل إلى فكاهة بغير ملاحظة دقيقة وخيال يقيس ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون.

وكثيرون منا أدركوا عهد الشاعر ذي الربابة على دكته العالية وسجادته أو فروته، ولهذا نظير في العصور القديمة عند الأمم الأخرى، ولكن الذي ليس له نظير في غير أمتنا- فيما أعتقد - أن الشاعر لا يقص الحكاية كلها، بل يقتصر على بعضها ويكف عن الرواية قبل أن يبلغ النقطة الحاسمة؛ ليترك السامعين متلهفين على البقية بعد أن حرَّك نفوسهم لها، وقد تكون هذه تجارة ليعود الناس إليه في الليلة التالية.

ولكن التجارة لا تروج إلاَّ حيث تكون لها سوق، ولولا أن طبيعة الناس تسمح بهذا السلوك لما استطاع الشاعر التاجر أن يستغل الرغبة في الاطلاع والارتياح.

والأمر الثاني أن السامعين يندمجون مع أبطال القصة ويشاركونهم في شعورهم وينقسمون، فالبعض ينحاز إلى واحد من أبطال القصة، والبعض يؤيد خصمه. وقد كان يبلغ من قوة الاندماج بالخيال مع الأبطال أن تقع المشاجرات الدموية بين السامعين المختلفين، بل أن تُطلَّق النساء أيضًا من جرَّاء ذلك، ولا يمكن أن يقع مثل هذا إلا في أمة مطبوعة على روح الفن مع البساطة والسذاجة.

*****وحسبي هذه الأمثلة التي يسهل القياس عليها.**

ومن سوء الحظ أن المدنية الغربية تطغى على مصر طغيانًا شديدًا يوشك أن يطمس الخصائص المصرية وينكرها، ويجعلنا صورة طبق الأصل من أوربا، ولا خير في هذا، وإنما الخير أن نحتفظ بخصائص روحنا من غير أن نهمل ما يمكن اكتسابه من مدنية الغرب، ولست أعني أني أريد أن يعود عهد الشاعر ذي الربابة، وعهد الأفراح الصاخبة، وإنما أوثر أن تبقى روح مصر مصرية، وأن تحافظ على خصائصها، وأن لا نخجل من مظاهرها في حياتنا وسيرتنا وعاداتنا، وأظن أن هذا هو الذي سيكون بعد أن نشبع من التقليد ونجتاز فترته.

النكتة المصرية

نشر في مجلة : الهلال – بتاريخ يوليو١٩٤٧

النكتة مظهر فطنة، والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك، ويندر أن يستطيع صاحبها التحليق فوق المظاهر، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة، وهي تُضحِكنا بما فيها من مقابلة بين أمرين أو حالين أو سلوكين، مستورين، أو مستور وبادٍ، أو باديين. **مثال ذلك ما عُزي إلى صديقنا الأستاذ محمد خطاب بك من أنه قال لسيدة زعمت أن زوجها يهدي إليها في كل عيد ميلاد لها مائه جنيه:**

«إذن أنت مليونيرة!» وكثيرًا ما تدور النكتة على تشابه الألفاظ في الجرس واختلاف في دلالاتها أو معانيها، ومثل هذا الضرب لا سبيل إلى نقله إلى لغة أخرى؛ لأنه يتعلق باللفظ لا بالمعنى أو الصورة، وفي النكتة معنى النقد، بالسخرية والتهكم وما نسميه «القفش». كان للمرحوم إمام العبد الشاعر الزجال صديقٌ يقضي النهار في النوم والليل في السهر، فقال إمام على سبيل «القفش» لصديقه وتصوير حاله المقلوب، إنه رسم صورته عصر يوم بالقلم الرصاص على «طاولة» في مقهى، فلما غابت الشمس نهضت الصورة واقفة!

أما الفكاهة فشيء مختلف جدًّا؛ لأنها تدور على المعاني والحقائق، وتغوص على الجوهر، ولا تتعلق بالصور العارضة، وأنا أخالف من يذهبون إلى أن هناك فكاهة لفظية وأخرى معنوية، وعندي أن ما يسمى فكاهة لفظية أولى به أن يدخل في باب النكتة، وأخالف أيضًا من يظن أن الفكاهة من شأنها أن تغري بالضحك أو على الأقل بالابتسام، وعندي أن الفكاهة قد تضحكك أو لا تضحكك، فليس هذا بالذي له قيمة، وهو راجع إلى الأسلوب الذي يساق فيه المعنى. وقد تجيء الفكاهة صارمة الجد، بل أصرم من الجد نفسه، وسواء أحملتك أم لم تحملك على الضحك أو الابتسام، وأدخلت أو لم تُدخِل على نفسك السرور، فإنها لا بد أن تغريك بالتأمل والتفكر، والنظر والتدبر، وسأسوق مثالًا واحدًا له نظائر كثيرة: قصيدة الشاعر الإنجليزي توماس هاردي اسمها على ما أذكر «وفد الأرض»، وفيها يتخيل الشاعر أن وفدًا من الكرة الأرضية صعد إلى السماء، واستأذن فدخل على «الرب»، وشكا إليه سوء حال الجنس الإنساني، وما يلاقي من الحروب والأوبئة والطواعين والظلم والقسوة إلى آخر ذلك، فأخذ الرب يتفكر ويحاول أن يتذكر، ويقول كمن يُحدِّث نفسه: الأرض؟ الجنس الإنساني؟ إني أتذكر أني قبل ملايين من السنين خلقت شيئًا كهذا في جملة ما خلقت من ملايين الكواكب والنجوم، فهل هذه الأرض لا تزال موجودة؟

وهنا ينبغي أن أقول: إن الشاعر مسيحي صحيح الإيمان بدينه، وليس بملحد كما قد يسبق إلى وهم القارئ، وقصيدته هذه تنتهي بما يشهد له بصحة العقيدة وعمق الإيمان، وهو لا يريد أن يقول إن الله – سبحانه- نسي الناس وكرتهم الأرضية، وإنما يريد أن يصور ضآلةَ هذه الكرة - التي يتوهم الأكثرون أنها مركز الدائرة وقطب الرحى في هذا الكون المهول الذي لا يُعرَف له أول أو آخر- وهوانَ شأن الإنسان المغرور المنتفخ الأوداج، **وقد تبتسم حين تقرأ قول الشاعر على لسان الرب فيما يتخيل:** ألا تزال هذه الأرض موجودة؟ ولكن الابتسام يغيض حين تدرك المعنى المقصود،

وتفطن إلى ما بطن به هذا المزح، فتروح تفكر في هذا الإنسان الضعيف المغتر، وهو أن شأنه شأن أرضه، وطموحه المضحك على الرغم من جلاله وتوهمه أنه شيء له قيمة، وسعيه ودءوبه، وتعثره وتخليطه، وتوفيقه مرة وإخفاقه مرات وحيرته حيال الأقدار الراصدة له في حيث سلك إلى آخر هذا، ودَأْب توماس هاردي ووكده، في شعره ورواياته، أن يضع الإنسان في كفة، والأقدار في كفة أخرى، والقدر غالب، ولكن هاردي لا يسخر من الإنسان، بل يعطف عليه ويرثي له، بغير كلام يُعرِب به عن العطف والمرثية، لأن قلبه كبير، وأفقه واسع، على خلاف أناتول فرانس معاصره، فإنه مر وعر.

****

ويُخيّل إليّ أن النكتة المصرية بنت عوامل ثلاثة على وجه الخصوص:

أولها :ما اشتهر به المصريون من أقدم العصور من الذكاء الفطري وحدة الفؤاد وحضور البديهة وسرعة الخاطر، وليس هذا مدحًا، وإنما هو تقرير حقيقة وقد يخفى هذا الذكاء من جراء الأمراض الوبيلة التي تستنفد الحيوية وتترك من يعانيها أشبه بالبُلْه أو الأغبياء، ولكن هذه الأمراض على شدة فتكها بالأبدان وامتصاصها لحيويتها، لم تستطع أن تحجب فطنتهم الطبيعية فلا تزال ألسنتهم - على الرغم منها - تجري بالنكتة اللاذعة والسخرية المُرَّة.

وثانيها :ما هم مفطورون عليه من الجَلَد المدهش، والقدرة على التشدد والصبر والاحتمال، ومن أعون الأشياء على الجَلَد أن تستطيع أن تهوِّن الأمر على نفسك بنكتة ساخرة، وأن تهوِّن أمر مَن منه بلاؤك ومصابك بأن تركبه بالهزل، وأن ترسم له صورة تغري بالضحك منه، والاستخفاف به، وبذلك تدرك غرضين: تخفِّف وقع ما تكابد، وتشرح صدرك، والضحك مدد قوي للنفس، ونجدة في ساعة المحنة،

ومَن وسعه أن يضحك وهو يتوجع، فقد وسعه أن يستل الإبرة الواخزة، وينزع السهم الواقع. **والغرض الثاني** أنك تشعر بأنك أخذت ثأرك وشفيت نفسك، وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره وتصغير شأنه وإضحاك الناس منه، بل هناك غرض ثالث تدركه بالنكتة، هو أن مَن تُطلِقها عليه يكون قد أخفق؛ لأنك إذا استطعت أن تقابل عنته وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة، فكيف يمكن أن يقال إنه قد نالك بمساءة؟ أو أن ما توهمه مساءة قد بلغ حيث يريد؟

وثالثها: أن المصري عاش في ظل حكم استبدادي غاشم آلافًا من السنين، والعسف يورث النفوس مرارة، ولا يبيت الناس منه إلاَّ على حذر وتقية، وإذا كان المصريون لم يستطيعوا في هذه الأدهار الطويلة أن يغيِّروا الحال تغيُّرًا يمحو ما استقر في أعماق نفوسهم، فقد كان ملجؤهم التحرز وإضمار سوء الظن وإطلاق اللسان، وألفوا أن يدعوا حكامهم وولاة أمورهم يفعلون ما يشاءون على أن يقولوا هم فيهم ما يشاءون، ولست أعرف أمة أخرى - وقد أكون مخطئًا - تبسط ألسنتها في رجالها ورؤسائها وحكامها كما يبسطها المصريون، أو تحرص على حرية «الاغتياب» مثل حرصهم، وأحسب أن «الحاج» براون لم يخطئ حين استخلص في كتاب «بونابرت في مصر» من تاريخ الجبرتي، أن من أسباب ثورة المصريين مرتين على الجيش الفرنسي الذي دخل مصر بقيادة نابليون، ما فرضته قيادة هذا الجيش على المصريين من قيود على حرية الكلام، أو على الأصح حرية "الاغتياب".

ولعل هذه العوامل التي ذكرتها هي التي جعلت المصري أَمْيَل - في الأغلب والأعم -إلى النكتة منه إلى الفكاهة بالمعنى الصحيح، وأقدر عليها، على أني قد أكون مخطئًا في تصوري أو تصويري، ومَن ذا الذي لا يخطئ؟ ولكني أظن أني على صواب.

سـيرة ذاتـيـة

الاسم : محمود محمد محمود القليني

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة – عضوية عاملة رقم ١٩٧٧

الهاتف : ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩
النقال : ٠٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤
البريد الالكتروني :*elkellenymahmoud@yahoo.com*

الأعمال المنـشـورة :

١- **إنهم يذهبون** : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة –١٩٨٢.
٢- **الدجال والشيطان** : روايـة مركزمعروف بالإسكندرية –١٩٨٥.
٣- **إخناتون والكهنة** : مسرحيـة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-١٩٩٥.
٤- **محنة الإمام أحمد بن حنبل**: مسرحيـة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٧.
٥- **مصرع الخراسانى** : مسرحيـة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة٢٠٠٢ .
٦- **غائب لا يعود** : مسرحيـة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .
٧- **الفكر الإسلامى ومستجدات العصر**: كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥ .
٨--**عش حياتك سعيدا** : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار – ٢٠٠٥.
٩-- **النساء فقدن عروشهن** : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦.
١٠- **العمرية - فى رحاب عمر بن الخطاب**: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠٠٧.
١١- **أمير الصحافة العربية** : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار٢٠٠٩ .

١٢- **شخصية موسى النبى** : كتاب مكتبة بستان المعرفة٢٠١١ .
١٣– **الإسكندرية عناقيد العشق والغضب:** روايةمكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.
١٤- الثورة في وجدان المصريين:كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٢.
١٥- الباحثون عن الله: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق٢٠١٣.
١٦- الخروج من الجلد: رواية مكتبة بستان المعرفة٢٠١٣.
١٧- بلد راكبها عفريت : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.
١٨- شخصية المسيح:كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٤.
١٩- شخصية النبي محمد : كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٤.

الجوائـــــز :

١- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد .
٢- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إخناتون والكهنة .
٣- جائزة التأليف المسرحى من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراسانى .
٤- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية فى أدب إبراهيم عبد القادر المازنى).
٥- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير فى أدب يوسف إدريس) .
٦- جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ .
٧- جائزة من نادى أبها بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ .
٨- جائزة من نادى القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١.